الإعلام والرأي العام

تحرير

دانييل كاتز

دوروين كارترايت

صمويل إلدرزفيلد

ألفريد ماكلنج لي

ترجمة وتقديم

الدكتور محمود كامل المحامي

تصدير

الدكتور سمير محمد حسين

الإعلام والرأى العام

تحرير

دانييل كاتز

دوروين كارترايت

صمويل إلدرزفيلد

ألفريد ماكلنج لى

ترجمة وتقدم

الدكتور محمود كامل المحامى



نشـــر هذا الكتاب بالاشـــتراك

مـــــع

الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

القاهـــــرة

الطبعة الثانية يناير ١٩٩٦

اسم الكتــــاب: الإعلام والرأى العام
ترجمة وتقديم: د. محمود كامل المحامى
تاريـخ النشـر: ١٩٩٦
رقم الإيـــداع: ٨٢/٣٧٦١
النـاشـــــر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر
المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٨ - ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩
فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥
فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥
ص.ب: ٩٦ الفجالة
ادارة النشـــر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤
فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦
ص.ب: ٢٠ امبابة

تصـــــدير

بقلم

الدكتور سمير محمد حسين

عميد كلية الاعلام

جامعة القاهرة

هذا الكتاب الذى بين يديك يجمع بين الحداثة والقدم فى الوقت نفسه . . وقد تضافر هذان العاملان - رغم تنافرهما - على تحقيق الفائدة المتوقعة من ترجمة هذا الكتاب ونشره

ووجه الحداثة فى هذا الكتاب مادته ، والقضايا المثارة فيه ، والموضوعات التى يشتمل عليها ، فهو يعالج قضايا الرأى العام والدعاية والإعلام من عديد من الزوايا ، وهى نوع القضايا المتجددة بطبيعتها ، والتى لا تزال فى حاجة ملحة إلى جهد كبير من الباحثين والممارسين فى مجالاتها لكشف جوانبها المختلفة على المستويين الأكاديمى والتطبيقى ، وتبدو هذه الحاجة بشكل واضح فى مصر ، حيث تفتقر المكتبة العربية إلى الدراسات والبحوث المتنوعة فى قضايا الإعلام بصفة عامة ، والرأى العام والدعاية بصفة خاصة ، كما لا يزال العديد من المنظمات المصرية فى مسيس الحاجة إلى الاستخدام الموضوعى الرشيد لأساليب قياس الرأى العام وتوجيهه والتأثير فيه فى الاتجاهات المحابية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المثارة فى المجتمع .

أما وجه القدم فى هذا الكتاب فيتمثل فى بعض النتائج الواردة فى بعض أجزائه للتدليل على اتجاهات معينة ، أو للتأكيد على نقاط فى المناقشة ، حيث تمثل نتائج بحوث ودراسات أجريت منذ مدة بعيدة ، وأصبحت الآن فى حكم البيانات التاريخية التى لايمكن الاعتماد عليها فى تفسير ظاهرات جديدة مماثلة للظاهرات موضوع البحث والدراسة والتحليل فى الفصول والأجزاء الواردة فى هذا الكتاب .

أما كيف تضافرت عوامل الحداثة والقدم - رغم التنافر الظاهر بينهما - على تحقيق الفائدة المتوقعة من ترجمة هذا الكتاب ونشره ، فتبدو واضحة فى أن الكتاب استثار العديد من القضايا والموضوعات والنقاط الجديرة بالبحث والدراسة فى مجال من المجالات التى تحتاج إلى المزيد من الجهد على المستويين

الأكاديمى والعلمى ، فى حين ساعدت النتائج - المتقادمة نسبيا - على إعطاء مؤشرات ذات دلالة ونماذج تحيليلة متنوعة تضىء الطريق أمام الباحثين فى تفسير الظاهرات الخاصة ذات التأثير البالغ على الرأى العام وفى التعرف على المتغيرات المؤثرة فى الرأى العام والدعاية والإعلام ، وعلى أساليب وطرائق تحليل البيانات والمعلومات والنتائج المرتبطة بدراسات الرأى العام والإعلام والدعاية ، وعلى نوع الموضوعات التى يجب تناولها والتطرق إليها فى هذا المجال كدراسات القراء والقارئية والمقروئية ، ودراسة المستعمين والمشاهدين ، وتحليل مضمون المواد الإعلامية والدعائية ، والتعرف على قادة الرأى على المستويين الرسمى والجماهيرى فى المجتمعات المختلفة ، ودراسة درجة تأثيرهم فى الرأى العام ، ودراسات الأثر الإعلامى والدعائى للمواد الإعلامية والدعائية المنشورة والمعروضة والمذاعة بوسائل الإعلام كافة .

وهكذا فإن الباحث الحصيف سوف يفيد من مادة هذا الكتاب مرتين ؛ الأولى فيما يتعلق بالموضوعات المثارة فيه ، والثانية باستخدام النتائج الواردة فيه كأساس يمكن أن تنبنى عليه فروض بحثية جديدة تعالج ذات القضية المثارة بأساليب وطرق وأدوات ومداخل بحثية جديدة ومتطورة تنهل من التطورات الهائلة التى شهدتها مناهج بحوث الإعلام فى السنوات الأخيرة .

وثمة جانب آخر يمثل ميزة نسبية لهذا الكتاب ، وهو تعدد من أسهموا فى أعداد مادته العلمية ، فهذا الكتاب ليس من تأليف كاتب أو مؤلف واحدً ، مجموعة من الدراسات والبحوث التى أعدها مجموعة من المتخصصين - أكاديميا وتطبيقيا - فى مجالات الرأى العام والدعاية والإعلام ، قام بتجميعها وترتيبها والتنسيق بينها أحد الخبراء الأمريكيين البارزين فى الكتابات الخاصة بالدعاية والرأى العام والإعلام وهو « دانييل كاتز » محرر هذا الكتاب ، وقد تم انتقاء مجموعة من هذه الدراسات والبحوث لترجمتها فى الطبعة العربية ، وهكذا فإن الباحث المصرى سوف يتعرض لوجهات نظر متعددة ، ولجهود بحثية متنوعة تناولت موضوعا واحدا هو موضوع الكتاب ، وبهذا لا ينحصر تفكيره فى وجهة نظر واحدة ، وإنما ستتحقق له درجة عالية من الانفتاح الفكرى على آراء ووجهات نظر واستخلاصات مجموعة متعددة من الباحثين فى مجال الإعلام والرأى العام .

ومادمنا قد تعرضنا فى هذا التصدير لقضية « التحديث » ، يصبح من المناسب أن نتطرق إلى إطار عام وشامل ، وهو الإطار الفكرى الحديث لموضوع الرأى العام ومفاهيمه الحديثة ، والعوامل المؤثرة فيه ، والمتغيرات المرتبطة به ، ومدى الحاجة إلى ترشيد استطلاعات الرأى العام وقياساته وبحوثه فى الدول النامية ، والصعوبات التى تصادف هذه الدول ، والجهود الدولية والوطنية المبذولة فى هذا المضمار .

ولقد بدأ الاهتمام الجدى والتناول العلمى للرأى العام منذ أوائل الثلاثينيات مع بداية انشاء معهد « جالوب » ، وبمضى السنوات ، وتوالى الجهود العلمية والتطبيقية فى مجال دراسات الرأى العام تراكمت حصيلة كبيرة ومتنوعة من الخبرة العلمية والعملية فى هذا المجال أصبح من الميسور السحب على رصيدها لدى العديد من دول العالم لاسيما الدول المتقدمة ، وذات الأنظمة الديمقراطية .

وهكذا ، وبمرور الوقت ، وبتزايد حصيلة المعرفة والخبرة أصبح « الرأى العام » يحتل الآن مكانا مرموقا فى جميع دول العالم على الرغم من الاختلافات السياسية والنظم الدولية ، وذلك على مستوى النظرية والتطبيق .

فالرأى العام – كعلم – أصبحت له نظرياته وفلسفاته وتقنيناته المختلفة ، واستخداماته فى النظم السياسية المتنوعة ، وأساليب قياسه وتوجيهه ، وأصبح من المواد الأساسية التى تدرس فى العلوم الاجتماعية والاعلامية بمجالاتها المختلفة فى مختلف الجامعات فى العالم ، واتجهت بعض الدول إلى انشاء معاهد علمية مستقلة بالجامعات متخصصه فى تدريس الرأى العام والعلوم المتصلة به ، وهو ما يعكس الاهتمام الأكاديمى بهذا العلم ، والرغبة فى تطويره علميا وتخريج أخصائيين على مستوى عال من التأهيل فى مجالاته وفروعه المختلفة .

أما على مستوى الممارسة والتطبيق فقد بدأت كافة الحكومات ، والتنظيمات السياسية ، والأحزاب فى كافة الدول بالاهتمام بدراسة الرأى العام حول مجموعات القضايا المختلفة التى تستأثر باهتمامها وتعمل على معالجتها على أسس موضوعية ، هذا فضلا عن الاهتمام بالرأى العام لدى جميع المنظمات الدولية أو الإقليمية أو الوطنية ، ولدى العديد من المنشآت فى القطاعات المختلفة داخل كل دولة كالأجهزة الحكومية والمؤسسات والشركات وأجهزة الحكم المحلى وغيرها من الأجهزة التى تتعامل مع فئات متنوعة من الجماهير يهمها أن تتعرف إلى آرائها واتجاهاتها فيما تقدمه من خدمات أو إنتاج .

وقد انعكس هذا الاهتمام فى اتجاه معظم الدول إلى إنشاء مراكز ومعاهد ومؤسسات لقياس الرأى العام ودراسته ، وفى تعدد هذه المعاهد والمراكز داخل الدولة الواحدة ، نظرا لحاجة منظمات وهيئات متعددة فيها لقياس الرأى العام كالهيئات والمنظمات الإعلامية ، والسياسية ، والاحزاب .

والرأى العام فى مجتمع ما « هو الرأى الغالب أو الاعتقاد السائد أو إجماع الآراء أو الاتفاق الجماعى لدى غالبية فئات الشعب أو الجمهور تجاه أمر أو ظاهرة أوقضية أو موضوع معين يثور حوله الجدل ، وهذا الإجماع له قوة وتأثير على القضية أو الموضوع الذى يتعلق به » .

ومن هذا التعريف الشامل يمكن أن ننتهى إلى مجموعة من القواعد الأساسية المرتبطة بالرأى العام والمؤثرة فيه ، وهى :

* الرأى العام هو مجموعة آراء الناس ووجهة نظرهم فى الحياة العامة .
* الرأى العام فيه وجهات وتيارات مختلفة ، وأفكار متعددة ومنقسمة ، ولكل تيار حجته .
* الرأى العام له أثره فى الحياة السياسية ، ويترتب على اتجاه الرأى العام تطور الحياة الآجتماعية والجماعات وسير الحكومات فى تشريعاتها وتصرفاتها .
* يتميز الرأى العام بوجود درجة عالية من الحساسية فيه تجاه الأحداث الهامة .
* يتأثر الرأى العام أيضا بمؤثرات خارجية وعوامل ثقافية واقتصادية وتربوية وحياة الجماعة وموقف الفرد منها .
* الرأى العام ديناميكى ، أى دائم الحركة والتبدل والتطور .
* الرأى العام هو الظاهرة الفكرية الناجمة عن الحشد الذهنى للجماعات التى يترتب عليها أقوى العلاقات الاجتماعية والنفسية للفرد ثم الجماعة ، وهى حركة اجتماعية تتأثر بما يأتى من الفرد فى إطار الجماعة ، وبذا توجه الأفراد جماعيا .

* الرأى العام نتاج اجتماعى لعملية اتصال وتأثير متبادل بين عديد من الجماعات والأفراد فى المجتمع ، ويشترط لوجوده ضرورة وجود اتفاق موضوعى ، ووجود الاختلاف ، كما أنه يفترض المناقشة العلنية لموضوع الرأى .

وهكذا يمكن أن نستدل ، من المكونات السابقة ، على مدى التعقيد والتركيب فى الرأى العام ، الأمر الذى يستوجب ضرورة الاتجاه إلى قياسه بطرق وأساليب موضوعية تضمن الوصول إلى نتائج دقيقة يمكن على أساسها اتخاذ القرارات الصحيحة فى شتى المجالات .

إن ديناميكية الرأى العام وتغيره المستمر تفرض على صانعى السياسات ومتخذى القرارات سواء على المستوى السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى وسواء على المستوى القومى أو القطاعى أو الجزئى ، والمركزى أو على المحلى ، قياس الرأى العام تجاه القضايا المختلفة قياسا علميا دقيقا وبشكل دائم ومستمر ، وذلك بهدف معرفة الواقع الفعلى بحجمه الطبيعى ودراسة مشكلاته الملحة وتقييم ماتم ، والتوصل إلى الصورة الصحيحة عما لدى الجمهور من معلومات وآراء واتجاهات .

ولا شك أن مثل هذا القياس الدقيق لاتجاهات الرأى العام لدى الجمهور العام أو لدى فئات مختاره منه سوف يتيح الفرصة للمنظمات المختلفة فى اتخاذ قراراتها على ضوء الحقائق الموضوعية . كما يسمح للدولة وللمنظمات المختلفة فيها أن توجه الرأى العام توجيها سليما ، وأن تحشد قوته وتركزها لتتجه اتجاها محابيا لأنماط التنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية المستهدفة ، وهو مايتمشى مع الاتجاهات الحديثة فى التأثير فى الرأى العام على أساس قاعدة التوجيه نحو الأهداف القومية بالاستخدام الواعى للإعلام والدعاية والتوعية .

والرأى العام أنواع متعددة ، ويذهب الباحثون إلى تصنيفها طبقا لمجموعة من المعايير المختلفة ، وهم فى هذا الصدد يذهبون إلى التفرقة بين نوعياته المختلفة على النحو التالى :

– **الرأى العام العالمى أو الدولى** ، ويقصد به الاتجاهات التى تسيطر على أكثر من مجتمع واحد ، أو التى تعكس توافقا فى الموقف بين أكثر من وحدة سياسية واحدة ، وهو سمة من سمات المجتمع الدولى المعاصر .

- **الرأى العام الإقليمى** أى السائد بين مجموعة من الشعوب المرتبطة والمتجاورة جغرافيا وله عدة مقومات كالارتباط التاريخى والمصلحة المشتركة ووحدة اللغة والثقافة ، وتقارب العادات والتقاليد .
- **الرأى العام الوطنى أو القومى** أى السائد داخل الدولة وله مقومات التجانس ، ومعالجة المشكلات القومية ، وإمكانية التنبؤ به .
- **الرأى العام المحلى** أى السائد فى محافظة معينة أو مجموعة من المحافظات أو الوحدات المحليات .
- **الرأى العام النوعى** أى الذى يعبر عن قطاع معين فى المجتمع .
- **الرأى العام اليومى** وهو الذى يتأثر بالأحداث اليومية ومجريات الأمور ، والإشاعات ، وما تنشره وسائل الاعلام المختلفة .
- **الرأى العام الظاهر** أى الذى يتم التعبير عنه .
- **الرأى العام الكامن أو المستتر** أى الذى لم يتحدد بوضوح ولم يتم التعبير عنه .
- **الرأى العام الوقتى** أى الذى يظهر حيال مشكلة وقتية ويتميز بعدم الاستمرارية ويتأثر بالدعاية والشائعات .
- **الرأى العام المؤقت** أى المرتبط بعوامل موضوعية أو زمنية أو مكانية معينة يزول بزوالها .
- **الرأى العام المتوقع** أى الذى يمكن التنبؤ به حيال قضية من القضايا .
- **الرأى العام النابه أو القائد** ، ويمثله صفوة المجتمع من القادة والمفكرين .
- **الرأى العام المثقف** ، ويمثله المتعلمون والمثقفون فى المجتمع .
- **الرأى العام المنساق أو المنقاد** وهو رأى الغالبية العظمى من المجتمع من الأميين أو الأقل حظا فى الثقافة والتعليم .

وللرأى العام خصائص متعددة لابد أن يدركها الباحثون فى مجاله وهم يقومون باستطلاعه وقياس اتجاهاته وإجراء بحوثه ، ومن أهم هذه الخصائص مدى انتشاره بين فئات الجمهور الذى يقاس رأيه ، ومدى استمراره حول موضوع معين ، وشدته وقوته ، ومعقوليته .

ويترتب على فحص ودراسة خصائص الرأى العام توجيه الباحث إلى نوع القياس المطلوب للرأى ، فخاصية اتجاه الرأى العام ومساره تقيس درجة التأييد أو الرفض أو الحياد بالنسبة لموضوع الرأى ، وخاصية مضمون الرأى العام ومحتواه تتوجه إلى قياس كمية ونوعية المعلومات المتوافرة لدى الرأى العام ومدى قيامه على معرفة حقيقية بالموضوعات والقضايا ، وخاصية استقرار الرأى العام وثباته تقيس مدى التغير الذى طرأ على الرأى العام إزاء موضوع معين بمرور الزمن ، وخاصية قوة الرأى العام وشدته تتوجه إلى قياس مدى الاهتمام الذى توليه الجماعات المكونة للرأى العام للقضية موضع الرأى ودرجة الاختلاف بين هذه الجماعات فى تمسكها بالرأى ، وخاصية مجال الرأى العام تقيس حجمه ونطاقه ، وخاصية تركيز الرأى العام تقيس قوته وشدته وثباته ، وخاصية عمق الرأى العام تقيس وزنه وعلاقته الارتباطية بالقيم والاتجاهات لدى المجموعات المختلفة .

ولقد أسفرت التجارب والخبرات فى مجال بحوث الرأى العام إلى تقسيمها إلى ثلاثة أنواع رئيسية يتميز كل نوع منها بخصائص ومقومات معينة ، ولكنها تتكامل معا فى تحقيق الأهداف الشاملة لدراسة الرأى العام دراسة متكاملة ومتعمقة ، وتتمثل هذه الأنواع الثلاثة فى :

- **استطلاع الرأى العام** : وهو النوع الأول من البحوث والذى يستهدف التعرف السريع والفورى للرأى العام حول قضية أو قضايا معينة فى مجال أو عدة مجالات (سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية) ، وذلك لمعرفة مدى الموافقة أو القبول أو الرفض لهذه القضية لدى القطاعات المختلفة الممثلة للرأى العام طبقا لنوعية القضية أو الموضوع ونوعية الجمهور أو الفئات المطلوب التركيز عليها لمعرفة رأيها .

ويعطى هذا النوع من الاستطلاعات نتيجة سريعة توضح النسبة المئوية للموافقة أو الرفض لدى هذه الفئات ، ويتسم هذا النوع بالسرعة والحالية لمواجهة متطلبات فورية ، لكنه لا يعطى نتائج متعمقة عن اتجاهات الرأى العام .

- **قياس اتجاهات الرأى العام** : وهو النوع الثانى من البحوث الذى يعبر استكمالا وامتدادًا للنوع الأول ، حيث يسعى إلى قياس شدة الرأى العام وعمقه إزاء القضية أو القضايا التى تم استطلاع الرأى العام فى النوع الأول بشأنها ،

بحيث يتعدى الأمر مسألة الاستطلاع الفورى السريع إلى مرحلة سبرغور أفراد العينة للتعرف على « شدة الاتجاه لديهم نحو القضية أو القضايا التى يقاس رأيهم بشأنها ، وهكذا يركز النوع الأول على الإجابة بنعم أو لا ، أو أقبل أو أرفض ، فى حين يركز النوع الثانى على مدى الموافقة أو الرفض ولأية درجة ولدى أية نوعيات من الجمهور .

ويتميز هذا النوع من البحوث بالبطء النسبى فى إجرائه ، وفى استخراج نتائجه وتحليلها ، كما يختلف عن النوع الأول فى استخدام أساليب وطرق قياس مختلفة فنيا ، ومن حيث التصميم والمعالجة ، عن الأساليب والطرق البسيطة المختصرة التى يمكن أن تستخدم فى النوع الأول .

كما أن نتائج هذا النوع من البحوث تعطى أبعادا أكثرا عمقا ، وتحليلا شاملا ومتعمقا لاتجاهات الرأى العام من حيث قوتها وشدتها وكثافتها لدى كل نوعية وكل فئة من نوعيات وفئات الجمهور .

- **بحوث الرأى العام** : وهو النوع الثالث من البحوث الذى يفيد فى توفير نوع من المعلومات والبيانات اللازمة لتحليل نتائج استطلاعات الرأى العام وقياس اتجاهاته على أسس موضوعية ومعرفية سليمة وواضحة ومستنيرة ، ذلك أن تحليل هذه النتائج لابد أن يستند على معلومات متكاملة عن مدى ملكية وسائل الإعلام المختلفة ، ودرجة التعرض لها ، ومدى التأثير الذى تحدثه كل منها فى المعلومات والمدركات والآراء والاتجاهات والسلوك ، وفعالية وسائل الإعلام المختلفة ، ودور قادة الرأى فى المجتمعات المتنوعة فى التأثير فى آراء الجماهير ، والعوالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والثقافية المحيطة بالرأى العام والموثرة فيه ، كذلك الدراسات الخاصة بطبيعة الفئات المختلفة فى المجتمع والوزن النسبى والأهمية النسبية لكل منها فى إطار المجتمع ككل وبالنسبة لكل قضية أو موضوع على حدة .

كما يتضمن هذا النوع من البحوث أيضا إجراء دراسات تحليل مضمون لما ينشر أو يعرض أو يذاع من خلال الرسائل الإعلامية المختلفة فى الخارج لمعرفة الآراء والاتجاهات السائدة بالنسبة لكافة القضايا المثارة بالنسبة للرأى العام الخارجى ؟

ويمكن إجراء نفس هذه الدراسات التحليلية على المواد الإعلامية المنشورة أو المعروضة أو المذاعة بوسائل الإعلام الداخلية للتعرف على الموضوعات والقضايا والآراء والاتجاهات المتضمنة فيها ، وأساليب المعالجة ، ومدى التركيز على كل قضية أو موضوع .

ويفترض الباحثون أن استطلاعات الرأى العام وقياساته وبحوثه تتم بنجاح فى الدول المتقدمة ، حيث تزداد درجة الوعى لدى الأفراد نتيجة ارتفاع المستوى التعليمى والثقافى ، وسيادة النظم الديموقراطية التى تتيح إمكانية التعبير الحر عن الآراء ، وتدفع الحكومات إلى سبر أغوار الرأى العام قبل اتخاذ أية قرارات سياسية أواقتصادية أو اجتماعية ، بالإضافة إلى توافر كافة العوامل والإمكانات المادية والتكنولوجية التى تتيح القيام بهذه الدراسات .

ولكن المشكلة تبرز بوضوح فى حالة الدول النامية ، وخاصة تلك التى لا تتبع فيها النظم الديموقراطية ، فعلى الرغم من الأهمية الكبيرة لقياس الرأى العام فى مثل هذه الدول النامية ، نظرا لارتباط نجاح برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية والثقافية فيها بمدى اعتمادها على القدر الكافى من المعلومات والبيانات الخاصة باتجاهات الرأى العام ، إلا أن عملية استطلاع الرأى العام وقياسه ودراسته فى مثل هذه المجتمعات تكتنفها صعوبات كثيرة من أهمها :

- نقص المعلومات المتاحة للأفراد داخل معظم هذه المجتمعات عن الموضوعات المختلفة التى يمكن أن يقاس الرأى العام بشأنها ، فمن المعروف أن عملية تكوين الرأى لاحقة على عملية اكتساب المعلومات عن الموضوع الذى يدور الرأى حوله ، كما أن توافر المعلومات الصحيحة يؤدى إلى تكوين الآراء الصحيحة ، وتفتقر بعض الدول النامية إلى توافر المعلومات بالكم والكيف المناسبين ، وبما يتيح للأفراد إمكانية تكوين رأى عام مستنير بشأن العديد من القضايا والموضوعات والمشكلات المطروحة .
- ويرتبط بالنقطة السابقة احتمال النقص فى وسائل الإعلام التى يمكن أن تستخدم بطريقة فعالة جماهيريا لتوصيل المعلومات عن الموضوعات المختلفة إلى قطاعات جماهيرية متعددة ، بالإضافة إلى وجود صعوبات تمنع من الانتشار الواسع لوسائل الإعلام على مستوى المجتمع ، فتعيق عملية توافر المعلومات بالقدر الكافى والمناسب لتكوين الرأى .

- كما يرتبط بالنقطتين السابقتين أيضا ارتفاع مستوى الأمية وعدم القدرة على القراءة والكتابة فى معظم المجتمعات النامية ، وهو ما يوثر فى الرأى العام وإمكانية تكوينه فى أكثر من اتجاه على النحو التالى :

* تحول الأمية دون تكوين وعى عام لدى الجماهير يتيح لها تكوين رأى عام مستنير إزاء القضايا والمشكلات المختلفة .

* تقلل الأمية من احتمال الافادة من المعلومات المتوافرة عن الموضوعات والقضايا المختلفة بوسائل الإعلام المختلفة نظرا لعدم إمكان قراءتها أو استيعابها .

* يؤدى انتشار الأمية بدرجة عالية إلى عدم تمكن أجهزة الإعلام المختلفة من أداء رسالتها الاعلامية فى تكوين رأى عام مستنير أزاء العديد من القضايا والمشكلات ، نظرا لانخفاض قدرة الأفراد الأميين على تلقى المعلومات وفهمها وربطها ببعضها البعض بطريقة ميسورة تؤدى إلى تكوين الرأى العام المستنير .

- التخلف التكنولوجى فى الدول النامية فى المجالات المرتبطة بالرأى العام من حيث تكوينه وحشده وبلورته وإمكانية قياسه ، مما يؤدى إلى التخلف فى مجال استطلاع الرأى العام وقياسه فى التوقيتات الملائمة لهذا القياس ، وبخاصة أن عملية قياس الرأى العام يلزم أن تتصف بالحالية والآنية والسرعة نظرا لارتباطها بموضوعات وقضايا حالية وعاجلة .

إن التخلف الواضح فى تكنولوجيا الاتصال لا يتيح الفرصة لتكوين الرأى العام بطريقة سهلة وميسورة ، كما أن التخلف الواضح فى مجال الحاسبات الالكترونية - من حيث توافرها ونوعيتها واستخداماتها وتكلفتها وإمكان الافادة منها - يشكل عقبة كبيرة فى استطلاعات الرأى العام فى الدول النامية .

- كما تتأثر عملية قياس الرأى العام أيضا بطبيعة الظروف والأوضاع الاقتصادية ومدى استقرارها ، فلا شك أن انعكاسات اقتصاديات الندرة على الرأى العام تختلف كثيرا من انعكاسات اقتصاديات الرفاهية ، حيث يركز الرأى العام فى الاقتصاديات المتخلفة على المشكلة الاقتصادية وكيفية مواجهتها والخلاص منها كمحور أساسى .

- النقص الواضح فى الموارد المادية مما لايتيح إمكانية القيام باستطلاعات الرأى العام وقياسه بطريقة سليمة .

- هذا بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من المشكلات المنهجية الناجمة عن الأوضاع الثقافية والتعليمية والحضارية ودرجة الوعى فى الدول النامية ، والتى تحول دون القيام باستطلاعات الرأى العام وقياسه والتوصل إلى نتائج ذات دلالة بشأنه ، نظرا لما يواجه الباحثين فى هذا المجال من صعوبات ومعوقات منهجية مرتبطة بدرجة وعى المبحوثين وإمكانية التعرف على آرائهم الحقيقية - فى حالة معرفتهم لها - بطريقة ميسورة ، ونوع أدوات البحث المستخدمة ، وطرق جمع المعلومات ، وأساليب صياغتها وإعدادها ، ونوع المناهج التى يمكن استخدامها ، وكشف مدى الصدق والثبات فى المعلومات التى تم جمعها .

فاذا انتهينا أخيرًا إلى استعراض التجربة المصرية فى مجال استطلاعات الرأى العام وقياساته وبحوثه ، سوف نجد أنها تجربة يمكن الخروج منها بعدة مؤشرات أساسية ، فالباحث فى هذا المجال يمكن أن يقوم بتصنيف دراسات الرأى العام فى مصر إلى مجموعات نوعية على النحو التالى :

* مجموعة الانتخابات والاستفتاءات المرتبطة ببعض القضايا السياسية كانتخابات الرئاسة أو مجالس الأمة والشعب والشورى والمجالس المحلية والاستفتاءات الشعبية بشأن بعض القضايا المطروحة من قبل القيادة السياسية ، تمثل استطلاعا جماهيريا مقننا للرأى العام ، ولكنها تظل عملية محددة فى إطار حكومى ، تتم بضوابط معينة ، وفى توقيتات خاصة ، مع ارتباطها بموضوع أو قضية مطروحة من قبل القيادة السياسية تريد أن تعرف مدى قبولها جماهيريا .

وبهذا تصبح هذه الانتخابات والاستفتاءات بدايات أولية لعملية استطلاع الرأى العام المصرى جماهيريا بشأن قضايا محددة ، وإن كانت لا تمثل القياس الدورى المتتابع للرأى العام واتجاهاته بصفة منتظمة حيال قضايا متنوعة .

* مجموعة « تقارير رأى » تعدها بعض الجهات الحكومية وعلى رأسها الهيئة العامة للاستعلامات ، وهى لا تزيد - فى حقيقة الأمر - عن كونها عملية جمع معلومات عن بعض القضايا المثارة عن طريق مراكز الاعلام ، وهذه

التقارير لا تعتبر فى الواقع قياسا للرأى العام ، وإنما تمثل حصيلة من المعلومات - التى تعوزها الدقة الموضوعية والمنهجية والشمول - تساعد على تكوين صورة عامة عن بعض الموضوعات التى تشغل اهتمام بعض فئات الجماهير وآرائهم بشأنها ، وبهذا لايمكن الاعتماد عليها فى اتخاذ قرارات صحيحة ، كما لايمكن اعتبارها من الناحية العلمية والموضوعية قياسا صحيحا للرأى العام .

* وجود جهاز لقياس الرأى العام ضمن مجموعة الوحدات العلمية التى يضمها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية أنشئ منذ ٤ سنوات ، وقام بإجراء عدة دراسات واستطلاعات للرأى العام إما بطلب من بعض الجهات الحكومية ، أو تلبية لبعض الاحتياجات العلمية والبحثية فى هذا المجال .

ويعتبر هذا الجهاز وحدة أكاديمية تعمل طبقا للأسس والمعايير العلمية الموضوعية فى قياس الرأى العام ، وإن كان لا يزال فى حاجة إلى المزيد من الدعم ليشارك فى عمليات استطلاع الرأى العام فى مصر بصورة أكثر اتساعا وشمولا وعمقا .

* وجود بعض المراكز الخاصة « الأهلية » التى تقوم بدراسات عن الرأى العام ، وإن كانت لا تزال حتى الآن فى البدايات الأولى ، وتحتاج أيضا إلى مزيد من الدعم ، كما تحتاج إلى الاعتراف أساسا بأهمية قيامها بقياس الرأى العام كأجهزة محايدة غير حكومية .

هذا بالإضافة إلى بعض الأجهزة التى تقوم بدراسات وبحوث متصلة بالرأى العام - وإن كانت لا تعتبر بحوث رأى عام بالمعنى الدقيق - كأجهزة بحوث المستعمين والمشاهدين ، والقراء ، وبعض مراكز بحوث التسويق ، وبحوث تنظيم الأسرة والسكان ، وغيرها من الأجهزة والوحدات البحثية - الحكومية والأهلية والخاصة - التى تقوم باجراء بحوث يمكن أن تفيد منها دراسات الرأى العام .

من هنا يستبين للباحث - وقد بدا جليا - أهمية استطلاعات الرأى العام وقياساته وبحوثه - أن مصر تفتقر إلى مثل هذا النوع من الدراسات والبحوث وأن الحاجة ماسة إلى تنظيم جهد علمى وتطبيقى فى اتجاه دعم نشاط استطلاعات الرأى العام وقياساته وبحوثه فى مصر .

ويود الكاتب هنا أن يؤكد على ضرورة وجود سياسة قومية واضحة لقياس الرأى العام فى مصر ، تأسيسا على أن هذا القياس مسألة سياسية وحضارية بالدرجة الأولى مرتبطة ارتباطا مباشرا بدرجة تقدم المجتمع وبازدياد اتجاه النظام السياسى صوب الديموقراطية ، وعلى ضرورة الاهتمام بالرأى العام فى كافة المجالات بدلا من تجاهله وافتراض الإحاطة به دون قياس علمى ، فى نفس الوقت الذى تتاح فيه الامكانيات المادية والتكنولوجية وتتوافر فيه الكفاءات والخبرات البشرية بدرجة عالية تسمح بامكانية القيام باستطلاعات الرأى العام بطريقة كفأة ودقيقة .

ويأمل الكاتب أن يتحقق فى عقد الثمانينيات فى مصر - إن شاء الله - وجود مركز قومى لقياس الرأى العام فى مصر ، يناط به القيام باستطلاعات الرأى العام وقياساته وبحوثه على النطاق القومى فى مصر ، وتتوافر له كافة المقومات والإمكانيات التى تمكنه من الاضطلاع برسالته القومية التى سوف تفيد منها كافة القطاعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والثقافية فى مصر .

وبعد . . . .

فلقد كان مبعث هذا الاستطراد فى توضيح قضية الرأى العام من بعض جوانبها فى هذا التصدير ، مجموعة الدراسات المتنوعة التى حفل بها هذا الكتاب الذى بين يديك ، والمقدمة الضافية للكتاب التى أعدها الدكتور محمود كامل ، وعرض فيها لقضايا متنوعة فى الرأى العام والدعاية والصحافة والإعلام العربى والدولى ، وأثراها بالعديد من الأمثلة والحالات والنماذج والمقترحات .

وبهذا يأتى هذا الكتاب المعرب فى شكلة النهائى بعد انتقاء موضوعاته من مادة الكتاب الأصلى ، وترجمتها ومراجعتها ، وإعادة ترتيبها بشكل متناسق ومتكامل فى نفس الوقت ، يأتى هذا الكتاب ليمثل إضافة فكرية مطلوبة إلى المكتبة العربية بعامة ، ومكتبة الدراسات الإعلامية العربية بخاصة ، فى موضوع لا يزال المجال فيه فسيحا أمام التأليف والتعريب .

والله من وراء القصد . .

مقـــدمة

بقـلم/ الدكتور محمود كامل

لا يسع الباحث المنصف – وهو يستعرض تطور الإعلام العربى بواسطة مختلف وسائله الجماهيرية ، الصحف والمجلات والنشرات الحكومية والكتب والمحاضرات العامة والسينما ثم التليفزيون فى بضعة الأعوام الأخيرة – إلا أن يقرر مطمئنا أن هذا الإعلام فى مصر قد حقق خلال الأعوام الأخيرة عديدًا من المنجزات مضطلعًا بمسئوليات عظيمة ازاء تحديات ضخمة ، سواء فى الميدان المحلى المصرى أو نطاق الوطن العربى الشامل أو على مدى الآفاق الدولية الواسعة التى وجهت اليها « موجات » الأجهزة المختلفة لهذا الاعلام ، على المستوى المجتمعى الذى يشمل قطرا بأكمله ، أو مز يجا من جماعات إنسانية وطوائف متعددة ، أو على المستوى الجماعى الذى يقتصر على جماعة أو طائفة معينة تنتمى إلى مهنة معينة أو طبقة معينة أو عقيدة معينة ، أو على المستوى الشخصى ، وهو ما يبديه الفرد من أدلة على طابع شخصيته ، بما فى ذلك آراؤه الخاصة وممارساته فى الجماعة التى ينتمى إليها أى طابع سلوكه الذى استمده من النماذج الاجتماعية للتقاليد والسير الشعبية أو على المستوى الذاتى باعتبار أن هذه « الذات المرآة » – كما يذهب الاستاذ كولى – ذات اجتماعية تقوم على عناصر رئيسية خاصة بتصور مظهر الفرد أمام الغير وتصور حكم هذا الغير على هذا المظهر ، وبعض الشعور الذاتى الخاص كالزهو أو الزهد – على التفصيل الدقيق الذى يطالعه قارىء هذا الكتاب فى الباب الذى كتبه بعنوان « العوامل الاجتماعية المحددة للرأى العام » ولقد حققت أجهزة الإعلام العربية هذه المنجزات فى هذا الزمن القصير رغم أنه لم تكن لديها من قبل فيما نعلم – دراسات « مسح ميدانى » – إذا التزمنا الترجمة الحرفية للتعبير الأجنبى – عن كل قطاع من قطاعات الرأى العام – المحلى أو العربى الشامل – تستند إلى استفتاءات وإحصاءات عن المواقف التى على أجهزة الإعلام أن تواجهها ، باعتبار أن المكتبة العربية كانت خالية من مراجع علمية عن تحليل الرأى العام وفن الاعلام ، لأن الإعلام لم تكن قد أنشئت له معاهد ولم يقرر كمادة « أكاديمية » ولم توضع عنه أبحاث علمية إلا منذ زمن قصير بعد أن كانت أجهزة الأعلام العملية العربية قد اندفعت تسير على الطريق سيرا حثيثا .

ولقد تبينت – على ضوء تجربة شخصية متواضعة – مبلغ الحاجة إلى مراجع علمية عربية عن الرأى العام والإعلام عندما دعيت فى شهر مارس من عام ١٩٥٤ إلى إلقاء بعض محاضرات عن الإعلام على طلبة معهد العلوم السياسية الذى كان إذ ذاك قسما من أقسام كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وقد حاولت – جهد الطاقة – أن أجمع الخطوط الخارجية التى استقر الاتجاه الأكاديمى على جعلها إطارًا للرأى العام . فأوضحت – وكأن أهم مرجع لى كتاب الأستاذ « بوجاردس » الذى أسماه « صنع الرأى العام » – أن الرأى العام فى أية جماعة إنسانية هو أعظم قوة مؤثرة فى الحياة اليومية لهذه الجماعة فهو الذى يصنع القوانين ويلغيها ، وهو الذى يضع المقاييس الاقتصادية والاجتماعية والخلقية ويحطمها . ومع أن الرأى العام يمس كل فرد فى حياته اليومية ، فان القلة النادرة من الناس هى التى تهتم اهتمامًا خاصًا بهذا الرأى العام . كيف يتكون ؟ وكيف يعمل ؟ إدراك كيفية صنع الرأى العام ضرورى لتبين الوسائل التى تمكن بها مراقبته . أى إنه لإدراك الرأى العام فى مسألة ما – يجب استكمال صورة صحيحة لكيفية نشوء هذا الرأى حول هذه المسألة وتطوره بشأنها وتكونه أخيرا عنها .

ويرى الأستاذ وليم البينج فى كتابه « الرأى العام » أن هذا الرأى ينتج من تأثير الأفراد بعضهم على البعض الآخر فى أية جماعة إنسانية . ويرجعه الأستاذ لورنس دوب فى كتابه « الرأى العام والدعاية » إلى موقف الناس من مسألة معينة إذا كانوا أعضاء فى جماعة إنسانية واحدة . ومن المشاهد فى كافة الجماعات الإنسانية أن الرأى العام يبدأ بعض تكونه فى الاجتماعات الصغيرة غير الرسمية . فالطبيعة البشرية تدعو إلى « الاجتماع لتبادل الحديث فى اجتماعات أساسية » كما وصفها الأستاذ كولى ، وهو أحد المشتركين فى هذا الكتاب ، فى كتابه « التنظيم الاجتماعى » ، ونفس هذه الطبيعة البشرية تدعو إلى أن يقتصر معظم الحديث فى مثل هذه الاجتماعات على الأشخاص ونشاطهم . ولكن هذا لا يمنع أن ينحرف قسط من الحديث إلى الجماعة الإنسانية التى تضم هؤلاء الأشخاص ، ولذلك يعتمد تكوين الرأى العام بالوسائل الديموقراطية على طبيعة المناقشة التى يشترك فيها كل مواطن يوميا فى اثناء اشتراكه فى هذه الاجتماعات غير الرسمية التى تتكون عادة من الأصدقاء والمعارف ، وإذا كان الرأى العام يفترض التعبير عن رأى جماعة إنسانية فما هى إذن هذه الجماعة؟

إن الجماعة عدد من الناس يعتنقون نفس الرأى فى مسألة معينة مثلا ، وفكرة الجماعة تختلف باختلاف الظروف ، فالجماعة تضم عدداً كبيراً من الناس لا يعرف أحدهم الآخر ، ولكن يربطهم ويجمع بينهم اهتمام رئيسى مشترك بمسألة ما . وقد تركز الجماعة - أحيانا - اهتمامها فى شخص معين ، ولكن خلف هذا الشخص الذى تركز فيه اهتمام الجماعة ، يكمن عادة اهتمام خاص بمسألة معينة ، وجماعة قاسم أمين فى مصر كانت تهتم بتحربر المرأة من القيود المفروضة عليها باسم التقاليد ، وجماعة هيئة السنوات الخمس واتحاد الصناعات فى جمهورية مصر العربية هنا كانت ترمى إلى تصنيع مصر دون خوف من افتقارها إلى بعض المواد الخام .

وقد ذكر والتر ليبمان فى كتابه « الجماعة الشبح » أن الجماعة تصل فى منتصف الفصل الثالث وتنصرف قبل اسدال الستار ، أى إنها تستنفد وقتا ما قبل أن تعتنق الرأى الذى يدعو إليه الشخص الذى تركز فيه اهتمامها وتعرف الجماعة باسمه . وتنصرف إلى التجمع حول فكرة أخرى يدعو اليها شخص آخر قبل أن تؤتى الفكرة ثمارها ، ومما لا شك فيه أن الرأى العام يصنع من تفاعل وتماسك عدد كبير من آراء الأفراد الشخصية ، ولا دراك المعنى الكامل لأصول آراء الأفراد الشخصية يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الرأى العام يتكون عادة من آراء الجماعة وآراء الأفراد . فرأى الفرد يعود قسط منه إلى رأى غالبية الوسط الذى يعيش فيه ، أو إلى رأى أقلية هذا الوسط . ويذهب الأستاذ ألفريد لى - أحد المشتركين في هذا الكتاب - فى كتابه « الرقابة الاجتماعية » عند تحليل رأى الفرد الشخصى إلى أن هناك أربعة عوامل تلاحظ فى تكوين هذا الرأى :

١ - الحادثة أو الواقعة المعينة التى تثير الرأى .

٢ - التكوين الثقافى للشخص وعلاقته بالحادثة الواقعة .

٣ - تأثير الوقت الراهن الذى وقعت فيه الحادثة .

٤ - تجارب الفرد الخاصة منفصلة عن الحادثة الواقعة .

والكلام ، والحديث ، والحوار بين شخصين فأكثر ، هو أهم وأقدم الأدوات التى تكون الآراء ، كما تعبر عنها وتذيعها ، عن طريق التكرار والنقل والتداول .

وقد تساءل الأستاذ فيرنون ناش فى كتابه « العالم يجب أن يحكم » الذى وضعه عن إنشاء حكومة عالمية ، ماذا تستطيع أنت شخصيا أن تفعل لكى تعجل بإنشاء حكومة اتحادية عالمية قبل أن يفوت الأوان ؟ وكان أول جواب للمؤلف عن هذا السؤال . تحدث عن الحاجة إلى عالم متحد ، إلى كل أصدقائك ومعارفك ، وواظب على ذلك ماداموا راغبين فى أن يعملوا شيئا عن الفكرة .

وقد يخيل إلى الكثيرين أن تكوين الرأى العام بهذه الوسيلة البسيطة عسير ، أى إن هذا التكوين يستدعى وقتا طويلا ، ولكن يجب أن نذكر أن كل شخص منا يشترك يوميا عدة مرات فى أحاديث صغيرة مع جماعات من أقاربه أو أصدقائه أو معارفه . وبهذه الوسيلة يبدأ تكون قسط كبير من الآراء الشخصية لأفراد الوسط الذى نعيش فيه ، فإذا علمنا أن ملايين من هذه الأحاديث تدور كل يوم بين أفراد جماعة إنسانية ما ، أدركنا الدور الهام الذى تلعبه فى إرساء أسس الرأى العام ، وإذا لم يدر بين أفراد وسط ما إلا حديث واحد يوميا عن الشئون العامة للجماعة التى تضم هذا الوسط ، فان الأثر الذى يتخلف عن هذه الأحاديث الجماعية العارضة لا يمكن إنكاره ، إذ أن الحقيقة المشاهدة أن مجرد تحدث شخص عن شخص آخر يجعل الحديث شائقًا ، والحقيقة الأخرى أن كل حديث عن موضوع عام ينحرف إلى الحديث عن الأشخاص فى الحلقات التى تتبادل الأحاديث اليومية العارضة ، والحقيقة الثالثة أن كل فرد من أفراد الحلقة التى اشتركت فى الحديث (الجماعى) سيشترك فى نفس اليوم فى حلقة أخرى أو أكثر تتبادل حديثا لاشك أنه سيطعمه ببعض ماتخلف لديه من أثر الحديث السابق ، ثم يذيع هذا الأثر بتوالى اشتراك الأفراد فى تلك الأحاديث اليومية التى تحمل فى كل الجماعات الإنسانية طابعا إنسانيا لا يتغير ، ذلك أنها قد تبدأ حديثا عاما عن شأن من شئون الجماعة ثم تنحرف إلى المساس بالأشخاص ، لأن تحدث شخص عن شخص آخر - كما سبق القول - يضفى على الحديث مسحة شائقة تجتذب أذن المستمع وتستهويه إلى الإنصات والاهتمام . وهذه هى « الاداة » الأساسية الأولى من أدوات صنع الرأى العام ، « الكلام » أو الحديث أو الحوار .

والأداة التى تلى الكلام الذى يدور « الاجتماعات الأساسية » هى الصحافة . ولادراك الدور الذى تلعبه الصحافة - من زاوية الاعلام أو الدعاية أى فن صنع الرأى العام - يجدر أن نذكر أن الصحيفة تسمى بالانجليزية «ورقة الخبر» إذا

ترجمنا اللفظ ترجمة حرفية ، أو الورقة التى تضم أخبارا . والخبر بالتعبير الانجليزى يعنى « الجديد » فهو ضد « القديم » ضد المعروف ، ضد المفهوم ، فالخبر الذى انقضت عليه عشرون ساعة لا يعد « خبرًا » فى نظر القارىء المواظب على قراءة الصحف العصرية ، فهذا الطراز من القراء لا يعترف بالخبر إلا إذا كان «جديدا» لم تنقض عليه بضع ساعات ، ومع ذلك فالخبر ليس هو كل حادث جديد ، فالخبر هو الشئ غير العادى الخارج عن المألوف ، ويمكن بواسطة خبراء الاعلام تحويل بعض عناصر الاعلام إلى « أخبار » فى حدود ما يجب أن تكون لهذا النوع من « الأخبار » من إطار جاد أخاذ .

ولقد عرف الاستاذ كولى الصحيفة بأنها أداة لخلق معنى من معانى الجماعة ، فالصحف وسيلة لتبادل الآراء ، والحقائق ومظاهر الأخلاق ، انها أداة تخلق الآراء وتحطمها .

والصحف حافز على صياغة أخلاق الجماعة الإنسانية التى تنتشر بينها فى قوالب معينة . فكثير من الناس يبذل جهودا عظيمة فى خدمة المجموع لكى ينشر اسمه فى الصحف ويعلو شأنه فى نظر أفراد الجماعة التى ينتمى اليها . كما أن الخوف من النشر يقى كثيرًا من ارتكاب ما كانوا عرضه لارتكابه لولا هذا الخوف

فالرأى العام – كما يقرر بوجاردس – يرفع يده بسوط على رقاب الكثيرين من الناس لولاه لا ندفعوا متأثرين بعوامل مختلفة إلى اقتراف جرائم أو خطايا أو زلات خلقية .

و « تلوين الخبر » هو تعمد إبراز وجه خاص منه وإخفاء وجه آخر ، وهذا التلوين يعود إلى سياسة الصحيفة . وقد يصل الأمر ببعض الصحف إلى تشويه الخبر واختيار مالا يؤدى اليه الخبر المنشور وإبرازه على أنه المعنى المقصود من الخبر ، وبعض هذه الصحف تتبع هذا الإجراء متعمدة خديعة الرأي العام وخلق رأى عام متحيز ، وبذلك يتخذ « الخبر » أداة من أدوات الاعلام .

والتلوين يتصل باخفاء الأخبار ومنعها من النشر . فكلما عَّن للصحيفة – لتحقيق مصلحة خاصة – أن تلون فى أخبارها لوحظ دائما أنها تعمد إلى تعويق نشر بعض الأخبار . وقد يقال ان القارىء يستطيع أن يجد الخبر الذى منع نشره فى صحيفة أخرى ليست لها نفس مصلحة الصحيفة الأولى فى منع النشر ، ولكن

الحقيقة الاحصائية المشاهدة أن معظم القراء لا يميلون إلى قراءة أكثر من صحيفة واحدة يومية . كما أن هناك ظاهرة أخرى هى أن معظم القراء لا يقرأون الصحيفة قراءة فاحصة متمعنة . فهم لا يزنون الألفاظ .

وقد شاهدت مع الكثيرين من زملائى الذين حضروا مناقشة مسألة تقسيم فلسطين أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة والمسألة المصرية أمام مجلس الأمن عام ١٩٤٧ بليك ساكيس ومناقشة خرق الصهيونيين لشروط الهدنة فى فلسطين أمام مجلس الأمن بقصر شايو بباريس عام ١٩٤٨ ، ومناقشة قبول إسرائيل عضوا بالأمم المتحدة بنبويورك عام ١٩٤٩ - شاهدنا كيف كانت تمعن الصحافة الموالية للصهيونية فى « تلوين » أو بتعبير أدق « تشويه » الأخبار تشويها رمت به إلى خديعة الرأى العام .

ويكفى للدلالة على مدى خطورة هذا التشويه أن أشير إلى نقطة واحدة . هى بعض نقاط التحول فى مأساة فلسطين . فإن الإعلام الصهيونى المستند إلى الصحافة - مشوها الحقيقة المادية التاريخية قد أبرز الدعوة إلى إنشاء دولة إسرائيل فى صورة أن فلسطين كان وطنا للصهيونيين واغتصب منعم . وفى صورة دعوة إلى المهاجر الصهيونى الشريد إلى ذلك الوطن المغتصب ، وقد أسرف الدعاة الصهيونيون الذين نشروا تلك الأخبار أو « القصص » كما يسميها التعبير الأمريكى فى ترديد ذلك ، فهل حقا كانت فلسطين وطنا صهيونيًا ؟ وإذا كان التاريخ يقر ذلك فكم من السنين استمر ذلك الوطن للصهيونيين ، وكم من السنين ظل وطنا عربيا بحتا ؟ وهل حقا أن الصهيونيين الذين يدعون الآن للعودة إلى فلسطين تحقيقا لأمنيتهم - من بولنده ولتوانيا وغاليسيا وأوكرانيا ورومانيا وروسيا وهم الذين يتكلمون اللغة اليدية - هم من سلالة جنس كان بفلسطين وشرد فى تلك الأقطار ، إن الواقع التاريخى أنه منذ فجر التاريخ - عدا فترة وجيزة- لم تر أرض فلسطين العربية إلا عربا كنعانيين أو فينيقيين أو آشوريين أو بابليين أو أنباطا أو تدميريين قبل الميلاد ، أو غساسنة أو عربا يمنيين قحطانيين أو عربا حجازيين عدنانيين بعد الميلاد ، أو عربا مسلمين قرشيين أمويين وعباسيين بعد الإسلام .

كما أن الحقيقة التاريخية المادية تقطع بأن الشعوب البولندية واللتوانية والغاليسية والأكرانية والرومانية والروسية ، أى الشعوب التى تتكلم اللغة

«البيدية» – وهى طبقا للاحصاء الثابت أغلبية المهاجرين اليهود إلى فلسطين – سلالة شعب « الخزر » الذى لم يسكن قط فلسطين من قبل . بل إنه لم يعتنق اليهودية إلا فى نهاية القرن السابع الميلادى عندما كان العرب القرشيون العدنانيون الأمويون يحكمون فلسطين . واللغة « البيدية » لا صلة لها إطلاقا باللغة العبرية . وكل ما فى الأمر أنه بعد اعتناق الخزر لليهودية اتخذوا الأبجدية العبرية أبجدية « بيديه » ، لأن هذه اللغة البيبدية لم تكن لها من قبل أبجدية . ولكنها بقيت إلى الآن لغة لا صلة لها قط بالعبرية[1] .

وقد وضع بعض أساتذة الأعلام قواعد عامة للأسس التى تقوم عليها الصحافة الدولية التى تعنى بالثقافات والأخبار وهى :

(أ) فهم الأسس الثقافية للأجناس والشعوب .

(ب) نظرة موضوعية بالنسبة للرأى العام فى كل شعب تعنى به الصحيفة .

(جـ) صياغة الأخبار صياغة تراعى فيها النظرة الإنسانية الواسعة الأفق .

(د) محاولة تكوين رأى عام صحيح بالنسبة للشئون الانسانية .

(هـ) فهم النظام الثقافى لكل شعب تعنى به الصحيفة أى فهم ما يعنيه كل نظام ثقافى بالنسبة للشعب الذى يقوم فيه هذا النظام ، وفهم الفلسفات التى تعمل فى مختلف الأنظمة الثقافية وبواسطتها .

وقد كانت المقالات فى وقت ما أكثر أهمية من الأخبار . فكان الناس يهتمون بالمقالات ليعرفوا تعليق الكاتب على الأخبار الهامة ، لأنهم كانوا يثقون به ، وكانوا مطمئنين إلى استقلاله فى الحكم ، وإلى رجاحة نظرته إلى الأمور ، وإلى تحرره من المصالح الخاصة ، ولكن المقالة لم تلبث أن خيبت أمل القراء فيها ، لأن كاتب المقالة فى الغالب لم يعد صاحب الصحيفة ، ولكنه أصبح صحفيا يرتزق من مرتبه ، واذا كانت المقالات تقرأ الآن فى كثير من الصحف الأوروبية والأمريكية فلأنها تكشف عن أوجه التحيز التى تكتب بها الأخبار .

والمقالات – الآن – يعوزها ذلك الاستقلال الذى كان يضفى عليها طابعا يؤثر فى الرأى العام أكثر من تأثير الأخبار فيه . والمقالات لم تعد آراء شخصية تنم عن آراء كاتبها فإن معظمها ينشر بلا توقيع فلا يعرف القارئ من كتبها .

---

(١) كيف تصنع الرأى العام للمترجم ، الاهرام ، القاهرة ، يوليو ١٩٥٥ .

ولكن عندما فقدت المقالة الافتتاحية أهميتها حلت محلها المقالة المركزة التى تنشر فى عمود أو أقل من الصحيفة . و « كاتب العمود » يوقع المقالة باسمه ، متمتعًا بقسط وافر من الحرية والاستقلال . ويبدى آراء لا تتضمنها المقالات الافتتاحية ، وهو يكشف عن رأيه دون أن يحمل أصحاب الصحيفة مسئولية هذا الرأى . فتأثيره على الرأى العام يعود إلى فكرة إنه مستقل . و « المقالة المركزة فى عمود » يقبل القراء عليها لأنها تتسم بشخصية كاتبها .

والصحف الكبرى فى الولايات المتحدة تضم صفحاتها عشرة أو اثنى عشر مقالا مركزا فى عمود ، منها مقال أو أكثر للسياسة المحلية . ومقال أو أكثر للشئون الخارجية ، ومقال أو أكثر للحياة الاجتماعية ، وهناك أيضا - فى معظم الأحيان - مقال عن اقتصاديات منطقة من مناطق العالم الجغرافية .

ونجاح كاتب المقالة المركزة فى عمود يعود إلى أنه يبسط الخبر ويشرحه ويلونه بطريقته الخاصة ، ويصارح قراءه بما خلف الخبر ، أى إنه يجعل الخبر مفهوما باضفاء طابعه الشخصى عليه كما يقرر « بوجاردس » .

والثابت - عند محاولة وضع تاريخ مبسط سريع لتطور الاعلام العربى منذ أوائل القرن الحالى - أن هذا الاعلام قد اقتصر - فى محاولات فردية غير رسمية بسبب سيطرة الاحتلال الأجنبى على البلاد وعدم تجاوب الوزراء المصريين أو كبار رجال الدولة المسئولين مع الاتجاهات الوطنية ، وانعدام كل وعى اعلامى انعداما يعود إما إلى اليأس من أثر هذا الاعلام أو الجهل بقيمته أو العمل على إعاقة أثره المجزى - اقتصر ذلك الإعلام على تزويد المفكرين الأحرار خارج مصر ، وفى بعض دول أوروبية محدودة العدد ، بالبيانات عن المطالب الوطنية وبمدى ما يعانيه الوطن من الاحتلال الأجنبى . ولعل ما دعا المصريين إلى التركيز على هذا الاعلام الخارجى - وباللغات الأجنبية - هو ما كان مسلطا على حرية الرأى فى الداخل من عنت وارهاق وافتقار البلاد إلى نظام نيابى يسمح بعرض المسائل العامة ومناقشتها .

ولذلك خطا المرحوم مصطفى كامل - قبل أن يعلن برنامج الحزب الوطنى فى ٢٢ من أكتوبر ١٩٠٧ - بضع خطى إعلامية لتغذية المفكرين الأحرار من الأوربيين والأمريكيين بالمادة التى تيسر لهم دعم حملاتهم على الاستعمار الأوروبى فى الشرق ، وكان ذلك فى الفترة بين عامى ١٨٩٥ و ١٩٠٧ وكان من

ثمرة تلك الخطى اثارة الصحف النمسوية والفرنسية والألمانية ، والمجرية كما نشر بعض تلك المواد الإعلامية فى «نيويورك هيرالد» بواسطة مراسلها فى الآستانة ، ومنها نشر كتابه بالفرنسية « مصريون وانجليز » الذى وضعت «جولييت آدام » مقدمته ، ولما صدر الحكم فى قضية دنشواى فى عام ١٩٠٦ سافر إلى انجلترا واتخذ من ذلك الحكم مادة اعلامية لاثارة الصحافة الانجليزية .

وقد أسس عقب عودته من انجلترا فى نفس العام ، أى عام ١٩٠٦ شركة لإصدار صحيفتين : إحداهما مسائية باللغة الفرنسية باسم Le'Standard Egyptien والثانية صباحية باللغة الانجليزية باسم The Egyptian Standard وقد صدرت الأولى فى ٣ مارس سنة ١٩٠٧ ، وصدرت الثانية فى اليوم التالى .

وكانت أولى ثمرات نشر مساوئ الاحتلال البريطانى لمصر وتفاصيل الوحشية التى نفذ بها الحكم الذى صدر فى قضية دنشواى باللغة الانجليزية أن الكاتب الايرلندى ذا الشهرة العالمية برنارد شو عندما أعاد نشر كتابه « جزيرة جون بول الأخرى » كتب مقدمته عن حادثة دنشواى وما ارتكبه الاحتلال البريطانى فيها من أثام ضد الانسانية ومبادئ العدالة . وقد نالت هذه المقدمة نجاحا عالميا إلى حد أن الشركة التى كانت تتولى نشر مجموعة الكتب المعروفة باسم « توخنتز » أدرجتها بين كتبها التى نشرت باسم « مجموعة للمؤلفين البريطانيين » وقد نشرت عام ١٩٢٠ ، أى أن هذه المقدمة ظلت تحتفظ بقيمتها كقطعة راقية من الأدب الانجليزى رغم انقضاء أربعة عشر عاما على حادث دنشواى ، ورغم ما تضمنته من مهاجمة عنيفة للسياسة الانجليزية .

من هذا العرض السريع يتضح أن الإعلام العربى - إذ ذاك - قد اقتصر على استخدام وسيلة واحدة من وسائل الإعلام وهى الصحف . وهو وان استخدم وسيلتين أخريين هما الخطب العامة والكتب ، إلا أن استخدامهما كان فى أضيق الحدود ، لأن جهود القائمين بالإعلام كانت جهودا فردية كما قلنا فلم يكن هناك « فريق» يعمل وفق خطة إعلامية مدروسة ، إلى جانب أن الموارد المالية - فيما يبدو - لم تتح له أكثر من استخدام تلك الوسيلة .

وقد دهمت مصر أحداث الحرب العالمية الأولى وما ترتب على إعلان الحماية البريطانية ووضع البلاد تحت الحكم العرفى ، فلم تتمكن من إعادة إثارة اهتمام المفكرين الأحرار فى الأسرة الدولية بشئونها القومية . ولكن الوفد المصرى ابتدأ

فى الدعاية للقضية المصرية بلغات أجنبية يفهمها المفكرون الأحرار الذين يترقبون تغذيتهم بالمعلومات الصحيحة ، فأوفد أحد أعضائه إلى الولايات المتحدة واستطاع أن يثير اهتمام بعض أعضاء « الكونجرس » كمستر فولك ومستر جورج توريس . وقد تضمنت خطبته الأخيرة التى ألقاها فى جلسة ٢٧ مارس ١٩٢٠ بمجلس الشيوخ الأمريكى عرضا لوعود بريطانيا المتكررة بالجلاء ، وندد بسياسة بريطانيا ، وذكر الفظائع التى ارتكبتها القوات البريطانية فى قريتى الشوبك وصفط اللبن بمديرية الجيزة ، وختم خطبته بأن أشار إلى امتهان مبادىء الرئيس ولسون وإلى منع مصر من إسماع صوتها لمؤتمر فرساى . ثم صاح قائلا « أن الإنسانية قد ارتكبت فى حقها أكبر إساءة ، وأن الشعوب قد أخذت تسخط على موقعى معاهدة فرساى من أعماق القلوب سخطا عادلا» .

ولما انتهت مصر إلى قرار يقضى بعرض قضيتها القومية على الهيئات الدولية التى أثمرها ميثاق الأطلنطى تواردت الأنباء بأن هذه القضية يجهلها حتى الخاصة فى الشعوب التى لحكوماتها نفوذ فى مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة . ولما كان الرأى العام فى هذه الشعوب هو المحرك الأول والأخير للحكومات فيها ، ومن الواجب شرح المطالب المصرية العادلة أمام هذا الرأى ، فقد بدأت بعض محاولات لوضع خطة اعلامية على نطاق أوسع مبنية على أساس استخدام أكثر من وسيلة من وسائل الإعلام ، مراعية توجيه موجات الاعلام توجيها معينا على مستويات مختلفة . ومن الاقتراحات التى تضمنتها تلك الخطة :

أولا – تقسيم مناطق الإعلام فى الخارج ، والبدء بجعلها ثلاث مناطق : أولاها فى الولايات المتحدة . وثانيتها فى فرنسا ، وثالثتها فى انجلترا . يشرف على كل منطقة منها شخص ممن توفروا توفرا خاصا على دراسة المسألة المصرية . وممن لهم إلمام تام بالمراجع الأجنبية فيها ، وممن يمتازون باستعداد خاص لتنظيم الدعاية وتوجيهها بعد أن يتلقوا منهاجا خاصا . ويلاحظ على هذا الشطر من الخطة أنه استهدف الاعلام على المستوى المجتمعى العام .

ثانيا – إعداد مكتبة خاصة لكل منطقة ، يراعى فى اختيار محتوياتها – على وجه الخصوص – أن تضم كتبا لمؤلفين ينتمون إلى جنسية الدولة التى بها المنطقة . فيراعى فى مكتبة الولايات المتحدة مثلا أن تضم كتب الكولونيل

الأمريكى تشارلز لونج الذى كتب « مصر وأقاليمها المفقودة » و «أفريقيا الوسطى» و « حياتى فى قارات أربع » ، وكلها تسجل فضل مصر فى اكتشاف منابع النيل وإدخال الحضارة إلى قلب أفريقيا . ويبدأ باختيار بضعة من هذه الكتب والمراجع والوثائق وإعادة طبع بضعة آلاف منها على نفقة مصر لتكون معدة للتوزيع عند بدء المناطق فى العمل .

ويلاحظ على هذا الشطر من الخطة أنه استهدف الإعلام على المستوى الجماعى ، لأن هذا النوع من الإعلام لا يمكن توجيهه إلا إلى طبقة على قدر معين من الثقافة . كما استهدف المستوى الشخصى والمستوى الذاتى بمراعاة الاستناد إلى مراجع المؤلفين من نفس البيئة التى يوجه اليها الاعلام ، إلى جانب أنه استخدم وسيلة اعلامية أخرى هى « المكتبة العامة » .

ثالثا - إصدار صحيفة مصرية بالانجليزية فى نيويورك ، ولتكن أول الأمر أسبوعية . فاذا تعذر ذلك فلتكن نصف شهرية أو شهرية . على أن يتولى التحرير فيها بعض الكتاب الأمريكيين الذى عرفوا بالفكر الحر يعاونهم المصريون الذين سيعملون فى المنطقة الأمريكية ، وإذا اعترض على هذه الفكرة بأن المبرر لاصدار هذه الصحيفة ربما لا يكون مستمرا . فإن الرد على ذلك أن الصحف الانجليزية لاتتوقف عن الصدور فى باريس منذ عشرات الأعوام ، وأن من الواجب على الدول العربية أن تبدو على صفحات الصحيفة المقترحة كتلة واحدة أمام الرأى العام الأمريكى بلغة يفهمها القراء الأمريكيون ، ومن يعيش بينهم على الدوام من ممثلى دول العالم الذين يفدون على الولايات المتحدة لحضور جلسات الأمم المتحدة أو الهيئات الدولية التى نشأت بحكم ميثاق الأطلنطى أو المؤتمرات الدولية الفنية التى تعقد العشرات منها كل عام فى مدن الولايات المتحدة المختلفة .

رابعًا - الاتفاق مع الهيئات الأمريكية التى يطلقون عليها هناك اسم « وكالات رحلات المحاضرات » على تنظيم رحلات محاضرات عن مصر ، وقد يكون هذا مصدر ايراد للهيئة التى ستتولى مهمة الإعلام يساعدها على مواجهة نفقاتها . فإن هذه الوكالات مستعدة أن تدفع أتعابًا عن المحاضرات التى تلقى عن مشكلات الشرق لما تعلمه من رغبة المستمعين إلى هذه المحاضرات فى معرفة الحقائق عن هذا الشرق .

خامسا – الدعاية عن طريق القصص المعدة للقراءة= والقصص السينمية والقصص المسرحية ، وهى عظيمة الأثر فى تحقيق الهدف المنشود ، ومما يثير ألم المصريين الشديد أن ما لقى نجاحا من القصص التى كتبت عن مصر بلغات أجنبية وضعه كتاب أجانب .

فأنجح ما صدر من هذا النوع فى الثلاثينينات قصتان : إحداهما « الحكيم ابراهيم » وقد كتبها سويسرى هو « جون نيتل » و « حديقة الله » وقد كتبها انجليزى هو « روبرت هتشنس » . وقد بلغ من نجاح الأولى وإقبال مئات الآلاف على قراءتها واستيعاب ما بها عن مصر الحديثة أن ترجمت إلى عدة لغات غير الإنجليزية التى صدرت بها أصلا ، وبلغ من نجاح الثانية أن أقبلت إحدى شركات السينما الكبرى على اخراجها . وفى تاريخ مصر الحديث مادة دسمة للأدب القصصى وهى مادة لها سندها من كتب المؤرخين الأمريكيين والأوربيين أنفسهم الذين يتحكمون فى صناعة السينما .

سادسا – تنظيم التعاون بين إدارة البعثات بوزارة التعليم والهيئة التى ستشرف على الدعاية . فمن الظواهر التى تثير الدهشة بل العجب أن عددا كبيرا ممن ترسلهم الدولة على نفقتها لإتمام دراساتهم العالية فى الخارج يفضلون تقديم «رسائل» لنيل الألقاب العلمية لا تهم مصر فى قليل أو كثير فهم يقصرونها على موضوعات تهم الشعب الذى يتلقون علومهم فى جامعاته ، مع أنه كان مأمولا من هذه النخبة المختارة من شباب مصر أن تنتهز هذه المناسبات العلمية لتقدم إلى تلك الأوساط الجامعية بلغاتها وجهات النظر المصرية فى السياسة والتاريخ والاقتصاد والجغرافيا مصوغة فى قالب علمى يبقى على الزمن كمرجع ، ويلقى ضوءا على ما غمض من أمر مصر على غير أبنائها .

سابعا – تنظيم التعاون بين جامعة الدول العربية وإدارات البعثات فى هذه الدول من جهة والهيئة التى تشرف على الدعاية من جهة أخرى .وللقارئ أن يتصور الأثر البالغ ، والدوى المثير اللذين يحدثهما فى الأوساط العلمية اتفاق الطلبة العرب الذين يتمون دراساتهم العليا فى خارج أوطانهم على تخصيص رسائلهم العلمية لبحث مشكلات الدول العربية .

إن الأمر فى حاجة إلى شىء من التنظيم ، بين جامعة الدول العربية ووزارات التعليم فى الحكومات العربية المختلفة فإذا وضعت الأسس فوجىء العالم فى

كل عـام بآلاف الرسـائل التى تصـدر من عـواصم العـالم المتـمـدن ، مـدعـمـة بالأسانيد ، متسمة بالطابع العلمى المقنع ، مبددة ظلمات الجهل بقضايا الدول العربية .

فإذا عاد أولئك الطلبة بعد مناقشة تلك الرسائل والفوز بألقابهم الجامعية تركوا خلفهم تراثا علميا يثير اهتمام النقاد الذين يهمهم أمر الموضوعات التى وضعت الرسائل عنها ، وبقى هذا التراث مرجعا فى مكتبات الجامعات والبيئات العلمية .

ثامنا – تنظيم التعاون بين الأزهر والهيئة التى تشرف على الإعلام ، ان الأزهر كان يؤدى فى تاريخه الطويل الحافل رسالة دولية روحية سامية ، إذ كان يحج إليه الطلبة المسلمون من كافة الأقطار الإسلامية – عربية وغير عربية – لتلقى دروس الفقه الإسلامى ، واللغة العربية وغيرهما من علوم الدين والدنيا .

ثم يعود أولئك الطلبة إلى أوطانهم ليلقنوا أبناءها ما تلقوه على أساتذتهم فى الأزهر ، وكان الأزهر يؤدى هذه الرسالة فى الحدود الضيقة التى كانت تتناسب مع مركز مصر الدولى وسيادتها الناقصة وتعقد طرق المواصلات بين مصر وسائر الأقطار الإسلامية النائية . أما الآن فإن الأزهر يستطيع أن يؤدى هذه الرسالة على نطاق واسع ، وأن يثبت أقدام مصر فى الأسرة الدولية كعامل إيجابى فعال فى اقرار المبادىء الديمقراطية الصحيحة . كما تفهمها الحضارة الإسلامية التى قامت على المساواة المطلقة بين بنى الانسان وعلى التسامح والتآزر بينهم فى سبيل الخير العام . ولاشك أن الأزهر – فى عهده الجديد ، وبعد أن أصبح من الميسور التنقل بين أقطار العالم فى أسرع وقت – يستطيع أن يبدأ بالأقطار الأفريقية التى شاء الاستعمار الأوروبى أن يترك أهلها يعانون أحط حالات التأخر الروحى والثقافى والصحى ، فيوفد اليهم مبشريه الصالحين ، ينشرون تعاليم الدين الإسلامى ، ويرفعون مستوى هؤلاء المواطنين الأفريقيين .

ولم تهمل هذه الخطة الإعلام فى الداخل على المستوى الجماعى والمستوى الشخصى ، وذلك بأتخاذ الإعلام مادة رئيسية لتربية النشئ تربية وطنية على أن يراعى فى تخطيط هذه المادة الاعلامية بعض الاعتبارات الاقليمية المحلية لكى يشب المواطن مزهوا بأبطال إقليمه ، مؤمنا بأن فى الإمكان أن ينبت هذا الإقليم أبطالاً آخرين . لماذا لا يدرس فى جميع مدارس البنين والبنات بمديرية القليوبية تاريخ الشيخ سليمان الشواربى شيخ بلدة قليوب عند غزو الفرنسيين لمصر ؟ لماذا

لا يعد اليوم الذى أعدم فيه سليمان الشواربى فأستشهد فى سبيل وطنه بعد أن قاوم الغزاة فى شهر ديسمبر عام ١٧٩٨ يوم حداد فى جميع أنحاء تلك المديرية ؟ لماذا لا تعلق له صور فى أفنية مدارس المديرية . أو يقام له تمثال فى أحد ميادين بلدته لكى يذكر المواطنين بما أداه ذلك المواطن لوطنه ؟ لماذا لا يدرس فى جميع مدارس البنين والبنات بمديدية المنوفية تاريخ الشيخ شعير الذى أنجبته قرية « كفر عشما » والذى قاوم الفرنسيين مقاومة الأبطال عندما هاجموهافى يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٨٩٨ . فلما استشهد يومئذ عد الجنرال لانوس موته نصرا كبيرا ، وكتب بهذا المعنى إلى نابليون وذكر « الجبرتى » أن الفرنسيين نهبوا داره وقتلوا اخوته وأولاده ؟ ولماذا لا يدرس فى جميع مدارس مديرية الدقهلية تاريخ حسن طوبار ابن قرية المنزلة الذى هجم على دمياط ليلة ١٦ سبتمبر عام ١٧٩٨ بأسطول من مراكب الصيد ، وأنزل بالغزاة أفدح الخسائر والذى توفى فى ٢٩ يونيو عام ١٨٠٠ فنوهت صحف الاحتلال الفرنسية بوفاة خصم من ألد خصوم ذلك الاحتلال ، وأشار « فرانسوا شارل رو » فى كتابه « بونابرت حاكم مصر» ، الذى ترجم إلى الانجليزية وغيرها كخير مرجع عن الحملة الفرنسية ، اليه وإلى غيره من زعماء المقاومة الوطنية ؟ ولماذا لايدرس - بنوع خاص - تاريخ أحمد عرابى فى مدارس مديرية الشرقية ؟

ولنبدأ أولا بتكوين الرأى العام المنشود . . رأى المواطن المتكرر . . المواطن الذى يؤمن - منذ طفولته - بعد دراسة منظمة بأن وطنه قد منح من الله هبة إنجاب أبطال يعرفون كيف يقاومون الاعتداء ويأبون الظلم والضيم .

وعنى هذا الشطر من الخطة - أى الإعلام الداخلى - باقتراح تنظيم التعاون بين أجهزة الإعلام الرسمية - وكانت الإذاعة أهمها اذ ذاك - والجمعيات العلمية الهامة كالجمعية المصرية للدراسات التاريخية والجمعية المصرية للقانون الدولى والجمعية الجغرافية المصرية [1] .

وفى تلك الفترة من تطور تاريخ الإعلام العربى أحس المهتمون بالإعلام بتقصير الدول العربية فى استعمال حقوقها الاعلامية بواسطة أجهزة الإعلام فى الأمم المتحدة . وقد اتضح من تجربة ايفاد الإذاعة المصرية لمندوب يمثلها فى

---

(١) الدعاية لمصر ووسائل تنظيمها ، للمترجم ، مجلة « الجامعة » ، مايو ١٩٤٨ وحديث بالفرنسية نشرته «لا بورص اجبسين » فى ١٧ من يناير ١٩٥٠ .

اجتماعات الأمم المتحدة بباريس فى عام ١٩٤٨ - ولعلها المرة الأولى التى تشترك هذه الإذاعة فيها على هذا المستوى الدولى - أن من حق كل دولة عضو :

(ا) أن تستخدم مذياع الأمم المتحدة - وهو المذياع الموضوع تحت تصرف أعضاء الهيئة فى نفس المبنى الذى تعقد فيه الجلسات لمدة معينة تتراوح فى كل يوم بين ربع ساعة ونصف ساعة .

ومما يثير الدهشة أن الدول العربية الأعضاء فى الأمم المتحدة . قد تركت تلك الحقوق تهدر فلم تفكر إلا مصر فى إرسال مندوب عن الاذاعة ، وظلت المدة المخصصة للدول العربية الأخرى الأعضاء فى جامعة الدول العربية فى مذياع الأمم المتحدة متروكة بدون استغلال .

(ب) أن تستخدم « مكتب الصحافة والمطبوعات » التابع لإدارة الإعلام فى طبع ونشر الخطب والبيانات والأحاديث والمعلومات التى تشاء الدول الأعضاء توزيعها على الصحفيين ومراسلى وكالات الأنباء البرقية والوكالات الصحفية وهيئات الاذاعة . ومن المعروف أن مكتب الصحافة والمطبوعات يتولى الترجمة من الفرنسية إلى الانجليزية وبالعكس بدون مقابل كما يتولى طبع كميات كبيرة من النسخ للتوزيع على نفقته .

(حـ) الاتفاق مع إدارة الإعلام التى تتولى تحرير وإصدار «نشرة الأمم المتحدة» على أن يكون للدول العربية الأعضاء فى الهيئة نصيب فى تحريرها وهذه النشرة تصدر على شكل مجلة أنيقة الطبع على ورق فاخر بالانجليزية والفرنسية . وهى وإن كانت تذكر فى صدر كل عدد منها أن غرضها هو « تقديم ملخص عن نشاط الأمم المتحدة والهيئات التابعه لها وتحليل قراراتها ونشرها» إلا أن وجود عنصر عربى فى هيئة تحريرها لا يمكن أن تنكر فائدته ، وبخاصة أنها توزع فى جميع العالم ، كما أن مراسلى الصحف ووكالات الانباء ومُمَثِّلى محطات الإذاعة يعتمدون عليها كمرجع فى كتابة مقالاتهم عن الأمم المتحدة .

(د) الاتفاق مع أدارة الإعلام بالأمم المتحدة على أن يكون لما تنشره صحف الدول العربية نصيب فى « النشرة » اليومية التى توزعها والتى تتضمن نبذا وفقرات مما تنشره أهم صحف العالم .

(هـ) الاتفاق مع قسم السينما التابع لإدارة الإعلام بالأمم المتحدة . على اخراج أفلام تمثل مدى مساهمة مصر والدول العربية فى تنفيذ مبادىء الميثاق وتحقيق أغراض الأمم المتحدة . فيمكن – على سبيل المثال – إنتاج أفلام عن :

– الدور الذى قامت به وزارة الشئون الاجتماعية والهلال الأحمر فى مساعدة اللاجئين العرب بعد أن اضطروا إلى هجر وطنهم على نسق ماقام به مجلس السينما التابع للأمم المتحدة من رعاية فيلم عن تاريخ « هنرى دونان » مؤسس الصليب الأحمر ، وهذا الفيلم يدخل فى نطاق نشاط هيئة اللاجئين الدولية .

– الدور الذى قامت به وزارة التربية والتعليم فى مكافحة الأمية على نسق ما قام به نفس المجلس من رعاية فيلم عن مكافحة الأمية فى المكسيك بمساعدة «اليونسكو» .

– الدور الذى قامت به وزارة الشئون الاجتماعية فى :

– رفع مستوى القرية المصرية وتحقيق الاصلاح الاجتماعى بإنشاء المراكز الاجتماعية وهذا الفيلم يدخل فى نطاق نشاط اللجنة الثالثة أى اللجنة الاجتماعية والانسانية والثقافية التابعة للجمعية العامة واللجنة الاجتماعية ولجنة حقوق الانسان التابعتين للمجلس الاقتصادى والاجتماعى .

– مكافحة الأمراض المتوطنة فى القرية المصرية . وهذا الفليم يدخل في نطاق نشاط هيئة الصحة العالمية .

– رفع مستوى العامل المصرى وحماية حقوقه وما قامت به وزارة العمل فى هذا السبيل . وهذا الفيلم يدخل فى نطاق نشاط هيئة العمل الدولية .

– مكافحة الطفولة المشردة . وهذا الفيلم يدخل فى نطاق نشاط هيئتى «صندوق اسعاف الأطفال الدولى» و «دعوة الأمم المتحدة لانقاذ الطفولة» .

– الدور الذى قامت به الهيئات المصرية غير الحكومية فى سبيل مكافحة الفقر والجهل والمرض .

مع ملاحظة أن مصر عضو فى جميع وكالات الأمم المتحدة المتخصصة التى سبقت الإشارة إليها .

ومما لا يمكن إنكاره أن إبراز هذه النواحى من تقدم مصر الاجتماعى يعد دعاية طيبة مثمرة تعين على تثبيت أقدامنا فى الأسرة الدولية . وهى دعاية لا تكلف خزانة الدولة - كما تقدم - شيئا على الإطلاق .

وفى نطاق الإعلام - على مستوى الأمم المتحدة - اتجه التفكير إذ ذاك إلى الاستفادة إعلاميا من قسم الهيئات الدولية غير الحكومية التابع للمجلس الاقتصادى والاجتماعى ، والهيئات غير الحكومية المعتمدة من المجلس الاقتصادى والاجتماعى كهيئات استشارية لهذا المجلس مقسمة إلى ثلاث طوائف وهى :

(أ) الهيئات التى توجه أكبر اهتمامها إلى معظم نواحى نشاط المجلس والتى لها صلات وثيقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية للمناطق التى تمثلها .

(ب) الهيئات التى لها اختصاص معين والتى تهتم على وجه الخصوص ببعض نواحى نشاط المجلس .

(حـ) الهيئات المدرجة فى سجل الأمين العام .

وكل هذه الهيئات غير الحكومية يجب لاعتمادها كهيئات استشارية للمجلس الاقتصادى والاجتماعى أن تكون ذات كيان دولى . أما الهيئات غير الحكومية المحلية أو الوطنية التى ليس لها كيان دولى فيمكن اعتمادها - على سبيل الاستثناء - كهيئات استشارية إذا ثبت أنها تهتم بنشاط اقتصادى أو اجتماعى لا يدخل فى اختصاص أية هيئة غير حكومية دولية أخرى ، أو إذا كانت لها خبرة معينة فى ناحية يرغب المجلس فى الاستفادة منها . وقد تبينت عقب وصولى إلى نيويورك فى شهر أبريل عام ١٩٤٩ لعرض قضية اللاجئين الفلسطينيين العرب على وفود الدول أعضاء الأمم المتحدة باسم جامعة الدول العربية و «الاتحاد العربى» وهو هيئة عربية دولية غير حكومية أننى لن أتمكن من استخدام مذياع قسم الراديو فى إدارة الإعلام ، لأننى لم أكن ممثلا لإحدى الهيئات غير الحكومية المعتمدة كهيئات استشارية للمجلس الاقتصادى والاجتماعى والمدرجة تحت الطائفة «أ» .

وخطر لى - إلى أن أذلل عقبة استخدام المذياع - أن استخدم «قسم الصحافة والمطبوعات» التابع لادارة الاعلام فى توزيع ماكنت اعتزم طبعه ونشره عن قضية

اللاجئين الفلسطينين العرب ، ولكننى تبينت أيضا أن هذا القسم لا يقبل توزيع مايعطى اليه من النشرات إلا إذا كان صادرا من وفد إحدى الدول الأعضاء أو إحدى الهيئات غير الحكومية المعتمدة كهيئات استشارية للمجلس الاقتصادى والاجتماعى والمدرجة تحت الطائفة «أ» فلهذه الهيئات أن تقدم ما تشاء من البيانات عن أى موضوع إقتصادى أو اجتماعى فتتولى الإدارة المختصة بهذه الهيئات غير الحكومية فى المجلس طبع هذا البيان كوثيقة رسمية من وثائق الأمم المتحدة وتوزيعه على جميع الدول الأعضاء والوكالات المتخصصة والهيئات غير الحكومية المعتمدة كهيئات استشارية ، وعلى عدد كبير من المكتبات والجامعات والمنظمات فى العالم أجمع ، كما تبينت أن المجلس الاقتصادى والاجتماعى قد تولى – حتى شهر ابريل عام ١٩٤٩ – طبع وتوزيع أكثر من أربعين بيانا من هذا النوع .

وللهيئات غير الحكومية المعتمدة كهيئات استشارية للمجلس والمدرجة تحت الطائفتين «ب» و «ج» أن تقدم مذكرات أو اقتراحات إلى المجلس وتتولى أمانة الأمم المتحدة توزيع قائمة تتضمن ملخصا موجزا لما قدم من هذا القبيل من مذكرات واقتراحات . ولكل عضو فى المجلس أن يطلب طبع النص الكامل لما يشاء من هذه المذكرات والاقتراحات وتوزيعه . واذا حدث هذا فان أمانة الأمم المتحدة تطبع من المذكرات المطلوب توزيعها ألفا وسبعمائة نسخة بالانجليزية وستمائة وخمسين نسخة بالفرنسية وأخيرا تبينت أن الهيئات غير الحكومية التى اعتمدت كهيئات استشارية للمجلس لها أن تطلب أن يسمع كلام مندوبيها فى أى موضوع يعرض على أية لجنة من لجان هذا المجلس ، وذلك بطلب يقدمه مندوب الهيئة طالبة الكلام إلى أمين اللجنة الذى يعرضه على رئيسها فيعطى الكلمة بعد موافقة اللجنة سواء مباشرة أو فى الوقت المناسب . أما إذا أراد هذا المندوب عرض وجهة نظر الهيئة التى يمثلها على لجنة الهيئات غير الحكومية . فيجب عليه أن يقدم طلبا إلى رئيس المجلس الاقتصادى والاجتماعى . ومن حق الهيئات غير الحكومية المعتمدة كهيئات استشارية من الطوائف الثلاث «أ» و «ب» و «ج» أن تشترك فى جميع مناقشات « لجنة الهيئات غير الحكومية» حتى تتمكن هذه اللجنة من تقديم تقريرها إلى المجلس . ولهذه اللجنة أن توصى المجلس نفسه بالاستماع إلى أقوال مندوبى الهيئات المدرجة تحت الطائفة «أ»

فقط دون الهيئات المدرجة تحت الطائفتين «ب» و «ج» ، وقد درجت هذه اللجنة فعلا على هذا التقليد فاشترك مندوبو الهيئات المدرجة تحت الطائفة «أ» فى جلسات المجلس الاقتصادى والاجتماعى وأعطيت لهم الكلمة فيها ، وللهيئات غير الحكومية المعتمدة كهيئات استشارية والمدرجة تحت الطائفة «أ» أن تطلب إدراج مسألة معينة فى جدول أعمال المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، وأن تدافع عن هذا الطلب أمام اللجنة المختصة باعداد جدول الأعمال . كما أن لهذه الطائفة من الهيئات غير الحكومية الحق فى طلب إدراج ما تشاء من المسائل فى جداول أعمال لجان المجلس المختلفة . فاذا نظر المجلس فى إحدى المسائل التى طلبت هيئة من تلك الطائفة ادراجها فى جدول أعماله ، فان مندوب هذه الهيئة له أن يقدم إلى المجلس مذكرة تفسيرية للمسألة ولرئيس المجلس - بموافقة أعضائه - أن يدعو هذا المندوب ، أثناء مناقشة المسألة لابداء أقواله وتنوير المجلس فى المسألة المعروضة بناء على طلب الهيئة التى يمثلها .

هذا موجز لبعض نشاط الهيئات غير الحكومية فى هيئة الأمم المتحدة . واننى - على ضوء الخبرة المتواضعة التى اكتسبتها من حضور جلسات الأمم المتحدة فى يوليو وأغسطس عام ١٩٤٧ بنيويورك وفى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٤٨ بباريس وفى أبريل ومايو سنة ١٩٤٩ بنيويورك - اقترحت على جامعة الدول العربية أن تعمل بالتعاون مع الهيئات غير الحكومية على اعطاء طابع « دولى » - فى نطاق الدول العربية - للجمعيات الاقتصادية والاجتماعية ، وما يماثل هذه الجمعيات فى سائر الدول العربية . فإذا ما استكملت هذه الهيئات غير الحكومية طابعها «الدولى» أى أن يمتد نشاطها إلى مجموعة دول مختلفة ، وإذا ما نسقت صلاتها بما يماثلها من جمعيات فى غير الدول العربية ، فإنها تستطيع أن تعتمد كهيئات استشارية لدى المجلس الاقتصادى والاجتماعى تحت الطائفتين «ب» و «ج» كما أن جامعة الدول العربية تستطيع أن تدعم أكثر من هيئة دولية عربية معنية بالشئون الاقتصادية والاجتماعية يمكن أن تدرج فورًا تحت الطائفة «أ» ، لأن هذه الجامعة وإن كانت جامعة حكومات إلا أن نشاطها الاقتصادى والاجتماعى يمكن أن يتخذ صيغة غير حكومية . ولا شك أن لدى جامعة الدول العربية من الوسائل ما يمكنها من تنسيق صلتها بالمجلس الاقتصادى والاجتماعى الذى تعد لجانه التسع الرئيسية ولجانه الإقليمية معظم مشروعات القرارات التى تعرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وانني لأومن بأن الدول العربية تستطيع أن تسمع صوتها عاليا بواسطة هيئاتها غير الحكومية - إذا ما اعتمدت كهيئات استشارية - إلى جانب أصوات وفود الدول العربية فى الأمم المتحدة . بل إن هذه الهيئات غير الحكومية تستطيع - بتحررها من القيود الحكومية - أن تحقق للعرب عن طريق لجان المجلس الاقتصادى والاجتماعى مصالح اقتصادية واجتماعية قد لا يتسع وقت الساسة والدبلوماسيين ورجال القانون من أعضاء هذه الوفود لتحقيقها ، أو قد تعوزهم الخبرة الخاصة فى تفاصيل المسائل الاقتصادية والاجتماعية لتحقيقها عند مناقشتها أمام الأمم المتحدة ، وهى خبرة لاشك فى توافرها لدى الهيئات غير الحكومية المتخصصة فى نوع معين من النشاط الاقتصادى والاجتماعى [١] .

وكان من مقتضيات النهضة السياحية والفندقية التى تحققت فى الأعوام الأربعة الأخيرة والتى أثبتت أن الاقتصاد السياحى يمكن أن يكون موردا مجزيا ضخمًا من موارد الدخل القومى - كان من مقتضيات هذه النهضة أن تقترن بإعلام سياحى دولى على نطاق واسع .

ومن بين الدراسات المتصلة بالاعلام السياحى موضوع التسويق السياحى الفندقى . فمن الواجب فى صناعة الفنادق أن نشير إلى أن الاعلام عنها لا يستهدق إلا التذكير بوجود « المكان » أو المكان الذى يقوم به الفندق لا الاطناب فى مبناه أو أثاثه أو طعامه ، فهذا يترك للخبير الفندقى الذى يجب - عن طريق خدمته الممتازة للنزيل - أن يعمل على استبقائه فى فندقه أطول مدة ممكنة ، وأن يجتذبه إلى العودة إلى نفس الفندق فى المستقبل مرات عديدة .

ولذلك - وعلى ضوء التجربة الفندقية فى مصر - يبدو واضحًا أن المصلحة العليا لهذه الصناعة فى مصر تقتضى توحيد مهمة الإعلام عنها فى الخارج ، وتنسيق العمل مع باقى الهيئات الفندقية فى الدول العربية الأخرى ، واضعين نصب أعيننا أن اجتذاب السائح إلى إحدى هذه الدول ييسر تنقله فى المنطقة العربية إذا خطط الإعلام السياحى على أساس جعل هذه المنطقة العربية وحدة سياحية متكاملة .

---

(١) الدعاية للدول العربية ووسائل تنظيمها ، يونيو - يوليو ١٩٤٨ للمترجم وجريدة الزمان فبراير ١٩٥٠ .

ولعل أنجح وسائل الاعلام الفندقى « الإعلام التحريرى » الذى يتحقق عن طريق دعوة بعض الكتاب أو القصصيين أو الفنانين أو الصحفيين لقضاء فترة معينة فى فندق معين ، لمناسبة قومية معينة ، أو لمشاهدة الاحتفال بذكرى تاريخية معينة ، فالاشارة إلى الفندق فى هذا الصدد عن طريق تحرير المقالات أوالتحقيقات الصحفية دعاية ، وإعلان ، وإعلام من الطراز الأول .

ومن المأمول أن يقوم الجهاز الإعلامى - على نطاق واسع - بمهمة العلاقات العامة لصناعة الفنادق العربية ، وهى المهمة التى تتلخص فى العمل على تنسيق التعاون بين الشركات الفندقية وبينها وبين قطاعات الرأى العام فى الداخل والخارج التى تهتم اهتمامًا مباشرًا أو غير مباشر بالنواحى الاقتصادية والاجتماعية لهذه الصناعة ، كما أن هذه المهمة - التى استقرت تقاليدها منذ نحو أربعين عامًا فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم انتقلت إلى غيرها ، وألفت عنها الكتب العديدة وأدمجت فى برامج الدراسات الجامعية الخاصة بالإعلام - تستهدف أن تشيع بين شركات الفنادق روح التعاون لتحقيق تقدمها الفنى ، وأن ينشأ بين مجموع هذه الشركات ومختلف القطاعات العامة والخاصة المتصلة بها اتصال عمل روح الادراك والثقة المتبادلين .

وقسم «العلاقات العامة» من مهمته الاتصال بوكالات السياحة التى تغذى الفنادق العربية بنزلائها ، وقد يصل الأمر - إذا أحكم تنظيمه وغذى بالعناصر النشطة - إلى حد ملاحقة بعض كبار النزلاء بعد عودتهم إلى بلادهم بالكتابة إلى الصحف التى تصدر فى بلادهم - وخاصة الصحف المحلية الاقليمية - والإشارة إلى زيارة مواطنهم لمصر والمعالم التى زارها ، والنواحى التى استرعت انتباهه ، وهذا النوع من الاتصال الشخصى عن طريق قسم « العلاقات العامة » - إذا كانت للنزيل مكانة مرموقة فى بلده - يقابل عادة بالترحاب ولا يكلف نشره شيئًا ويحقق طرازا ممتازا فعالامن الإعلام الفندقى والسياحى ، وهذا القسم - باحكام تعاونه مع أقسام الاستقبال بشركات الفنادق وتنسيق العمل معها - يستطيع القيام بمداومة الاتصال اتصالا شخصيا بالنزلاء بعد عودتهم لتهنئتهم بمناسبات أعيادهم القومية أو أعيادهم الخاصة ، وهذه التهانى عن طريق « البطاقات المصورة» المعدة إعدادا طباعيا فنيا خاصا تحقق هى الأخرى غرضا إعلاميا هاما . لأنها - كما تقرر المراجع العلمية الأوروبية المعنية بصناعة الفنادق - تصل إلى

النزلاء فى وقت لا يتوقعون وصولهاإليهم فيه ، ولأنها تبرز اهتمام الفندق بزيارة عميله لفندقه وتذكره بهذه الزيارة .

كما أن « قسم العلاقات العامة » من اختصاصه وضع سياسة مستمرة ثابتة لتغذية النزلاء فى الخارج بالرسائل الدورية التى تختلف باختلاف طراز النزلاء . فالنزلاء متوسطو الحالة المالية يهتمون بالأسعار المعتدلة المخفضة وأسعار الاقامة لمدة معينة ، والنزلاء الصيفيون يهتمون اهتمامًا خاصابموقع الفندق وشرفاته وقاعة المطالعة فيه ، وحمام السباحة وقاعة اللعب مكيفة الهواء التى تعينه على تحمل حرارة الجو ، والنزلاء ذواقوالأطعمة يهتمون بما اشتهر به مطعم الفندق من «أطباق» خاصة مصرية أو دولية ، والنزلاء الأثرياء يهتمون بالشقق المكونة من غرفة نوم وغرفة استقبال ومكتب ملحق بها وبطراز الأثاث وبالزينة والأدوات الصحية .

وإلى جانب هذا فإن هذا القسم يجب أن يعنى عناية خاصة بمداومة الاتصال بوكالات السياحة فى الخارج لتزويدها بالنشرات التى تضم بضع صفحات مطبوعة طباعة فاخرة عن تاريخ كل فندق ، وطرازه المعمارى وطراز غرفه وحماماته وقاعة الطعام وأبهائه ، وهناك حجم دولى لهذا النوع من النشرات ، وقد جرت فنادق العالم الكبرى على ارسالها ، دوريا إلى وكالات السفر وهيئات السياحة والفنادق الأجنبية . لأن التجربة أثبتت أن الكثير ممن ترسل لهم لا يحتفظون بكميات منها لمدة طويلة ، ولذلك يلاحقون بها فى أوقات متقاربة .

وهذا القسم فى جهاز العلاقات العامة هو الهيئة الكفيلة بتغذية النشرات الدولية المتوفرة على إرشاد السياح ونزلاء الفنادق إلى عناوين هذه الفنادق فى مختلف دول العالم ، ومنها « الدليل الدولى للفنادق » الذى تصدره جمعية الفنادق الدولية بباريس . كما أن هذه الجمعية تصدر مجلة الفنادق الدولية و «دليل وكلاء السفر» وهذا الدليل يضم أسماء فنادق العالم تبعا للدول التى تقع فيها والمدن فى هذه الدول التى تقوم بها تلك الفنادق مرتبة بالحروف الأبجدية بدون تفرقة بين درجات الفنادق مع الإشارة إلى عدد الغرف وسعر كل فندق .

وهذا الذى أشرت إليه - على سبيل المثال - بشأن توحيد مهمة الإعلام عن صناعة الفنادق العربية فى هيئة تقوم بهذا الإعلام الجماعى تقوم به - فعلا - مجموعات عديدة من الفنادق فى مختلف دول العالم يقع بعضها فى منطقة

جغرافية تختلف عن الأخرى فى نفس الدولة ، وأحيانًا تقوم هيئة واحدة بالإعلام والإعلان والدعاية لمجموعة فنادق تقع فى دول مختلفة فى حالة ما يسمى فى هذه الصناعة « السلسلة الفندقية المتحدة» .

وكل فندق تابع لها يقوم بالإعلان عن بقية فنادق المجموعة أو السلسلة .

ومن المزايا التى تبدو عند توحيد مهمة الإعلام إمكان انشاء « مكتب عام للسياحة العربية » متحرر من قيود « الروتين » على نسق ما هو جار فى فرنسا مثلا فى أكثر من منطقة من مناطق السياحة ذات الأهمية الدولية مثل مكتب السياحة فى فيشى الذى اتفق أصحاب الفنادق فى تلك المنطقة وتعاونوا وأسهموا فى إنشائه ، ويكفى أن أشير هنا إلى أن هذا المكتب يمكن أن يضم ، في قاعة واسعة تضعها بلدية القاهرة تحت تصرفه فى موقع مركزى من المدينة ، الخدمات الآتية :

مكتب استعلامات فندقية للباحثين عن غرف فى الفنادق - مكتب للمسارح ودور السينما والملاهى للاستعلامات وبيع التذاكر - مكتب للرحلات بالسيارات - مكتب لمجموعة الأندية المصرية التى لها مثيل فى الخارج كنادى السيارات ونادى الطيران ونادى الرحلات ونادى الصيد ونادى التجديف ونادى الروتارى - مكتب لشركة أنباء الشرق الأوسط - مكتب لسكك حديد الحكومة - مكتب لشركة الطيران العربية - مكتب لبيع الصحف والمجلات الأوربية والأمريكية - قاعة عرض تليفزيونية - قاعة إذاعة الأخبار العالمية باللغات الأجنبية - قاعة مطالعة - مكتب لصرف العملة الأجنبية .

ومن واجب هذا المكتب تنظيم الاتصال الجماعى بوكالات السياحة الأجنبية وتغذيتها بأحدث البيانات عن صناعة الفنادق المصرية ، فقد أثبتت الإحصائيات أن ٦٠٪ من أهل الدول الانجلو سكسونية يزورون مكاتب الرحلات ووكالات السياحة قبل سفرهم للحصول على بيانات ومعلومات عن البلاد التى يعتزمون زيارتها ويحددون على ضوئها الأماكن التى سيتخلفون فيها ومدة الإقامةفى كل منها ومكان الاقامة ، وقد حسم مؤلفو الكتب الحديثة عن صناعة الفنادق هذه النقطة فقطعوا بأن وكالات السياحة الأجنبية - كواسطة يلجأ إليها السياح للاستشارة - تحقق لأصحاب الفنادق دعاية مباشرة أو غير مباشرة لا يمكن انكارها ولها أن تقتضى مقابل تلك الخدمات ، وأن أصحاب الفنادق الذين يقطعون صلاتهم بهذه الوكالات يرتكبون خطأ كبيرًا .

ومن الهيئات الدولية التى يجدر توثيق الصلة بينها وبين قطاع السياحة والفنادق العربى (منظمة السياحة العالمية) التى تصدر «دليلا سنويا» و «نشرة الإعلام والصحافة» كما أن من هذه الهيئات « الجمعية الأمريكية لوكلاء السفر » التى تصدر نشرة خاصة بأخبار هذا النشاط السياحى الضخم .

وأخيرا فإن من أهم ما يعهد به إلى مثل هذه الهيئة الإعلامية الجماعية لصناعة الفنادق هو انشاء مكاتب فى الخارج لتمثيل المجموعات الفندقية ، والحكمة فى إنشاء هذه المكاتب ، أو هذه السفارات الفندقية بتعبير أدق – كما تقرر آخر الدراسات الإحصائية العلمية الحديثة عن صناعة الفنادق – هو أن الإبقاء على الصلات مع وكالات السياحة يحتم – لكى تثمر هذه الصلات ثمرتها المرجوة – أن تكون هذه الصلات متتابعة متلاحقة ، إن لم تكن مستمرة ، دائمة ، فرحلات أصحاب الفنادق إلى الخارج بمناسبة أعمال فندقية فردية أو لحضور بعض اجتماعات الهيئات الدولية السياحية أو الفندقية ، وإن كانت عظيمة الأثر من الجهة التجارية الفندقية إلا أن تكاليفها كثيرة وهى بطبيعتها تتم فى فترات متباعدة ، فى حين أن وجود مكتب لتمثيل الصناعة فى الخارج يكفل التذكير الدائم بهذه الصناعة ، والعرض المستمر الدائب لامكانياتها مما يحقق الفائدة المرجوة فى مواسم أعداد الرحلات السياحية» وفى الوقت الذى يتم فيه بيع تذاكر السفر بالبحر أو الجو أو البر وحجز الغرف بالفنادق [١] .

هذه خواطر متفرقة كانت تمر بين حين وآخر ببال البعض ممن آمنوا بقيمة استقصاء الرأى العام وقياس اتجاهاته وتوفير المادة الإعلامية المناسبة له ، ولكن الجهود الإعلامية العربية لم تلبث أن اقترنت بارساء قواعد علمية لاتجاهات الإعلام فى مختلف الميادين . فإذا كان تدريس العلاقات العامة فى كلية التجارة بجامعة القاهرة قد بدأ منذ بضع سنوات فإن ذلك كان مقصورا على الجانب الاقتصادى وتطبيقاته فى إدارة الأعمال . أما تدريس العلاقات العامة – والإعلام كما هو معروف من أهم وظائف هذه العلاقات العامة – من النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كقوة حضارية تؤثر فى الرأى العام وفى المنظمات

---

(١) محاضرتان للمترجم «التسويق العصرى لصناعتى السياحة والفنادق» نادى التجارة بالقاهرة ١٤ من يناير ١٩٦٢ و «التسويق السياحى» بمعهد الدراسات العليا فى التسويق ، كلية التجارة جامعة القاهرة ١٤ من ابريل ١٩٦٣ .

السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيبدأ لأول مرة فى فبراير سنة ١٩٥٨ بقسم الصحافة بجامعة القاهرة [١] .

ولم تكتف مصلحة الاستعلامات بذلك ، بل أنشأت معهدا خاصًا للإعلام بدأ فى السنتين الدراسيتين ١٩٥٩ – ١٩٦٠ ، ٦٠ – ١٩٦١ بقبول طلبة من غير العاملين فى المصلحة بعد أن كان المعهد مقصورًا عند إنشائه على تكوين أولئك العاملين تكوينا إعلاميا سليما . وكانت مدة الدراسة بالمعهد سنة واحدة ، ولكن عدل بعد ذلك عن قبول طلبة من الخارج ، واقتصر على أولئك العاملين . كما أصبحت مدة الدراسة سنتين يتلقى فيها الطلبة مواد الإعلام والتحرير الصحفى والتحرير الإعلامى ، والمذاهب السياسية والترجمة والقومية العربية ، والمجتمع العربى ، والاقتصاد السياسى ، والإحصاء ، والتشريعات الصحفية ، والطباعة والأرشيف الصحفى . كما يتلقون محاضرات عامة فى السينما والإذاعة والتليفزيون .

كما أن المشرفين على الإعلام العربى لم يكتفوا بهذه النواحى النظرية للإعلام ، بل عنوا بالجانب العملى الذى يدرس فيه الباحثون «كل التجارب الإعلامية التى مرت بالبشرية فى العصر الحديث . ومن أهمها فى الواقع تجربتان هما : التجربة النازية والتجربة الصهيونية » [٢] .

وقد توالت بعد ذلك الجهود العلمية لوضع أسس سليمة للإعلام العربى . فأنشئت كلية الإعلام بجامعة القاهرة منذ أكثر من عشرة أعوام وصدرت كتب عديدة عن الإعلام وضعها الرواد الإعلاميون . وتوفر عدد من طلبة الدراسات العليا فى هذه الكلية على وضع رسائل أضافت الكثير إلى الأدب الإعلامى العربى .

ويجدر بنا أن نضيف أن الجانب العملى أو التطبيقى للإعلام من واجبه الأول دراسة الأجهزة الإعلامية الموجودة بالدول أو الدول الأخرى متى أمكن ذلك . أما واجبه الثانى فهو دراسة التجارب الإعلامية الكبرى فى العصر الحديث . ومن أهمها – كما ذكرنا – تجربتان هما : التجربة النازية والتجربة الصهيونية [٣] .

---

(١) إبراهيم إمام : «فن العلاقات العامة والإعلام» مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة ، ١٩٥٨ .
(٢) عبد اللطيف حمزة : «الإعلام : له تاريخه ومذاهبه دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦٥ ص ١٨٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٨٥ – ٦ .

وبعـد ، فـإذا كـان الأسـاتذة العـرب الذين توفـروا على تدريس الإعـلام على المستويات الجامعية قد لفتوا النظر إلى أن « المكتبة العربية مازالت خالية من الكتب فى هذا الموضوع رغم أهميته الشديدة لنا ، فى هذا العصر الذى نمر فيه بالتغيرات الكثيرة ، والتطورات العديدة ، فى المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية[1] فإن فى ذلك مايحفز على ترجمة هذا الكتاب وغيره فى نفس الموضوع لسد هذه الثغرة وتوفير هذا المرجع للجيل الجديد من خبراء الإعلام العربى والمشتغلين به . والدارسين له .

دكتور محمود كامل

(١) ابراهيم امام ، نفس المرجع ، المقدمة .

الجــزء الأول

الـرأى العـام : مفاهيمه وطبيـعـتـه

(١)

بعض أوصاف الرأى العام جمعها أولريش شتراوس

جون ستيوارت ميل - عن الحرية

إن رضى المجتمع - أو قطاع قوى منه - أو سخطه هو الشيء الرئيسى الذى قرر عمليا القواعد التى وضعت لكى يراعيها الجميع والتى يرتب القانون أو الرأى العام الجزاء على مخالفتها (ص ١٠) .

ماكيافيلى - محاضرات

أظن أننا قد نخلص أيضا إلى أن الرجل العاقل لن يجهل علاقة الرأى العام بالشئون الخاصة كتوزيع الوظائف والترقيات ، لأن الشعب هنا عندما يترك وحده لايرتكب أخطاء أو أنه إذا ارتكبها أحيانا فإن أخطاءه نادرة إذا قورنت بتلك التى ترتكب إذا تولت القلة القيام بمثل ذلك التوزيع .

(ص ٣٢٠ طبعة ١٩٥٠)

بلانتشلى - نظرية الدولة

إن الإرادة العامة لها أصل تلقح به الطبيعة أفراد الشعب كما تلقح به اتجاه هذا الشعب إلى الوحدة والتنظيم وهو الذى نسميه الاتجاه السياسى . وهذه الإرادة المشتركة إذ تعلن عن نفسها تصبح إرادة الدولة مع أن مجرد الإرادة الفردية تظل فردية حتى لو حرر فردان عقدا بينهما (ص ٢٨٢) .

و . و . ويلوبى - طبيعة الدولة

إذا تحدثنا إذن عن سيادة الشعب فإننا لا نقصد أكثر من سيادة الرأى العام وهى تلك القوة التى يعرفها ليبرفى (الأخلاق السياسية) بأنها «شعور وعاطفة المجتمع التى يتحتم عدم إمكان مقاومتها والتى تظهر قوتها فى كل مكان والقوة التى تعطى معنى لنص القانون وروحه بدونه لا يكون القانون المكتوب إلا مجرد قشرة» . فالسيادة - بذلك - قد انكمشت كما يقرر الأستاذ وودرو ويلسون بعد أن

استجمع قواه لتحديد معالمها إلى «فهرس مؤثرات» (سيد قديم ورسائل أخرى ص ٧٨ وص ٢٦٨) .

برايس – الديموقراطية العصرية

الرأى العام . . يستخدم عموما للتعبير عن مجموع الآراء التى يعتنقها الناس عن الشئون التى تؤثر فى المجتمع أو تهمه . . أنه مجموعة من كل نوع من المعلومات المتناقضة والمعتقدات والأوهام والأفكار المبتسرة والتطلعات . إنه حائر ومفكك . يعوزه التبلور ويتغير من يوم إلى يوم ومن أسبوع إلى أسبوع (ج ١ ص ١٥٣) .

داڤيد هيوم – رسائل ج ١

لما كانت القوة دائما فى جانب المحكومين فليس لدى الحكام من سند إلا الرأى . ولذلك فإن الحكومة تقوم على الرأى فقط وهذه القاعدة تسرى على أشد الحكومات استبداداً كما تسرى على أكثرها حرية وشعبية (ص ١١٠) .

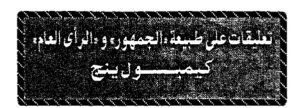
ولو أن الناس تحكمهم المصلحة كثيرا فإنه حتى المصلحة نفسها وكل المسائل الإنسانية يحكمها الرأى حكما تاما (ص ١٢٥) .

أ . ف . دايسى – الرأى فى انجلترا

إن تعبير (الرأى العام) عندما يستخدم فى صدد الإشارة إلى التشريع هو مجرد طريقة مختصرة لوصف الاعتقاد أو الاقتناع السائد فى مجتمع ما بنفع قوانين معينة وإنها لذلك يجب التمسك بها أو بضررها ولذلك يجب أن تعدل أو تلغى (ص ٣) .

توجد فى كل وقت مجموعة من المعتقدات والاقتناعات والعواطف والمبادىء المسلم بها أو الآراء المبتسرة المتأصلة الجذور التى إذا أخذت جملة فإنها تصنع الرأى العام فى عصر معين أو ما يمكن أن نسميه تيار الرأى المتحكم والمتسلط (ص ١٩) .

(٢)



(١)

قد يدل «الجمهور» – كاسم – على أية رابطة فضفاضة لأفراد تجمع بينهم مصالح مشتركة أو قاعدة ثقافية مشتركة ووسائل آلية مختلفة من الاتصال . ومن المتفق عليه بصفة عامة أنه لا يقتصر على وجود جمهور واحد وإنما توجد بالأحرى عدة جماهير . وبعض هذه الجماهير واسع النطاق ويضم عدداً كبيراً من الأعضاء كما فى حالة جمهور سياسى فى أثناء حملة انتخاب الرئيس فى الولايات المتحدة . والبعض الآخر قد يكون ضيقا فى هدفه ويشتمل نسبياً على أعداد صغيرة من الناس كما فى حالة جمهور يهتم بشكل جديد من أشكال الفن . وكرابطة أفراد فإن الجمهور يحتاج إلى تنظيم وضعه تنظيما أصوليا . فلا يجب أن يخلط الواحد منا الجمهور بمحفل من المحافل الماسونية السرية أو بهيئة دينية أوبحزب سياسى تربط بين أعضائه صلة وثيقة . فمن حيث الاستقرار ودرجة التنظيم يكون الجمهور إذن رابطة مؤقتة لم تتبلور بعد فى شكل معين ولم تستكمل بناءها نسبيا تجمع أفراداً لهم مصالح معينة مشتركة .

وبعض معالم الجمهور الأخرى قد تتضح بمقارنته بالحشد . فالحشد أيضا هو اجتماع أفراد مؤقت وغير منظم نسبيا . وقد تبدو حالة محددة لذلك فى حشد يمر سريعا بشارع ما ، ويكتفى بمشاهدة العمال يعلقون إعلانا لافتاً للنظر . فإذا كان الحشد منظماً نوعا ما وأكثر حركة وإصرار فقد يتحول إلى دهماء يصدرون الأحكام على الناس وينفذونها . وفى النهاية الأخرى لمثل هذا السياق ربما يحسب الواحد بشىء من التجاوز جماعة تستمع إلى خطاب حشدا غير منظم . ولكن على أية حالة فإن الحشد على اختلاف الجمهور يجب أن يكون له مكان معين يتسع له وأن

---

(١) عن مجلة *International Journal of Opinion and Attitude Research* ١٩٤٨ ، ص ٣٨٥ – ٣٩٢ .

يتلاصق جسم كل عضو بجسم الآخر . وأكثر من ذلك فإن الحشد له طابع معين خاص به يتفق مع ما يتطلبه من فراغ يتسع للاحتشاد . ويتسم هذا الطابع بأن الاتصال بين المحتشدين هو اتصال تلاصق كتفا بكتف لا التقاء وجه بوجه وببؤرة أو نواة للمصلحة والعمل يلتف حولها سياج غير محكم أو إطار خارجى محيط من أعضاء أقل تحمسا للعمل . ويوجد فى الحشد تفاعل مباشر ذو قوة محرك تدعمه عناص مختلفة تدرك بإحساسها : ترى وتسمع ويمكن لمسها وتحرك عضلاتها وعمليات حسية أخرى أقل وضوحا . وفوق ذلك فإن الحشد نفسه يقوم بعمل مساعد على استمراره هو ذاته .

وعلى النقيض من ذلك فإن أفراد جمهور ما لا يحتاجون إلى الصلة الجسدية المباشرة بين كل منهم والآخر . وغالبا لا توجد هذه الصلة . وهم يجتمعون معا بحكم الأمر الواقع الخاص بباعث مثير أو مصلحة مفروض أنها مشتركة مع آخرين . وجمهور قراء صحيفة إخبارية مثل على هذه الحالة . فافتراض باعث مثير مشترك وتحقق متبادل من شخصية الآخرين يستقر فى الذاكرة والخيال لا فى الإدراك الحسى المباشر للآخرين الذين يشاهدون ويسمعون ويتحركون نحو بؤرة مشتركة تثير الاهتمام ، كما هى حالة الحشد الذى تنتقل فيه العدوى من فرد إلى الآخر . ولكن مرة أخرى مثل هذه العلاقات الرقيقة بين أعضاء جمهور ما تمثل الحالة المحددة .

ومع ذلك فأعضاء جمهور ما قد يجتمعون معا ، بل إنهم يجتمعون فعلا . فالأفراد قد يتحدثون عما قرأوه فى الصحيفة الإخبارية أو عما سمعوه فى الإذاعة . وهذا بدوره قد يؤثر فى قراءتهم أو استماعهم التاليين . فضلا عن ذلك فإن جمهورا ما قد يتجمع ليكون حشدا أو جماعة تستمع إلى خطاب تحت تأثير إثارة من زعيم أو هيئة . وهذا التلاصق بين الأفراد من أهم ظواهر نشاط الجماهير ولكنه يهمل غالبا . فالجماهير التى تكون الروابط بين أفرادها مفككة تصبح مؤثرة فى العمل ، حتى تلتقى كجماعات تستمع إلى خطاب أو حتى تتوثق صلتها بهيئات من نوع أكثر تنظيما . وهكذا قد يحاول حزب سياسى أو تحاول جماعة تقوم بضغط ما أوجماعات أخرى أكثر تنظيما على أسس أصولية أن تستميل جمهورا لم يتبلور بعد فى شكل خاص إلى غاية معينة . فقد يهتم الجمهور مثلا بمشاهدة الصراع فى سبيل السلطة بين الإدارة والعمال المنظمين على وضع معين . وكل من

الجانبين فى مثل هذا النزاع قد يقوم بدعاية لدى الجمهور «المتفرج» فى محاولة لكسب أنصار من هذا الجمهور يشتركون إيجابياً فى تأييده . ومثل هذا الاشتراك قد يكون كمساهمة مالية أو رفضا لاختراق الحاجز الذى يقف عنده مراقب تنفيذ إضراب العمال أو الانضمام إلى عضوية جانب أو آخر . ولكن بمجرد أن يقوم فرد بذلك فإنه يغير طابع عضويته فى الجمهور . فبعد أن كان شبه مراقب سلبى يتحقق انتماؤه إلى جماعة أكثر استكمالا لقوامها ذات هدف ثابت .

وهذا لا يعنى القول إن هذا الفرد لا يستطيع ولا يجوز أن يستمر عضوا فى جمهور معنى بمسألة ما ، ولكن دوره بالنسبة لهذا الجمهور سيتغير بالتأكيد . إذ يصبح مدافعا لا مراقبا ، وهكذا قد يقوم فى الوقت المناسب بالتأثير فى أعضاء آخرين ينتمون إلى مثل هذا الجمهور لتوجيههم إلى اتجاه أو آخر .

وبالإيجاز فإنه بينما يستمر استخدام مجرد الجمهور كرابطة أفراد تجمع بينهم علاقات رقيقة لم تستكمل قوامها ، فإن تأثير أى جمهور – كهيئة تتولى العمل – يستند إلى علاقته بجماعات مكونة تكوينا أصوليا أكثر ومنظمة تنظيما أفضل . وهذه الحقيقة هى التى تبرز أهميتها فى تكوين ما يسمى الرأى العام .

(٢)

ولندرك معنى الرأى العام دعنا أولا نفحص كل تعبير على حدة . فكلمة عام تشير إلى المسائل والمصالح أو الشئون التى يشترك نوعا ما فى الاهتمام بها كل الأعضاء البالغين فى جماعة أو أمة . وبهذا المعنى تتناقض مع الأمور التى تعد خاصة أى الشخصية تماما أو التى تغطى جماعة لم تنشر الشئون الخاصة بها أو لم يعـرفها أعضاء جماعات أخرى ، سواء كانت تلك الجماعة صغيرة أو كبيرة . والتعـميم يعـنى أن يـذاع أمر رمزى معـين فى نطاق يتسع لكى يعلم به كل راغب [١] .

إن الرأى يعنى عقيدة أو اقتناعا أكثر قابلية للإثبات وأشد قوة من مجرد إحساس أو انطباع ، ولكن أقل ثباتا وقوة من العلم الإيجابى الممكن اثباته . وهكذا أميز

(١) وكلمة عام تستخدم أحياناً أيضا لوصف قوانين حكومة ما كالقانون العام ، أو قد تستخدم لوصف مكان أوطريق أو شكل من أشكال النشاط فى جماعة كالناقلة العامة أو الدار العامة أو الترفيه العام . ونحن هنا لا نستخدم الكلمة بهذه المعانى .

بين حقيقة ورأى . وكلمة رأى يعبر بها عن معنى أضيق تعبيرا قانونيا عندما يتضمن رأى القاضى تعليلا عقليا لحكمه عندما يعطى خبير رأيه عن مسائل فنية .

فإذا وضعنا نصب أعيننا معنى هاتين الكلمتين فإن الرأى العام قد يعرف بانه المعتقدات والاقتناعات أو آراء الأفراد عن أمور ومسائل واسعة الانتشار أو عن مصلحة عامة أو شأن عام ، وقد يدرس الرأى العام فى نطاق الاقتناعات الخاصة بالمسائل العامة فى لحظة معينة من الزمن . أو قد ينظر إليه حركيا (ديناميكيا) فى نطاق عمليات التفاعل التى ينطوى عليها تكوين اتفاق ما أو رأى مشترك . ومن المهم أيضا أن نشير إلى أن الرأى العام ليس معادلا لآراء الجماهير لأن الأخيرة سبق أن عرفت [1] . وعدم التوفيق فى إيضاح ذلك يقود إلى الخلط . فالدارسون الحقيقيون للرأى العام يعنون بأراء جمهور أو جماهير . ولكنهم قد يهتمون أيضا بالآراء أو الاقتناعات التى يعتنقها فى جماعات منظمة تنظيما عظيما كأتباع مذهب دينى معين أو أنصار جمعية تضم أصحاب الأعمال أو العمال وما شاكل ذلك .

وبتعبير آخر فإن الجماعات ذات الصلات المفككة التى نسميها جماهير ليست وحدها صانعة الرأى العام . بل على العكس تماما فإنها قد تكون أقل أهمية بكثير فى هذا الشأن من الجماعات المنظمة تنظيما عظيما والتى لها أغراض تستهدفها .

ومع ذلك ففى هذا الصدد يجب أن نعقب على استخدام بعض العلماء السياسيين لتعبير مجرد أى الفكرة العامة عنه وتعبير الرأى العام . ويرى بعضهم أن يقصر التعبير بكلمة عام كاسم وكصفة على حقل السياسة [2] والبعض يبررون ذلك بأن الجمهور فى الأصل عليه أن يهتم بالأمور السياسية التى تمس البالغين فى جماعة معينة . وهذا الرأى يستند جزء منه على تاريخ الأشكال الحكومية فى اليونان قديما حيث كانت دولة المدينة هى بذاتها بيئة المجتمع . أما اليوم فإن

---

(١) هذا الرأى عدول عن موقفى السابق . انظر كتابى علم النفس الاجتماعى» ، الطبعة الثانية ١٩٤٤ ، ص ٤٣١ .

(٢) انظر مثلا سيت . أ . م «النظم السياسية» ، ١٩٣٨ ، إذ يتضمن دفاعا قويا عن هذا الرأى .

معظم أصحاب النظريات السياسة والاجتماعية وعلى الأقل أولئك الذين ينتمون إلى التقليد الانجلو - اميريكى يميزون بين المجتمع - بمعنى المجتمع الوطنى - والدولة . فينظرون إلى الأول على أنه الفكرة العامة التى تكبر الدولة بكثير والتى تشمل الجميع .

وبينما ركزت كثير من الدراسات الحالية عن الرأى العام اهتمامها فى أقوال الجماهير السياسية وغيرها من الجماعات السياسية فليس من الحكمة ، كما يبدو ، أن نقصر الأفكار العامة على المسرح السياسى فحسب . لأننا إذا فعلنا ذلك كان علينا أن نكتشف أفكاراً عامة أخرى لتمييز الجماعات غير السياسية للأفراد ولتوضيح الآراء والمعتقدات ذات الانتشار والذيوع الواسعين التى يعتنقها أعضاء كل جماعة . ويبدو أنه ليس من الحكمة أن نضيف أفكارا عامة أخرى إلى علم النفس الاجتماعى لمجرد إرضاء قلة من نقاد العلوم السياسية .

ولندرس الآن عن كثب معالم الرأى العام التى تؤثر بثقلها أو وزنها والتى تقوم بعمل القوة المتحركة . فإذا استخدمنا طريقة القطع العرضى فى الوصف والتحليل نلاحظ أن للرأى العام أربعة أبعاد أساسية : التوجيه والمدى والقوة أو الشدة والعمق[1] .

فالتوجيه خاص بكون الفرد موافقا أو معارضا ، راضيا أو ساخطا على رأى معين . والمدى خاص بضيق المسائل العامة التى تناقش فى وقت معين . والشدة تتصل بالقوة التى تعكس بدورها مظاهر المواقف الانفعالية للرأى المعبر عنه بالكلام . والعمق خاص بتثبيت الرأى تثبيتا غائرا فى عواطف الفرد وقوانينه الخلقية وقيمه . ويندر أن نجد فى الواقع هذا الأساس للرأى ، اللهم إلا فى نطاق العمل نفسه أو بالتحليل الدائب الطويل لجذور وآراء ومواقف الفرد .

ومع ذلك فتضمين عناصر الشدة والعمق هام للدراسات المعاصرة عن الرأى العام . إذ كانت الآراء القديمة عن طبيعة الرأى العام تتمسك بأنه يمثل - على المستوى الخاص بتأثير ثقله أو وزنه والمستوى الوصفى - اتفاقا عاما تم الوصول

---

(١) من الواضح أن هذا إنما هو مجرد تعديل طفيف للأبعاد الأربعة التى وضعها هادلى كانتريل وهى : التوحيد والاقتناع والشدة والعمق .
انظر كتابة « قياس الرأى العام » ، ١٩٤٤ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

إليه بمناقشة المسائل العامة مناقشة عقلية وذكية . وهذا الرأى العقلى قد قوضه إلى حد كبير علمنا الحالى عن مكان البواعث والانفعالات والتفكير المتمنى ، وهى عميقة وغير واعية عادة ، واليوم لا يتمسك قط بذلك الرأى القديم إلا غلاة المتعصبين للمذاهب العقلية . ومعظم العاملين فى الحقل يقرون بأن الرأى العام يتكون من تعبيرات كلامية ممتزجة بتحليل ومناقشة معقولين على أساس باعث وتسويغ عقلى خفيين . وهذا الرأى يتحدى طبعا النظرية القديمة الديموقراطية عن تكون الرأى العام وممارسته وأولئك الذين ينادون بالآراء الجريئة يبذلون أقصى الجهد فى الإلحاح على مناقشة هذا الموضوع مناقشة عقلية بقدر الإمكان ، على أن تكون المناقشة مؤسسة على حقائق راسخة وعلى آراء بالتساوى . والزاما لخط هذه النقطة دعنا الآن نتطلع إلى طبيعة تكوين الرأى العام ، وخاصة كما نما فى الديموقراطيات النيابية .

فمعالجة القوى المحركة لتكوين الرأى العام يجب أن تعنى على الأقل بثلاث صور رئيسية :

(١) إثارة المسألة ، (٢) المناقشة حول المسألة والحلول المقترحة تأييدا ومعرضة ، (٣) الوصول إلى اتفاق . والرأى العام يبدأ فى إثارة مشكلة عامة معينة . ومادامت الأمور ملتزمة حدود العرف والعادة فان الاتفاق العام ، كما يقرره القانون والأساليب المرعية والاجماع ، يستمر . ولكن بمجرد بروز مسألة عامة فان عمليات تكوين الرأى تتحرك . وبالتحليل يمكن الاقتصار على تمييز مرحلة المناقشة لتكوين الرأى بثلاثة معالم . فهناك عادة مرحلة تحضيرية للمناقشة تتكون غالبا مما هو أكثر قليلا من محاولة لتعريف المسألة موضوع المناقشة والتحدث عن الأمل فى حلها . فإذا انقضى بعض الوقت والمناقشة مستمرة يقترح من يعنيهم الأمر حلولا مختلفة وغالبا متباعدة . وأما بشأن وسائل حل المشكلة المعروضة فإن خلافات حادة قد تثور بل إنها عادة تثور فعلا وفى هذه المرحلة تصبح عناصر الخلاف ، كما تصبح عناصر الاتفاق ، أكثر وضوحا ، وعند مايأزف الوقت ننتقل إلى مرحلة ثالثة للمناقشة . إذ يبدأ الناس فى أن ينتصروا لبعض الجوانب ، ونقول عندئذ إن الرأى يتبلور . وفى بعض الأحيان تزيد حدة الخلافات على الحلول الممكنة ، وفى أحيان أخرى يقدم اقتراح بادماج مشروعين أو أكثر من المشروعات البديلة سبق تقديمها أو بخطة للمواءمة بينها . ولكن المناقشة على أية حال تذعن لبعض ما يتضح

من الاجماع أى لما يثبت من الموافقة أو الاعتراض . وربما كان الاستفتاء أوتبين الرأى العام عن طريق جمع آراء الناس هو أدق المقاييس غير الرسمية لتبين اتفاق الرأى العام . وتوجد تعبيرات عرفية أخرى عن اتفاق الآراء فى الرسائل والتظلمات والمذكرات التى تقدم إلى الهيئات التشريعية وإلى كبار الموظفين وغيرهم . كما أن هناك تعبيرات أخرى فى « رسائل إلى المحرر » التى تتلقاها الصحف أما فى المسائل السياسية فان التصويت القانونى الرسمى هو ، طبعًا ، المقياس المقبول لاتفاق الآراء .

إن هذه المراحل لعملية تكوين الرأى إنما تمثل العناصر الأكثر تجردا . وهناك فروق كثيرة بينها وبين المراحل الأقدم عهدًا طبقا للنماذج الثقافية المختلفة عنها تاريخيا . ففى المجتمع البدائى فى أثناء العهد الاستعمارى والعصر الريفى القديم للولايات المتحدة كان الرأى العام يتركز بكثرة حول المسائل المحلية . فالاتفاق على الاجراءات التى تتبع والموظفون الذين ينتخبون لإتمام هذه الاجراءات . كل ذلك كان يدبر بواسطة هيئات كاجتماعات المدن وهذا النموذج قد استفاد من ثمرته اليوم مجتمعنا الريفى ولكن الحزب السياسى والوسيلة الجماعية للإعلام قد اضطلعا بمعظم مهام تلك المناقشة البسيطة الديموقراطية العامة . أضف إلى ذلك أنه ينتظر من المواطن اليوم أن تكون له آراؤه عن مسائل معقدة تتجاوز بمراحل مرمى بصره فى بيئته المحلية . وهى تتضمن أمورًا على أقصى جانب من الأهمية وطنيا ودوليا .

ومما يتصل بهذا المدى المتسع للمسائل العامة أن الذين يدرسون السلوك السياسى قد أثاروا مشكلات هامة كثيرة عن مستقبل تكوين الرأى العام الديموقراطى . وهناك حاجة متزايدة إلى الخبير وما لديه من حقائق واقعة وتفسيرات لهذه الحقائق الخاصة بالمشكلات المترامية الأطراف وبالحلول واسعة المدى أيضا . ولكن قد يتساءل الواحد : من هو الخبير ؟ وهل نطمئن إلى تقديره للسياسة وللواقع ؟ وهكذا هنا أيضا تدخل الجماعة التى تتولى الضغط كما يدخل رجل الدعاية فى أشد مراحل العمل تأثيرا . ويندر أن تكون المسائل من انتاج رجل الدعاية ، ولكنه قد يصفها بطريقته الخاصة عند بروزها . والأهم من ذلك أنه يقترح حلولا وفى نفس الوقت يهدف إلى كفالة سلطة تنفيذ هذه الحلول . ومعركة الدعاية تشتد أحيانا وتطول ، ولذلك يحسن أن نضع نصب أعيننا أن الدعاية وحدها لا تستميل اجماع الآراء . بل أنها قد تتسبب فى تفاقم الخيبة واللبس ، وقد ينتهى

الأمر بتقويض نفس الايمان بالمناقشة الديموقراطية ووسائل ممارستها [1] . ولكى تستمر المجتمعات الديموقراطية على إحداث التأثير فمن المؤكد انها يجب أن تستوفى حاجتها من استخدام الحقائق والإعلام والآراء والحلول المقترحة على أوسع نطاق . أضف إلى ذلك أن المناقشة العامة للمسائل يجب أن تقترن بالمسئولية الأدبية التى يلتزم بها المشتركون فيها الذين سوف يلعبون أدوارا سياسية فى نطاق قواعد النظام الديموقراطى . ومن المألوف أن يعمد الثوار الذين يمهدون للحكم الفردى إلى استخدام نفس وسائل تكوين الرأى الديموقراطى وإنما فقط بغرض تحطيم النظام السياسى الذى يستند إلى المناقشة العامة .

وختاما قد يسأل أحدهم : أيوجد رأى عام فى المجتمعات التى تحت سلطة الحكومات المطلقة والفردية ؟ وبقدر ما تكون المناقشة وحل المسائل العامة حيويا لبلد ما فمن الواضح أن الطبقة الخاصة الحاكمة التى على قمة هرم السلطة هى التى تستأثر بهما . وهذه المجموعة الصغيرة مع ذلك يحتمل أن تمارس مسألة ما أو تناقشها وأن تعمل على الوصول إلى إجماع الرأى فيها . ومن الجلى أن حق تحديد مسألة ما ومناقشتها واقتراح حل لها قد يتفاوت توزيعه بين أعضاء مثل تلك الخاصة الحاكمة . ومع ذلك فيجب أن توجد بعض عناصر لمناقشة مسألة واقتراحات لحلها حتى فى ظل أشد أشكال الحكومات الديكتاتورية .

أما بشأن جماهير الشعب الواقعة تحت سيطرة الطبقة الحاكمة فإن آراءها وعواطفها قد تتفاوت فى التأثير على الخاصة الحاكمة . ونحن نعلم أن لدى الطغاة الدهاة الوسائل لتعرف اتجاه وقوة النتوءات الشعبية فى الشعور والفكرة . ولكن الحكومات الديكتاتورية - لأنها تسيطر على كل وسائل الاعلام الجماعى - تستطيع أن توجه مجرى الحقيقة وتزخرفها للجماهير بطريقة تؤثر فى آرائها وقيمها . وبتعبير آخر ليس هناك من سبب يمنع أشكال الحكم المطلقة من أن تعمر طويلا بالتوفيق بين الاستخدام المعتدل المثابر لوسائل الدعاية والتفنن فى تنسيقها وعرضها وبين التنظيم . وهكذا بينما تجب دراسة الرأى العام دائما ضد الصورة الخلفية للزمان والمكان فإنه ليس هناك من سبب لافتراض أن اختفاء نظام ثقافى كالديمقراطية يقتضى الاستبعاد التام للتأثير المحتمل أو الفعل لرأى الجماهير العامة وغيرها من الجماعات فى السياسة العامة وفى العمل .

---

(١) هـ . د . لاسويل قد ناقش ذلك ببراعة فى بحثه الانسان : موضوع الدعاية وهدفها » مايو ١٩٣٥ ، جزء ١٧٩ ،ص ١٨٧ - ١٩٣ .

(٣)

نحو علم الرأى العام
فلويد هـ. اولبورت

يتضمن الأدب والاصطلاحات الدارجة عند الإشارة إلى الرأى العام عدة تصورات وبيانات تعوق التفكير الواضح . وهذه البيانات مستمدة من الدراسات المقارنة ، ومن تشخيص الموضوع وبعض الصور المستعارة من الخطب العامة ، وهى تستخدم فى تنسيق الأسلوب الصحفى وبقصد إثارة خيال ساطع أو إخفاء تحيز انفعالى لكاتب معين . وقد بلغ من سعة انتشار هذه البيانات وكثرة استخدامها والنظر إليها باحترام كبير حتى فى الكتب المقررة على الطلبة فى العلوم السياسية إلى حد أن إعادة دراستها أصبحت ضرورية كخطوة أولى لتحديد تناول الموضوع عن كثب تناولا علميا مثمرا .

الخيالات والأزقة العمى

(١) تشخيص الرأى العام .

يتجه التفكير إلى الرأى العام ، طبقا لهذا التصور الخيالى ، على أنه نوع ما من كائن مع الناس أو فوقهم . وهناك يعبر عن رأيه فى مختلف المسائل كلما نشأت . إن «صوت الرأى العام» أو «الضمير العام» هما تعبيران مجازيان من هذا النوع . وقد نشأ من التفكير فى رأى أبدته مجموعة من الناس فى وقت ما ، ورأى آخر أبدته نفس المجموعة فى وقت آخر ، وعندئذ فرض استمرار نوع من المبدأ الروحى بين الرأيين . وقد يقال مثلا : إن الرأى العام فى ١٨٣٠ انتصر للرق ولكنه فى ١٩٣٠ عارضه ، وإن الشعب لذلك قد ظن أنه غير فكرته . وعندما ننظر من الوجهة الوصفية للعلم إلى هذا الخيال فإنه يتلاشى طبعا ، ولا نجد أمامنا إلا جماعات من أفراد معينين يربط بينهم اتفاق مشترك معين فى وقت ما ، واتفاق مختلف فى وقت آخر . ولو أن هذا الخيال مضلل من وجهة البحث العلمى إلا أن جزءا منه قد نشأ من وضع طبيعى تماما . إذ يلاحظ نوع من الاستمرار السيكلوجى تنطوى عليه فعلا الحقيقة الماثلة فى أنه على مدى فترة من الزمن يستقر لدى الأفراد عدد من الآراء المألوفة والتقاليد والعادات والقواعد المستمدة من تجربة سابقة .

وبالاختصار «خزان» من المعتقدات المسلم بها والممارسات يتقرر على أساسها الرأى فى كثير من الشئون الجارية . ومع ذلك يتوقف الخطأ أعلى الظن بأن هذه النزعات المعتادة العصبية لدى الأفراد تشترك فى صنع روح أو كائن يسمى « الرأى العام » يتأمل وينتهى إلى قرار فى الشئون العامة عند نشوئها .

(٢) تشخيص الجمهور

والتصور الخيالى الآخر المتصل بذلك هو الذى يتمثل فى تصور كائن جماعى روحى ينطبق لا على عملية الرأى نفسها ، وانما على الجمهور الذى يعتنق هذا الرأى . ويتحدثون عن تجسيد الجمهور أو تشخيصه على أنه يتطلع مرة إلى اتجاه ، وأخرى إلى اتجاه آخر ، ويقرر ويبدى رأيه . ومن آثار هذا الأسلوب الصحفى المائع فى الكتابه أنه ما دام « الجمهور » هنا ليس حقيقة واضحة يمكن التدليل عليها وإنما مجاز ، فإن أى نوع من الرأى قد ينسب اليه دون إمكان التحقق منه .

(٣) الضلال فى تشخيص الجمهور جماعيا

وما لا يدركه العقل وأن تساوى مع عدم قابليته لقواعد النقد هو ما تعارف عليه أولئك الذين ينبذون كرة الكيان الجماعى أو عقل الجمهور ، ذاهبين إلى أنهم عندما يقولون الجمهور فإنما يعنون الأفراد ، ولكنهم مع ذلك يستمرون على استخدام مثل هذه الجمل « الجمهور يريد كذا وكذا » أو « صوت البلد لصالح منع المسكرات » . وسواء شخصنا ميل الجمهور أم لا ، فإننا ننحرف إلى ارتكاب ضلال عندما نستخدم فعل يريد أو يصوت باعتباره يدل على عمل لأن البيان الذى يدل عليه الفعل سيصدق غالبًا على إجمالى الجمهور المقصود فحسب . وبهذا النوع من التعبير الذى سمى أيضًا «تضليل الجزء للكل » يخفى الواحد منا الحقائق الخاصة بالأقليات التى يتولى البحث الكشف عنها .

(٤) ضلال المضمون الجزئى فى استخدام تعبير « الجمهور »

وبتطبيق ما سبق من نقد على وجه أخص يبرز هذا السؤال : « ماذا نعنى بالجمهور ؟ أهو شعب تعينه حدود جغرافية وجماعة وسلطة شرعية سياسية ، أو غير ذلك من الحدود ؟ أم أنه مجرد مجموعة من الناس داخل منطقة معينة لهم مصلحة مشتركة ؟ فالتعبير فى المثل الأول شامل شمولا كاملا ، أى أنه يستخدم ليتضمن من كل فرد فى المنطقة - جسمه وعمليات وظائف أعضاء هذا الجسم «الفسيولوجية» وحاجاته إلى جانب آرائه المختلفة ، وردود الفعل عليه .

واستخدام هذا التعبير مع ذلك ليس شائعا لأنه متوسع أكثر مما يجب . فهو يتضمن الكثير إلى حد أنه ليس من الذكاء استخدام طوائف العلماء والقادة الاجتماعيين فى دراسته . فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن رأى هذا الجمهور لأنه يتضمن كثيرا جداً من الانحيازات الفكرية . وكثير منها قد لا يتعلق بالموضوع أو حتى قد يكون متناقضا .

لذلك كان المعنى الثانى لتعبير الجمهور هو المقصود عامة . وهذا المعنى قد تكون لا من كل الأفراد ، ولكن من تجريد لمصلحة خاصة (أو مجموعة مصالح) مشتركة بين عدد معين من أفراد الشعب . فأولئك الذين لهم مثل تلك المصلحة المشتركة يقال عنهم إنهم يكونون « جمهورا » ، وقد نسمى هذا الاستخدام لتعبير «الجمهور» استخداما ذا « مضمون جزئى » . والآن دعنا نفرض أن الأفراد الذين لهم هذه المصلحة الخاصة (أى التى تضم جمهورا من وجهة النظر ذات المضمون الجزئى ليسوا أيضا أعضاء فى جمهور آخر فيه ظاهرة « المضمون الجزئى » ، أى دعنا نفترض أن جمهورهم لا يتداخل مع أى جمهور آخر . فإذا تصورنا الرأى مرتبطا بالمصلحة كما يحدث غالبا بالنسبة للمسائل الهامة ، فإن هذا الجمهور تحيطه حدود مشتركة تمتد على مدى انتشار رأى ما عن مسائل معينة . بتعبير آخر يعرف عندئذ الجمهور بأنه عدد من الناس يتمسكون برأى معين ، والناس الذين يتمسكون بهذا الرأى يستدل عليهم بأنهم أولئك الذين ينتمون إلى ذلك الجمهور . وهكذا يكون تحديد تعبير الجمهور دائريا . فعتبر « الجمهور «كظاهرة» مضمون جزئى » يبدو سطحيا بالنسبة للبحث وتقتصر المشكلة مباشرة على العمل لاكتشاف أين وإلى أية درجة توجد هذه الانحيازات من الأفراد الذين لهم آراء متشابهة بين الشعب المعنى بمسألة معينة .

والآن لنفترض من جهة أخرى أن هذين الجمهورين يتداخلان ، أى أن الفرد قد ينتمى فى نفس الوقت إلى جماعتين أو أكثر بسبب آراء أو مصالح مختلفة فى شئون مختلفة . فى هذه الحالة إذا حاولنا أن نقرر أو أن نكتشف بواسطة فحص أصوات الناخبين رأى جماعات ذات مضمون جزئى وبتعبير آخر رأى جمهور فقد لا نعرف أين يجب أن نضع فرداً معيناً . إذ أنه بانتمائه إلى جماعتين قد يكون له موقفان يتجه أحدهما إلى التناقض مع الآخر فى مسائل معينة فأحد هذين الموقفين يجب أن يطمس الآخر . وإذا وضعناه تحكيماً فى أحد الجمهورين فقد

نسيء تقدير أي الموقفين يسير على الآخر ، وعلى ذلك نخرج بنتيجة زائفة . وإذا وضعناه فى الجماعتين فإننا نحسب صوته مرتين ، وربما يكون قد ألغى صوته والنتيجتان كلتاهما سخيفة . وأمام مثل هذه الاصطلاحات الفنية يصبح مستحيلا أن نحدد مشكلتنا أو أن نكتشف وحداتنا التجريبية للدراسة . فالأراء ليست إلا ردود أفعال الأفراد . ولا يمكن أن تضم إلى حساب الجماهير بدون أن تصبح مبهمة وملتبسة على البحث .

(٥) تخيل القدرة الفكرية للكيان الجماهيرى .

وصورة أخرى غير علمية من صور الحديث عن الرأى العام نلتقى بها أحيانا فى الاستعمال الدارج ، وحتى فى الأدب تبرز قوام الرأى كنوع من عنصر - مثل «فكرة» أفلاطونية - موزع على عقول كل أولئك الذين يعتنقونه . والتعبير بأن رأيا معينا رأى «عام» يصور استخدام هذا التعبير .

(٦) نتاج الجماعة أو النظرية «البارزة» .

نأتى الآن إلى قواعد لا تستند إلى نظريات التشخيص بل إلى النتائج . فالرأى العام طبقا لها ينظر إليه كنتاج جديد يبرز من مناقشة متكاملة فى جماعة . نتاج تفكير فردى متحد يختلف عن كل من متوسط الآراء أو إجماع الآراء ، وعن رأى أى فرد معين على حدة . والتعريف الذى يختلف عن هذا هو الذى يصف الرأى العام بأنه «خطوة على الطريق نحو القرار الاجتماعى . نوع من نقطة الالتقاء للإرادة الاجتماعية فى تنظيمها نحو العمل» وهذا التصور الخيالى سيناقش مع التصور الخيالى التالى .

(٧) النظرية التقريظية

أولئك الذين يميلون إلى عد الرأى العام نتيجة بارزة لمناقشة الجماعة يحملون مضمون نظريتهم شوطاً أبعد ، ناظرين إلى هذه النتيجة ، لا على أنها تختلف عن ثمرات العقول التى تعمل فرديا ولكن على أنها أسمى طرازا . فخلال عملية التفاعل يظن أن الأخطاء يتم فرزها وتنقيتها بحيث يسود فى النهاية رأى من هم أكثر استنارة بعد أن تصقله المناقشة . فالرأى العام بذلك لا يعد كقطعة من تصرف يشترك فيه الكثيرون ، ولكن كنتاج فكرى واحد لشخصيات متفاعلة خلاقة .

ويدعو نقد النظريتين : البارزة والتقريظية إلى بعض الإيضاحات الدقيقة . فمن المسلم به أنه فى البداية عندما يشترك فرد فى مناقشة مع آخرين فإنه غالبا ما يصل إلى نتائج تختلف عن أية نتيجة كان يمكن أن يصل إليها إذا انفرد بالتفكير . والغرض الذى يجب أن نحترس تجاهه باعتبار أنه لا يمكن تناوله بطريقة البحث العلمى هو أن الناتج البارز شىء يطفو على السطح فى الفضاء وهو أكثر انتماء إلى عقل الجماعة منه إلى ردود الفعل الخاصة بالأفراد . فالحجة أ يجب أن تتصل بالحجة ب والحجة ج فى تفكير فرد معين . ولا يمكن أن تكون الحجة أ فى عقل فرد ما والحجة ب فى عقل فرد آخر ، وهكذا ، ثم تنتج نتاجا بارزا يمكن أن يدركه العقل البشرى .

فالنتاج البارز يجب أن يعبر عنه بعض أفراد وإلا لما استطعنا أن نعرفه إطلاقا . وإذا عبر عنه شخص ما يصبح عسيرا أن نظهر كم أعان أثر المناقشة المتكاملة على تكوين ذلك النتاج . ولا تهم النتيجة العامة التى وصل إليها الأفراد خلال المناقشة مع الآخرين عندما يخرجون هذه النتيجة إلى العمل العلنى . كالتصويت مثلا إذ أنهم لا يعبرون عما يفكرون فيه فحسب ولكن عما يريدون . وما يسمى «تفكير الجماعة» قد يحتل مكانه من عقول الأفراد كما أوضحنا . ولكن فى ميدان الشئون العملية إنما يقوم الأفراد بالعمل دون النتاج المتكامل لتفكير الجماعة ، ويحتمل أن يعمل الأفراد بالتوافق مع تفكير الجماعة . ولكن يتعذر فى حالات انحيازات الرأى الكبيرة أن يتحقق هذا مادام من العسير أن يعرف ما هو مضمون الرأى البارز .

ويجب أن ندرك طبعا أن المسائل التى يتجمع منها مضمون ظاهرة الرأى العام ليست عادة مسائل يمكن التأكد من حقيقتها ، وإنما هى مسائل تتصل بالرأى . ولا سبيل فى مثل هذه الأمثلة إلى معرفة ما إذا كان نتاج التفاعل بين الأفراد من مستوى أعلى أم أدنى فى الصدق أو حتى فى القيمة . فمثل هذا التفاعل يعبر عن المسائل تعبيراً أكثر تحديداً ويظهر أكثر وضوحا كيف ينحاز الأفراد إلى مختلف الجوانب ، وبتعبير آخر يعطى صورة أكثر جلاء لما يريده الأفراد . والنتيجة مع ذلك لا تكون حتما حلا ذكيا للمشكلة . ومثل هذا الحل لا يستدل على الوصول إليه إلا بعد أن يتيح الزمن كما تتيح التجربة لنا بعض الأساس الذى نبنى عليه حكمنا . وبتعبير آخر عندما يصبح الموضوع إلى حد ما موضوعا مألوفا راهنا . وعندما يأزف هذا الوقت فإن من المحتمل أن النتاج البارز لا يكون نتيجة مداولة الجماعة وحدها ، بل نتيجة قدر هام من المحاولات التجريبية العلنية أيضا .

أننا لا ننكر إمكان وجود نتاج أسمى قدراً لتفاعل الجماعة . وإنما تقتصر على مجرد القول إنه إذا وجد مثل هذا النتاج البارز فإننا لا ندرى أين هو وكيف يكتشف أو يستدل عليه أو يفحص ، وما هى المقاييس التى قد تقدر قيمته بها . ولو أن هذا النوع من النظريات لا يحط من قدرها فى نطاق الحقيقة المجردة الممكنة إلا أنها تبدو كأزقة عمى فى نطاق المعالجة العلمية للمشكلة المعنية . وربما كان الكتاب الذين أكدو أهميتها يفكرون فى جماعات صغيرة ذات مضمون ريفى أو طليعى رائدى كامل ، حيث يتم التوافق مباشرة مع الطليعة أو مع الزملاء ، وحيث يكون الرأى المشترك المتكامل مترادفا من الوجهة العملية مع الحياة المشتركة ، أو ربما كانوا يفكرون فى حلقات المناقشة التى تبذل فيها محاولة جاهدة للوصول إلى نتيجة مرضية لرغبات جميع المشتركين فى المناقشة .

ولكن بالنسبة لشعوبنا العصرية المتحضرة السريعة النمو المعقدة التركيب والنظم حيث تتلاقى وجوه كل الشخصيات وتمهد الطريق لاجتماعات المهتمين وغيرهم ، فإنه يشك فى مدى التأثير الحقيقى المتكامل الذى تخلفه المناقشة مع الآخرين فى عقل الفرد . ولا شك أنه يحدث بعض التأثير ولكن يحتمل أن يختلط بالتكييف الانفعالى مع قابلية للتأثر بالفقرات المنقولة عن المطبوعات والرموز والتعبيرات الفجة المواتية لطرفى المناقشة التى يستخدمهاالزعماء السياسيون إلى جانب مالا يمكن للفرد أن ينحرف عنه من اهتمام بمصالحه الخاصة .

وعلى أية حال فإن النظر إلى الرأى العام كنتاج لتفكير الجماعة أسمى قدرا من تفكير الأفراد كما أنه يؤثر كنوع من إرادة الجماعة أو حكمها فوق مستوى الفرد إنما هو من الوجهة العلمية رأى عقيم . وهذه النظرية كغيرها من النظريات التى ناقشناها قد يكون الدافع إليها رغبة الكتاب فى التماس سند لأعمالهم كنوع من «العناية الاجتماعية» ولو أن النظريتين البارزة والتقريظية تتسمان اتساما مريحا بالتفاؤل إلا أنهما قد يجعلاننا نستكين إلى شعور من الأمن الزائف يعرض لخطر النسيان الحاجة إلى البحث وإلى الحقائق الخاصة بالمواقف وبالرقابة .

(٨) الخلط بين الرأى العام والعرض العام للرأى (التضليل الصحفى) . لقد تناولت المناقشة السابقة النظريات الخاصة بطبيعة الرأى العام نفسه . ويجب أن يضاف إليها المقياس الذى يحكم به على وجوب اعتبار مضمون رأى معين رأيا

«عاما» أى أنه مسلم به على نطاق واسع . وهذا هو الوهم القائم على أن العبارة أو الفقرة التى يراها الواحد منا مطبوعة على أنها «رأى عام» أو التى يسمعها الواحد منا فى الخطب أو إذاعات الراديو على أنها «إعلام عام» أو «شعور عام» - الوهم القائم على أنها حقا لها هذا الطابع من أهمية سعة الانتشار واعتناق الناس لها . وهذا الخطأ الساذج قد غذته الصحف التى تستعرض الآراء وتلخصها والجهود الاستقصائية التى تبذل لحث الشعب أو الهيئة التشريعية على العمل والتى تدلل على «الرأى العام» بفقرات الأخبار وقصاصات المقالات الرئيسية التى تصدر فى أنحاء البلد المختلفة ، والافتقار إلى أساس إحصائى ، أو إلى دراسات عن صلة هذه المادة بالوضع الفعلى للمواقف فى الشعب ، من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعقيب آخر .

النقط المتفق عليها عامة وبعض الفروق المقترحة .

رغماً عن هذه الخصائص العقيمة الكثيرة للرأى العام فإنه تبدو نقط معينه متفق عليها عامة فى عمل العلماء قد تثبت فائدتها فى هدايتنا عبر الأزقة العمى ووضعنا على الطريق الصحيح . يجترىء الكاتب أن يعيد تقرير نقط الاتفاق هذه بطريقته الخاصة وأن يضيف إليها بعض فروق قليلة أخرى يعتقد أن لها قيمة فى البحث . إن الظاهرة التى ندرسها تحت تعبير الرأى العام هى بصفة جوهرية أمثلة على السلوك تصدق على الأوضاع التالية :

(أ) أنها سلوك الأفراد الآدميين .

(ب) أنها تشمل التعبير بالكلمات .

(ج) أنها تمارس بواسطة أفراد كثيرين (أويعبر عنها هؤلاء الأفراد بالكلمات) .

(د) أنها تستحث وتوجه بواسطة ونحو غرض أو وضع عام معلوم .

(هـ) الغرض أو الوضع الذى يعنيها يهم الكثيرين .

(و) أنها تمثل العمل أو الاستعداد للعمل طبقاً للموافقة أو الاعتراض على الغرض العام .

(ز) أنها تمارس غالبا بوعى . فالآخرون يتفاعلون بالنسبة لنفس الوضع بأسلوب مشابه .

(ح) المواقف والآراء التى تتضمنها يتم التعبير عنها ، أو على الأقل فإن الأفراد على أهبة للتعبير عنها .

(ط) الأفراد الذين يمارسون هذه الأشكال من السلوك أو الذين نظموا لممارستها قد يفعلون ذلك فى حضور الواحد منهم مع الآخر أم لا (وضع الرأى العام بالنسبة للحشود) .

(ى) قد تشمل مضمونات شفوية ذات طابع دائم أو مؤقت تكون مادة أساسية وراثية للطائفة الدائمة و «انحيازاً حاضرا» للطائفة المؤقتة .

(ك) أنها تتلاءم مع طبيعة الجهود الحالية لمعارضة شىء أو إنجازه . أكثر من ملاءمتها المستمرة للسلوك المستقر (ظاهرة الرأى العام متعارضة مع القانون والعرف) .

(ل) لأنها جهود نحو أغراض عامة فإن لها غالبا طابع التنازع بين الأفراد المنحازين إلى الجوانب المتعارضة .

(م) أن لها من القوة الكافية ووفرة العدد كمظاهر سلوك مشتركة بحيث توجد الاحتمال بأنها قد تكون فعالة فى تحقيق غرضها .

هذه النقط المتفق عليها عامة تحتاج إلى بعض التعقيب . فالفقرة (ا) التى تقرر أن مضمون الظاهرة يجب إدراكه على أنه متصل بسلوك الأفراد الفعلى واضحة بذاتها . ولا يمكن مثلا أن تكون مجرد اختراع صحفى يدلل على تقديم أشكال من السلوك الفعلية المسلم بها . أما بالنسبة للفقرة (ج) التى ورد بها تعبير أفراد كثيرين ، فإن تحديد العدد أو النسبة الضرورية لا يمكن تقريرهما لأنهما يتغيران بتغير الوضع . والعدد المطلوب لإحداث الأثر نحو الغرض المشار إليه فى الفقرة (م) يجب أن يراعى فى هذا النطاق .

(ب) التعبير مشافهة ، ويجب أن يكون الغرض أو الوضع المشترك المثير شيئاً يمكن التعبير عنه بالكلمات . ويجب أن يكون قادرا على أن يسمى توا وبوضوح . ولا يمكن وجود شىء كالرأى دون تقرير مضمون الرأى فى صيغة لغوية . ويكون استجابة الأفراد لهذا الوضع المشترك المثير إما بالكلام أو بغيره . قد يكون مثلا عبوسا أو إيماءة أو تعبيرا انفعاليا . ويجب أن يكون الفعل هذا مع ذلك قادرا على أن تتيسر ترجمته إلى كلمات . كالتعبيرات مثلا عن الاتفاق أو الرضى .

(ج) الغرض العام المثير – يجب أن يفهم الغرض أو الوضع الذى تتجه إليه استجابات الأفراد بوضوح ، وأن يكون فى متناول إدراك الجميع ، ويجب أن يحدد تحديداً كافياً حتى يربط بينه وبين اقتراح معين للعمل من أجله ، ولا يمكن مثلا أن يكون الموضوع العام خاصاً بالضرائب إجمالا ولكن قد يكون الاقتراح خاصاً بقانون بفرض ضريبة معينة . والرأى العام بالذات لا وجود له إزاء طبيعة الإله أو القوة الإلهية ، ومع ذلك فإنه قد يثبت وجوده للاعتداءات على العقائد الدينية المسلم بها .

(هـ) يجب ألا يكون الوضع العام المثير معروفا تماما فحسب ، بل يجب أن يكون موضوعا ذا أهمية عامة . فمجرد المصلحة ليس كافيا ، بل إن الموقف يجب أن يمس الحاجات أو الرغبات الرئيسية . فمجازفات رجل يصعد فى منطاد إلى طبقة الجو العليا يثير اهتماما على نطاق واسع ، ولكن هذه المجازفات لا يمكن عادة أن تسمى من شئون الرأى العام مادامت لا تهم الكثيرين . وسياسة الحكومة فى بناء طائرة حربية للدفاع الوطنى مع ذلك قد تصبح تماما شأنا من شئون الرأى العام .

(و) الاستعداد للموافقة أو الرفض – أن الاستجابات التى تنطلق من الأفراد أويتم إعدادها بواسطتهم يجب أن تكون من طبيعة الرضى أو السخط الإيجابيين . والتأييد أو المعارضة . فالمعلومات العامة – مثلا – عن الوسائل المختلفة التى يمكن بها رقابة بيع المشروبات الكحولية ، والمزايا المتصلة بهذه الوسائل لا تنتمى إلى طائفة شئون الرأى العام إلا إذا ارتبطت تلك المعلومات بالتأييد أوالمعارضة واسعى النطاق لوسيلة معينة من تلك الوسائل .

(ز) استعداد الآخرين للعمل – تمسك عدد من الكتاب بأن ظاهرة الرأى العام تنطوى على «وعى بالنوع» فى الأفراد الذين يعتنقون الرأى المسلم به ، أو يعبرون عنه . وقد يطرأ تغيير هام فى سلوك أحدهم الخاص بتأييد إجراء معين أو معارضته إذا تنبه أو حتى إذا تصور أن رد الفعل لدى الآخرين من الأسلوب نفسه . ولو أن هذا «الانطباع العام» جزء هام من عملية الرأى فربما من الأفضل عدم عدها عنصرا جوهرياً فى كل انحياز فكرى تحت الدراسة فقد يتغاضى عن صور هامة للمشكلة كتوزيع الآراء الموجودة فى اللحظة الأولى لظهور الاقتراح المشترك أو الغرض المثير وقبل أن تتاح للناس الفرصة لكى يصبحوا مدركين لردود الفعل لدى الآخرين أومهتمين بها .

(ح) الرأى المعبر عنه – إذا قبلنا ما جاء فى الفقرة (ز) من أثر آراء الآخرين كصورة هامة لظاهرة الرأى العام ، فالنتيجة التى تتبع ذلك أن آراء الفرد يجب أن يعبر عنها ظاهريا ، أو على الأقل يجب أن تكون هذه الآراء قادرة على أن تكون على أهبة الإعلان . ويتضح من عمل الدكتور «ريتشارد شانك» أن هناك اختلافا حاسما فى كيف يشعر الفرد أو يفكر فيما إذا كان الرأى هو ذلك الذى يقبل أن يعبر عنه أويخبر به الآخرين أو أنه رأيه الشخصى الخاص . وقد سمى الدكتور شانك الطراز الأول من رد الفعل المواقف العامة . والطراز الثانى «المواقف الخاصة» والذى لا يتم التعبير عنه لا يهم الكاتب عادة ما دام لا يمثل انحياز معترفا به ، ولا تعنى الكاتب الأسباب التى حدت بالشخصيات المختلفة إلى اعتناق آراء عامة معينة . فقبول هذه الآراء قبولا عاما أو نبذها هو الأمر الواقع الذى له مغزاه . ومن الوجهة العلمية رغم ذلك مع أننا نسلم بأن ظاهرة الرأى العام تستدعى تعبيرا عن الآراء ، فإننا لا نستطيع أن نهمل حقل المواقف الخاصة . فمع امتداد الزمن قد تعظم أهمية وجود تشابه واسع الانتشار بين مواقف خاصة لم يتم التعبير عنها ، ويجب أن تكتشف وتقاس بمعاييرنا الفنية . ولنتأمل مثلا الأهمية المحتملة للرأى الذى ربما كانت تعتنقه أعداد كبيرة من الألمان أو الإيطاليين عن زعمائها ، ولكنها لم تكن تجرؤ على إعلانه .

(ط) علاقة حضور أو غياب الآخرين – ناقش عدد من الكتاب الفرق بين الجمهور والحشد ويبدو بصفة عامة أنهم يتفقون مع ذلك فى أن الظاهرة التى نسميها الرأى العام قد تحدث فى أى الوضعين . وحالة التضمين الجزئى التى سبق أن أشرنا إليها كطابع مميز للتعريف المعتاد لجمهور ما قد اعترف بها ضمنا باتفاق عام على أن الفرد يستطيع أن يكون عضوا فى عدد من الجماهير فى نفس الوقت ، ولكنه لا يستطيع أن يكون عضوا فى أكثر من حشد واحد . وهناك وسيلة أخرى لتقرير الموضوع هى أن نتبين أننا فى كل من الحالتين لدينا وضع يشمل كثيرا من الأفراد يتفاعلون إزاء غرض أو وضع عام ولكن تحت ظروف مختلفة من المشاركة والمحاورة والإثارة والاستجابة . فحيث يتفرق الأفراد مثلا فى بيوتهم لا تتيسر إمكانية الإحساسات المتأثرة بالرؤية واللمس والشم من الأفراد الآخرين ، وهى الإحساسات التى يتأثرون بها فى مناسبة حشد . ومع ذلك فقد جلب الراديو الحديث إثارة سمعية من الآخرين فى هذا الحقل المنفصل ، كما يحدث عندما

«نستمع» إلى تصفيق الجمهور فى أثناء خطاب سياسى مذاع . ويحتمل أن يكون لهذا التحديد للحالات الحسية أثر فى تعزيز قوة الاستجابات الخاصة بموقف الحشد ، ولكنه لا يلغى مثل هذا التعزيز . وفى الوقت نفسه حيث يتفاعل الأفراد ، وكل منهم بجانب الآخر ، فإن للاستجابات المحركة غالبا إمكانية أن تكون فى عملها أكثر تعبيراً وعلانية وقوة ومباشرة . كما تميل ردود الفعل إلى أن تكون أكثر ثبوتا فى حالات انعزال الأفراد واحدا عن الآخر ، ويمكن عادة أن تصبح مؤثرة فقط خلال نظام آلى رمزى نيابى أو عملية سياسية غير مباشرة كالتصويت . ومع ذلك فغالبا ما يبدو التمييز بين عمل الحشد وظاهرة الرأى العام تمييز درجة أكثر منه تمييز نوع .

(ى) المظاهر المؤقتة والدائمة – أكد الكتاب الذين ينتمون إلى إحدى المدارس الفكرية عند معالجة ظاهرة الرأى العام أهمية الطابع المستقر والعقلى لمضمون ومظهر التسليم العام بتلك الظاهرة ، فى حين عرض كتاب آخرون مضمون الرأى على أنه متقلب منفعل انتهازى خاضع للدعاية ومقسم بين مسائل جدلية . وهذا الخلاف يمكن حله إذا نظرنا إلى الظاهرة كعملية ذات بعد زمنى يصبح فيه المضمون القديم هو القسم المستقر والعام فى حين يمثل القسم الحديث الانحياز الراهن الذى لا ينقطع تقلبه . ولقد أشرنا قبلا إلى ما أسميناه مجازا «خزانا» للمعتقدات العامة والمواقف والمعرفة الذى يكون جزءا من نموذج ثقافة عند الاجتماعيين . وبوجه أخص فإن هذه الأساليب من التفكير والشعور إنما هى مجرد ردود فعل يمكن التنبؤ بوقوعها ، سواء فى الوقت الحاضر أو فى المستقبل بثقة أعظم من التنبؤ بغيرها من أنواع ردود الفعل . قد تكون بعض الأشكال المستقرة من السلوك ذات طابع عقلى أو قد تكون ثمرة تجربة انصهرت فى بوتقة المحاولة والخطأ على نطاق واسع كمذهب العزلة الأمريكية مثلا ، أو كتفادى التضخم النقدى . وأشكال أخرى قد تساويها فى الاستقرار وفى امكان التنبؤ بها . ولكنها ذات طابع أكثر انفعالية كالآراء المبتسرة المتحيزة الخاصة بالتفرقة العنصرية مثلا . وفى أثناء عملية تكوين الانحيازات الجديدة يستخدم رجال الإعلان هذه المواقف العامة المستقرة لضمان تحقيق غاياتهم المباشرة . وطريقتهم هى تحويل رد الفعل القديم إلى باعث مثير جديد بالوسيلة المألوفة وهى تكييف الاستجابة . فالتعبير الخاص بالباعث المثير القديم يستدعى الاستجابة القديمة

للاقتراب أو الانسحاب أو الرفض أو الصراع . وفى أثناء هذا الاستدعاء يكون الباعث المثير الجديد المرغوب فى تحويل رد الفعل القديم إليه قد بدأ عمله .

ولدينا الآن اقتراح لحل الخلاف الخاص بمضمون الرأى العام . فالاستجابات القديمة المستقرة والمسلم بها تسليما عاما لا تزال كامنة فى الصورة الخلفية ، لأنها مترتبة على باعثها المثير الأصيل و «الحق» أنها مظهر الرأى العام الذى مر بالتجربة واستقر . ولكن الواقع الخاص بتحويلها بواسطة التكييف إلى باعث جديد شىء طارىء متقلب . . انتهازى ومؤثر بين قطاعات معينة من الشعب الذين هم أكثر تحيزا أو أكثر قابلية للانخداع أو أشد تأثرا بالدعاية دون غيرها من القطاعات . ومن ذلك نحصل على تفسير للمظهر المتقلب غير العقلى والمنقسم لعملية الرأى العام .

ولنأخذ مثلا على عملية التكييف التى سبق وصفها . دعنا نتأمل المذهب الذى يقرر «أن جميع الناس خلقوا متساوين» . فهذه الفكرة قد قبلت منذ زمن طويل كجزء من أساليب الحياة الأمريكية المألوفة اجتماعيا . ومثل هذا الموقف المقرر وحده لا يرضى مقاييسنا للحكم على ظاهرة الرأى العام لأنه لا يقترح وحده عملا محددا نحو غرض معين . ومع ذلك فهو أحد الأسس السيكولوجية التى يمكن أن تبنى عليها الانحيازات الفكرية التى ترضى مقاييسنا . ففى عام ١٧٧٦ أغرى التأييد الذى لقيته الحرب ضد جورج الثالث على تكييف الاستجابات الخاصة بالموافقة التى أعلنت بشأن تلك الحرب وتحويلها إلى اقتراحات بشأن عمل ثورى . وهكذا كانت الحكمة القديمة الخاصة بالمساواة بين الأفراد هى صورة الظاهرة المستقرة المتجلدة التى انعقد الإجماع على قبولها . وتحويلها إلى القضية الثورية إنما كان المظهر الجديد الانتهازى الذى أثار فى بادىء الأمر جدلا شديداً . وبين ١٨٣٠ و ١٨٦١ تزايد ارتباط رد فعل المساواة بين الأفراد والحرية نفسه بالجدل حول الرق . وبعد الحرب الأهلية أصبح رد الفعل ضد الرق أيضا جزء من أساليب الحياة الأساسية . وفى السنوات التالية استخدام نفس المذهب (مع إضافة النفور من الرق) للمساعدة فى تحويل انحياز الأفراد نحو إلغاء الدعارة الاضطرارية (الرق الأبيض) وتشغيل الأطفال (رق الأطفال) وظروف العمل غير المرغوب فيها (رق الأجور) . وبطريقة مشابهة لنأخذ مثلا آخر فإن زهو الشعب كله المتأصل بعنصره وثقافته مرتبطا بتعصب ضد اليهود طال عليه الأمد قد استخدمها هتلر كأداة لتوحيد مواطنيه فى دعم إجراءات النظام النازى .

وهذه المجموعة من المواقف العامة القديمة التى تم تكييفها وتحويلها إلى أوضاع جديدة قد نسميها (استجابات العمل الأساسى الوراثى) للرأى العام . ولتمييزها بما يضادها قد نتحدث عن اتفاق أفراد كثيرين استمالهم تحويل الاستجابات القديمة إلى باعث مثير جديد فنسمى ذلك الاتفاق (الانحياز الراهن) . وإحدى مشكلات البحث الهامة هى أن نكشف مواد العمل الأساسى ذات الأهمية الحقيقية أو الاحتمالية للرأى فى شعب ما ، وأن نحدد علاقتها بالانحيازات الموجودة ، فى الوقت الراهن أو التى فى طريق التكوين ؟

(ك) العمل للغرض الراهن – أن التمييز بين العمل الأساسى الوراثى والانحياز الراهن يوحى بتناقض آخر بين ظواهر الرأى العام وطائفة أخرى من أنواع السلوك القديم ، أى تلك التى تكون القوانين والعرف والتقاليد ، فهذه الظواهر الأخيرة ربما تكون حالات خاصة للعمل الأساسى الوراثى قد تبنى عليها انحيازات الرأى . ومع ذلك فهى تختلف عن العمل الأساسى الآخر فى وجود طراز أعمق من المطابقة ناتج من الالتزام قسرا التزاما قويا بطاعة تلك القوانين خشية العقاب ومن السخط العام على من لا يسايرون هذا الاتجاه . ومع ذلك فإن ظاهرة الرأى لا تمثل عادة تكييفا للاستجابة القانونية لباعث مثير جديد ، وإنما تمثل رد فعل وصراع واسع الانتشار ضد الأفراد أو الاقتراحات التى تعارض ما يمارسه الناس من عرف أوقواعد قانونية . وهكذا لا نقول إن قانونا يلزم رب البيت بأن يجرف الثلج من «الأفريز» الذى أمام البيت هو ذاته جزء من ظاهرة رأى عام طالما أطاعه الجميع . إنه مجرد ممارسة مشتركة ومقبولة من المواطنين . ولكن مع ذلك إذا أصر أفراد معينون فى جهة مجاورة على عدم إزالة الثلج من الأفاريز متسببين فى مضايقة الجيران وتعريضهم للخطر فقد يحدثون رأيا ينحاز للتعبير عن معارضتهم . ولكى يكون مثل هذا الانحياز مؤثرا فمن الأرجح الإشارة إلى وجود ممارسة مشتركة متوقعة ومقررة كقانون . والقوانين التى تحمى الملكية ليست بذاتها مواقف رأى عام ، ولكن إذا ارتكبت فى خلال زمن قصير عدة سرقات فى جماعة وأفلت المجرمون من العقاب فإن الشرط المحقق لكل مقاييس الرأى قد يبرز سريعا . وظواهر الرأى العام تبدو عندما يرفض الخارجون على الإجماع أن يعاملوا العلم الوطنى باحترام ، وعندما يرفضون ارتداء الثياب أو أن يمتثلوا لغير ذلك من العادات . وأما فيما يختص

بالقوانين التى لم تصدر بعد وإنما ينتظر صدروها فإن الوضع ينعكس . إذ إنها الآن ليست حالة ظواهر رأى عام بادية ضد أولئك الذين يخالفون ممارسة متوقعة أوقانونية ولكنها حالة قانون جديد هو موضوع تأييد أو معارضة تبعا لمطابقته للعمل الأساسى السابق القائم فعلا أو لانتهاكه (أو تعمد اظهاره بهذا المظهر) . ويمكن ضرب مثل على هذه العلاقة باقتراح سن تشريع يحرم السود من التعليم فى مدارس البيض فى مناطق كان يرجح أن يعين السود فى مناصب التعليم بها . هنا كان العمل الأساسى الوراثى للرأى المبتسر المتحيز الخاص بالتفرقة العنصرية استجابة ، وأصبح القانون الجديد المقترح إصداره الباعث المثير المكيف لها .

(ل) العلاقة بالموضوع والنزاع - ظواهر الرأى العام كما رأينا هى تلك التى تنطوى على أهبة العمل من أجل غرض راهن لم يتحقق بعد والوضع العام المثير الذى توجه إليه الاستجابات خطة أو سياسة يحاول كثير من الأفراد بواسطتها أن يحصلوا على ما يريدون ، والأوضاع تبرز غالبا بانحياز الأفراد فى جماعات ذات مصلحة خاصة ، فأعضاء كل جانب يحاولون أن يحصلوا على مايريدون بمعارضة الأفراد المنحازين إلى جماعة معارضة . وآراء الجانبين فى هذه الحالة إنما هى فقط مظاهر أو أعراض لصراع عام أكثر عمقا . وقد تكون تسويغا عقليا لهذا الصراع من أجل أن تكفل تأييد المحايدين ، أو ولاء أقوى من الأنصار فى المسير نحو الغرض الحقيقى الذى له فى الغالب حيوية وطابع (بيولوجى) متسلط أكثر مما للآراء التى يقترحها أنصاره . فمذهب حقوق الولايات مثلا قد استخدم كرمز يتجمع حوله أفراد ذوو مصالح اقتصادية هامة من أنواع مختلفة .

وهنا ندخل حقل الرأى العام وعلاقته بسياسات الضغط وصراعات الطبقات والعمال والمنازعات الاجتماعية من كل نوع . وهنا يصبح ضروريا أن نتخطى رأى الكتاب الذين لا يعنيهم عادة إلا جانب واحد من المسألة موضوع الجدل . لأن الانحياز وحشد توزيع الموقف على جانب واحد لا يكون مفهوما إلا على ضوء اهتمام عميق بالجانب الآخر . وفى نظام الحزبين السياسيين لا تبدو الأهمية الكاملة لكل منهما إلا بالنظر إلى الانحياز إلى الحزب المعارض فالتطورات الشيوعية القوية تعاصر الانحيازات الرأسمالية والفاشية القوية . ويبدو أن كلا من الجانبين يستمد معناه من التناقض مع الجانب الآخر . والفكرة العامة التى

تتصور أن هـذه المذاهب المختلفة تظهر كفلسفات سياسية تكتسب قوة دافعة بواسطة التوعية أثناء انتشارها فكـرة قـاصرة . فهـذه الفلسـفات تمثل تسويغا عقليـا للعـوامـل الأقوى التى تكمن تحتـها . إنهـا المظـاهر الكلامية لمجموع سلوك الأفراد المنحازين إلى الجانبين سـلوكا يتسم بالاتحاد فى الصراع . إنها الجزء الكلامى للخطط التى يستخدمها الأفراد ليحصلوا على ما يريدون فى الصراع . وفى المنازعات الدولية يجب أن نتناول – وبأسلوب مشابه – حقل الرأى العام على نطاق أوسع من نطاق بلد واحد . فيجب أن نفكر فى توزيع السكان فى البلدين (موضوع البحث) لأن التغيرات فى توزيع الموقف فى أحد البلدين ذات علاقة ثابتة يمكن التنبؤ بها بالتغير فى البلد الآخر .

(م) احتمال التأثير – مقياسنا الختامى وهو الخاص بالدرجة الاحتمالية للتأثير هو من وجهة نظر الرقابة أهم المقاييس جميعا . ففى كل حقل الشعب الذى قدمنا نماذج له يحتمل أن توجد اتفاقات بين أفراد يؤيدون أو يعارضون جميع أشكال الأغراض العامة . يختلفون فى العدد وفى قوة الاقتناع وفى الجهد المبذول . وإذا أريد وضع برنامج كامل للبحث فإن يجب أن يشتمل على بيان مرتب بكل هذه الاتفاقات . ومع ذلك فمن وجهة نظر عملية أكثر ربما نكتفى بأن نختار من كل هذا البيان المرتب الانحيازات المعينة التى تهمنا . وفى هذا الاختيار يتبين أن مقياس انتقاء تلك الانحيازات التى تبشر بأنها مؤثرة بدرجة ما ربما يكون أكثر المقاييس المستخدمة فائدة وأكثرها مسايرة للطبيعة . وفى إجراء هذا الاختيار يقع الخطأ أحيانا فى انتقاء الانحياز الذى يبدو أنه أكبر الانحيازات من وجهة نظر عدد الأنصار . وإمعان النظر إلى الأثر المحتمل لانحياز معين ، امعانا أدخل عوامل أخرى فى الحساب إلى جانب عامل عدد الأنصار ، يساعدنا على إجراء انتقاء أفضل . وقد تكون هناك حالات عدة يؤيد فيها قسم كبير من الشعب عملا معينا ، ولكن هذا لا يعنى حتما أن هناك أكبر احتمال لتنفيذ هذا العمل . فتفاوت الشدة أى درجة من درجات الشعور ، أو ممارسة الجهد التى يمارسها الأفراد نحو الغرض العام يجب أيضا أن تراعى . فقد اتضح – مثلا – من استفتاء عام أجرى كاختيار بين جميع طبقات الشعب عن تحديد النسل أن أغلبية جوهرية فى الشعب تؤيده ومع ذلك فإن الإجراء التشريعى الذى يدعمه لم يبد بصفة عامة أنه على وشك أن

يتم ربما لأن الرغبة فيه لم تتوافر لها الشدة الكافية . أى إن الحاجة إلى إعلام عن منع الحمل والرغبة فيه والعون كل ذلك لا يستطيع الفرد نفسه أن يحصل عليه إذا لم يشعر به شعورا حادا أعضاء الغالبية فيقومون بالحث على عمل منظم معارضين لأقلية ليس لديها إلا شعور ضئيل جدا لتأييد الجانب الآخر . وتحقيق النتائج الجماعية يتم بواسطة عدد كاف من الناس يتمسكون بآرائهم ويعبرون عنها . على أن يكون تعبيرهم قويا كافيا أو أن يؤثروا فيها . ويجب أن يتحقق الوضع من أن عددا كافيا من الناس قد تأثر بتلك الآراء تأثرا شديدا كافيا .

وهناك تأثيرات أخرى يجب طبعا التسليم بها للتنبؤ بنتاج الآثار أو لفهمها . ووجود طراز معين من تنظيم يمهد للعمل الجماعى وسهولة استخدام هذا التنظيم أمران هامان . فحضور أفراد ذوى تأثير بارز وقدرة على توجيه العمل عامل آخر . والعامل الثالث هو مدى ما يتلقاه كل فرد من تعزيز للقوى عن طريق شعوره بأن آخرين يقفون موقفه نفسه . وهذا بدوره يتوقف على سهولة وسرعة وحرية الاتصال بين الأفراد . ويجب أيضا أن يحسب حساب الوسائل التى يتمكن المواطنون بواسطتها من أخطار السلطات برغباتهم . كما يجب أن نتذكر أيضا أن العملية التى يصبح الانحياز بواسطتها مؤثرا معقدة بسبب دورية تعزيز القوى . فعندما يزعم - مثلا - محرر ما فى صحيفة أنه يعبر عن «الرأي العام» ، فإنه بذلك يؤثر على السلطات من جهة ويقوى الانحياز بين الشعب من جهة أخرى . والتأثير الأخير يعزز إعلان الموقف إعلانا شعبيا . كما أن من وقعه أيضا أن يزيد ثقة المحرر فى إبراز مقالاته كتعبير عن «الرأى العام» وفى اتخاذ مواقف هجومية .

وهذه العوامل المختلفة من العسير - حقا - فى الوقت الحاضر أن يتم الفصل بينها وأن تقاس . وإحدى مشكلات علم الرأى العام الحديث هو الفصل بينها ودراسة إسهام كل منها فى الأثر الكلى . ويجب أن نعتمد الآن - أمام افتقارنا إلى علم أكثر ثبوتا مما لدينا - على ما ألفناه عمليا مع هذه المواقف المعقدة . ومع ذلك ففى تطبيق مقياس التأثير ليس ضروريا أن ننتظر حتى تظهر نتيجة الأثر . إذ أننا إذا انتظرنا إلى هذا المدى فسوف تفوتنا مظاهر هامة للظاهرة عندما كانت تحدث . كما أنه ليس ضروريا أن نثق من أن الأثر سيقع ، وأن انحياز الرأى الذى نأمله سيلعب دورا مقررا فى إحداث ذلك الأثر . فيكفى عندما نقوم بدراسة الوضع

كله أن يبدو أن هناك احتمالا بأن ذلك الأثر سيحدث ، لا أن حدوثه سيقع مصادفة ، وهذه هى فى الواقع نفس الوسيلة التى يستخدمها الزعماء السياسيون لقياس الأهمية المحتملة لبرامجهم عن الحركات الفكرية الجارية فى مناطقهم . ومع أنهم لا يملكون إلا الاعتماد على هذا الوزن الشخصى للاحتمالات إلا أنهم إذا قبلوا انحيازا فكريا معينا وتصرفوا كما لو أنه سوف يكون مؤثرا فإن استجابات المواطنين أنصار هذا الانحياز يحتمل أن تميل إلى أن تصبح مؤثرة ، أو أكثر تأثيرا مما كانت عليه قبلا . وكما أن الوضع الأصلى للأفراد قد يكون هاما فإننا يجب أيضا أن نعنى بملاحظة الوضع الرقابى بأكمله مع العوامل المؤثرة العديدة التى أشرنا إليها كشكل منسق فى حقل تعددت أشكال أفراده . ولا يمكن غض النظر عن هذه الصورة للمشكلة إذا أردنا أن نتمكن من التنبؤ بالآثار أو حتى من أن نفهمها . وفى لغة علم النفس الحديث الخاص بتداعى الأشياء والأماكن لمساعدة الذاكرة (التوبولوجى) يبدو أننا نعالج خيوطا تمتد إلى البؤرة الرئيسية أومصدر القوة ، وإنما فى حقل اجتماعى .

تعريف وضع الرأى العام

إن مناقشتنا للخيالات وطريقة الأزقة العمى قد أظهرت لنا مكان أهم النقط العميقة . نحاول أن نعثر على موضوع مماثل لتعبير الرأى العام ، أى عندما ننظر إليه ككيان أو مضمون نكتشفه ثم ندرسه ونحلله فإن جهودنا لن يقدر لها إلا نجاح ضئيل . ولكن عندما نميز بهذا التعبير وضعا يتعدد فيه الأفراد أو بعض العلاقات فى مثل هذا الوضع ، ثم نتطرق بعد ذلك إلى هذا الوضع ونبدأ فى دراسة المواد الواضحة التى يمدنا بها . فإنه يمكن الحصول على بعض نتائج قيمة .

ويبرز الآن السؤال الخاص بطبيعة «وضع الرأى العام» هذا وكيف يحتمل التحقق من علاقاته المميزة . وإجابة هذا السؤال توجد فى النقط المتفق عليها اتفاقا عاما التى ناقشناها من قبل . إننا بصدد مواقف مشتملة على ردود فعل من كلمات أو ردود فعل على الكلمات بالنسبة لكثير من الأفراد . وردود الفعل هذه موجهة نحو أوضاع عامة مثيرة تهم الكثيرين وهى تظهر أهمية العمل تأييدا للوضع أواعتراضا عليه ، وللتأثر بوعى الآخرين الذين تصدر منهم ردود الفعل وللتوفيق بين المواقف القديمة والحلول الحاضرة وللاتجاه نحو غرض يختلف عن الحالة الراهنة .

وأن تتصل غالبا بالمعركة التى يتجمع فيها الأنصار ، وأن توحى بامكان أن تكون مؤثرة . وبواسطة استخدام هذه المقاييس نجد على هذا النمط حقيقة وفائدة فكرة الرأى العام حين ننبذ تلك المحاولات المبكرة الرامية إلى تقرير قواعد والتى قادتنا إلى الطريق الخاطىء . لقد استبقينا ظواهر الرأى العام وتحققنا منها واضعين أيدينا فى الوقت نفسه على الحقائق الواضحة التى يمكن التدليل عليها أمامنا وعلى سلوك الأفراد الذى يمكن أن يقاس ويسجل فى شكل توزيعات إحصائية . وكل موضوع البحث قد يوجز فى التقرير التالى المركز والذى قد يكون إلى حد ما أصوليا .

إن تعبير الرأى العام قد أعطى معناه بالنسبة إلى وضع خاص بأفراد عديدين يعبر فيه الأفراد عن أنفسهم ، أو قد يدعون للتعبير عن أنفسهم بالرضى أو التأييد (أو السخط أو المعارضة) ويكون هذا التعبير عن حالة معينة أو عن شخص أو عن اقتراح ذى أهمية واسعة الانتشار فى نسبة من أعداد الناس وبشدة ومثابرة تكفل الاحتمال فى القيام بعمل مؤثر مباشر أو غير مباشر لتحقيق الغرض المعنى .

(٤)

طبيعة الرأى العام
جيمس برايس

ماذا نعنى بالرأى العام ؟ إن الصعوبات التى تعرض فى أثناء مناقشة موضوع الرأى العام تنشأ من خلط الرأى نفسه بالأجهزة أيا كانت التى يحاول الناس بها أن يجمعوا ذلك الرأى ومن استخدام هذا التعبير للإشارة فى بعض الأحيان إلى آراء كل الناس ؛ أى مجموع ما يفكر فيه الناس أو يقولونه عن شأن ما ، وفى أحيان أخرى آراء الغالبية أو طراز معين من التفكير أو الحديث عن هذا الشأن يسود على غيره .

إن أبسط الأشكال التى يبدو فيها الرأى العام هى حين ينطلق شعور ما تلقائيا من شفتى الرجل العادى لدى مشاهدته أمرا ما أو سماعه . وقد أبرز «هوميروس» هذا المعنى بأسلوبه الحى المألوف ملتزما الخط الذى طالما التزمه فى «الإلياذة» كلما أراد أن يعبر عن أثر خطاب أو حادث «وهكذا كان أى شخص يقول وهو يلتفت إلى جاره» فهذه الجملة تصف ما يمكن أن يسمى المرحلة الفطرية للرأى . إنه الأثر المباشر بعد أول لحظة . إنه ما يمكن أن يقوله أى شخص لا كل شخص . أى الفكرة أو الرغبة الطبيعيتان والعامتان اللتان يثيرهما حادث ما .

ولكن قبل أن يبدأ الرأى فى التكون حول حكومة كما يجب أن يمر بمراحل عديدة ، وهذه المراحل تختلف باختلاف العصور والبلاد . ولنحاول أن نشير إلى ما هى عليه هذه المراحل فى انجلترا أو أمريكا فى الوقت الحاضر وكيف تتطور مرحلة إلى أخرى . فإذا قرأ أحد رجال الأعمال فى الصحيفة التى اعتاد قراءتها فى أثناء تناوله الإفطار أن الأمير بسمارك قد أعلن سياسة حماية الصناعة الألمانية ، أو أن مستر هنرى جورج قد عين عمدة لنيويورك فإن هذه الأخبار تثير فى عقله عواطف من الموافقة أو الرفض قد تتراوح بين القوة أو الضعف تبعا لسابق ميله إلى فكرة الحماية الصناعية أو ترشيح مستر هنرى جورج أو سخطة عليها ، وتبعا – بطبيعة الحال – لمصلحته الخاصة فى هذين الأمرين اللذين يثيران فى نفسه أيضا توقعا لبعض ما يحتمل أن يحدث من عواقب معينة . ولكن لا الشعور ولا التوقع قد بنيا على إدراك واع .

فرجل الأعمال فى هذا المثل لم يتسع له الوقت ليحكم عقله فى أثناء الإفطار . بل إنها لا تعدو أن تكون انطباعات تكونت إثر وخز اللحظة الأولى ، ويتجه رجل الأعمال إلى المقالات الرئيسية فى الصحيفة . فتتأكد مشاعره وتوقعاته أو تضعف طبقا لما يجده من مشاركة محرر الصحيفة له فيها أو إنكاره لها ، ثم يذهب إلى مكتبه بالقطار ويتحدث فيه إلى اثنين أو ثلاثة من أصدقائه ، ويتبين أنهم يقرونه على انطباعاته التى لا تزال ضعيفة أو يعارضونه فيها . وفى مكتبه يلتقى بشريكه ، ويجد مجموعة من صحف أخرى يلقى عليها نظرة ، فتزيد كلماتها من التأثير فيه . وهكذا لا يكاد ينقضى الظهر حتى يستقر عقله على وجهة نظر محددة تقرأ وتنكر تصريح الأمير بسمارك أو تعيين مستر جورج ، وفى الوقت نفسه يجرى شىء مشابه فى عقول الآخرين ، وخاصة فى عقول الصحفيين الذين يقتضى عملهم بأن يكتشفوا ما يفكر فيه الناس . فصحيفة المساء تجمع آراء صحف الصباح ، وهى أكثر ثباتا فى إذاعة الخبرين . وفى اليوم التالى تصدر الصحف الرئيسية متضمنه مقالات أكثر وضوحا فى التأييد أو التنديد وفى التنبؤ بالعواقب المتوقعة . وعلى ذلك يبدأ أى عقل من العقول العادية – الذى كان حتى ذلك الوقت مائعًا وغير مستقر – فى التبلور والتماسك . وهذه هى المرحلة الثانية ، وعندئذ تبدأ المناقشات والآراء المعارضة ، فالناس والصحف التى تؤيد تعيين مستر جورج تناقش الذين يعارضونه . ويتضح الأنصار والخصوم ويبدو أثر تعارض الآراء فى نقل الأنصار من كل جانب – بعد أن يثبت ضعف حججهم فى المناقشة – إلى الجانب الآخر الذى يرون أن حججه قوية ، وفى أن يستقر كل فى جانب من الجانبين . وهذه هى المرحلة الثالثة ، أما المرحلة الرابعة فتبدأ حين يتبين أن العمل أصبح واجبا فإذا طلب من المواطن أن يصوت فإنه يصوت كعضو فى حزب . وتحيزه السابق إلى حزبه وولاؤه له يسيطران عليه ويخمدان بصفة عامة كل شك أو نفور يمكن أن يشعر به . وحضور الناخبين إلى صناديق التصويت يشبه مرور جهاز بخارى معد لتمهيد الطرق على صخور وضعت حديثا على الطريق . فالزوايا الناتئة يتم تشذيبها وضغطها ثم يبدو الطريق بعد ذلك أملسًا ، بل متناسقا متشابها كما لم يكن من قبل . وكذلك الناخب إذا صوت فإنه يلتزم بما أبداه من رأى . ولذلك فإن مصلحته فيما بعد أن يؤيد وجهة النظر التى اجتهد أن يبرزها . وبالإضافة إلى ذلك فإن الآراء التى ربما كانت متشعبة حتى التصويت تصبح بعده متحدة بصفة عامة . ولا يبقى رأى انتصر ، ورأى هزم .

وفى دراسة التدرج الذى يتكون الرأى عبره لا يسعنا إلا أن نشير إلى أن الرجل العادى عندما يتوجه للتصويت لا يكون من وجهة النظر التى يؤيدها إلا قدر تافه من صنعه حقا هو نفسه . فالانطباع الأول لدى الناخب عن شأن ما كان هزيلا ، وربما لم يكن له شكل معين . أما ما انتهى إليه هذا الانطباع من تحديد وقوة فيعودان إلى ما سمعه وقرأه . وبذلك عرف فيما يفكر ولم يفكر هكذا ؟ فالحجج قدمت إليه من الخارج والمناقشة غرستها فى عقله . ومع أنه يفرض أن وجهة النظر هذه إنما هى وجهة نظره الخاصة فإنه إنما يتمسك بها الآن لأن أصدقاءه يفعلون ذلك . فكل شخص يؤمن بعبارات معينة ويكررها لأنه يظن أن كل شخص آخر فى جانبه يؤمن بها . وأن قسطا صغيرا منها فحسب هو أصلا من انطباعه الخاص ، وأن الجزء الأكبر منها إنما هو ثمرة الامتزاج والتأثير ورد الفعل المتبادلين لانطباعات جماهير من الأفراد ، وليس عنصر الاقتناع الشخصى المجرد المبنى على التفكير الفردى بينها إلا عنصرا صغيرا . وإذا وقع حادث هام ما يدعو لتكوين رأى فإن العادات المتأصلة من قبل والعقائد وصلات القربى تتعاون فى تحديد الانطباع الذى يعانيه كل شخص . وإلى هذا الحد تصل العوامل فى الرأى الذى يكونه . ولكن هذه العوامل تؤثر بصفة رئيسية فى تحديد الانطباع الأول وهى تحدث ذلك الأثر فى عقول كثيرة . إلا أنها لا تحدث إذ ذاك أثرا متباينا ومستقلا . إذ أن تلك العوامل سرعان ماتتغلب عليها المؤثرات التى يستمدها كل شخص من زملائه ومن رؤسائه ومن الصحافة .

إن النظرية الديموقراطية الصحيحة تزعم أن كل مواطن قد فكر فى بعض الآراء المعينة أو أنه يجب أن يفكر فيها . أى إنه يجب أن يكون له رأى محدد تدعمه الحجج ، فيما يحتاج إليه البلد وعن المبادىء التى يجب تطبيقها فى حكمه وعن الأشخاص الذين يجب أن تسلم إلى أيديهم مقاليد الحكومة . ولكن يكفى أن نحاول تجربة التحدث إلى هذا الممثل للرأى العام الذى يسميه الأمريكيون «الرجل فى السيارات العامة» . لكى نتبين كم تتشابه الآراء بين جميع طبقات الشعب وكم تندر الآراء التى تتسم بالاستقلال التى كان يجب توافرها لدى كل فرد إذا كان حقا كونها لنفسه . وكم تعز الصلابة كما يعز المضمون فى العقائد السياسية أو الاجتماعية لدى تسعة عشر شخصا من كل عشرين . فهذه العقائد إذا ما حللت تتقلص عن رأيين أو ثلاثة آراء مبتسرة متحيزة وعن موقفين أو ثلاثة

ربطت المواطن من قبل بولاءلزعيم معين أو حزب أو فريق من حزب ، وعن جملتين أو عبارتين مكررتين أو ثلاث تقترح أو تتضمن حججا لم يعن الرجل الذى يكررها بتحليلها ولا يرجع ذلك إلى عجز هؤلاء التسعة عشر عن تقدير الحجج الطيبة أو إلى عدم رغبتهم فى الاستماع إليها . بل بالعكس - وهذا يصدق بخاصة على الطبقات العاملة - فإن الجماهير يسرها أن توجه إليها الحجج الدامغة والناس يستمتعون بقراءة المقالات أو المنشورات التى تتضمن الحقائق المنتقاه بعناية والرأى الصحيح مفترضين أنها كتبت ببراعة . ولكن المسائل العامة تأتى فى المرتبة الثالثة أو الرابعة من شئون الحياة فى نظر الغالبية العظمى للناس فى كل مكان . وهى تحظى بأقل من ثلث أو ربع وقت الفراغ المتاح للتفكير . ولذلك فإن الجماهير إنما تستطيع أن تسهم بالعاطفة أكثر من إسهامها بالتفكير . عاطفة مبنية على قليل من الاعتبارات العريضة وقدر بسيط من الإدراك . وستصقل عاطفتهم وتسمو إذا انحازوا إلى جانب العدل والشرف والسلم أكثر مما لو حكموا العقل فى انتقاء الحقائق المتشعبة التى تلقى أمامهم واستخلاص النتائج السليمة منها .

وقد يعترض بأن هذا التحليل إذا صح عن انصاف المتعلمين فإنه لا يصح عن الطبقات المتعلمة . كما أنه لا يصح عن تلك الطبقة الصغيرة التى تهتم فى أوروبا اهتماماً خاصاً بالسياسة والتى - سواء فكرت تفكيرا سليما أو سيئا - فإنها بلا شك تفكر ، ولكن هذا التحليل لا يقل انطباقه الجوهرى على طبقات التجار والمهنيين عن انطباقه على الطبقات العاملة ، إذ أنه فى الأولى كما فى الثانية لا نكاد نجد بضعة أشخاص يكلفون أنفسهم المشقة أو يجدون الوقت أو لديهم حقا الإدراك لكى يتمكنوا من تكوين حكم مستقل . والفارق الرئيسى بين ما تسمى الطبقة العليا . أو الأكثر ثراء والطبقة الأكثر تواضعامن المجتمع هو أن الأولى أقل تأثرا بالعاطفة ، وربما أكثر تأثرا بالبيانات الخاصة بمصالحها وهى بيانات خاطئة فى الغالب . فإذا تعرضت للخسارة فإنها تتخيل أخطارا تهدد أموالها أو نفوذ الطبقة التى تنتمى إليها . ولأن أفرادها يعيشون فى مجتمع أكثر تكلفا فإن ميولهم أقل استعدادا للإثارة . وهم أكثر ميلا إلى السخرية وعدم الإيمان بالمثل الاصلاحية وهو أمر طبيعى بالنسبة لأولئك الذين يعيشون حياة ملأى بالوهم والتمسك بالتقاليد .

والتناقض الواضح يبدو فى أنه بينما تختلف الطبقات الأكثر تواضعا فى آرائها عن الطبقات الأعلى ، فإن تلك الطبقات المتواضعة قد أثبتت غالبا أنها فى جانب الصواب وإن الخطأ الذى يقعون فيه ويسمى خطأ الأفاضل قد يفسر إذا راعينا أن البيانات التاريخية والعلمية التى يعتمد عليها حل مشكلة سياسية عسيرة يتساوى فى معرفة القليل عنها الأثرياء والفقراء ، وهى حقيقة أبرزتها التجربة فى كثير من البلاد الأوروبية إبرازا كافيا أثناء نصف القرن الأخير . فالتعليم العادى ، وحتى ذلك النوع من التعليم الذى يتمثل فى درجة جامعية لا يؤهل شخصا لكى يعالج هذه المسائل ، وأحيانا يملأه بغرور لا جدوى منه عن أهليته الخاصة يوصد عقله عن الحجج وعن الحقائق . ولا شك أن التعليم يجب أن ينير بصيرة الشخص ، ولكن الطبقات المتعلمة بصفة عامة هى الطبقات التى تملك الثروات . وحيازة الأموال تعمل على جعل الشخص جبانا أكثر مما يعمل التعليم على جعل الرجل مستبشراً . فهو أميل إلى الاستهانة بقوة العاطفة وقدرها وهو يغالى فى تقويم القيود التى تفرضها النظم القائمة ، ولا يشعر إلا بتقدير تافه لما للحرية من قوة إصلاحية وللاتجاه إلى استقامة الأمور إذا ترك للناس أن يديروا شئونهم بأنفسهم ، وأن يتعلموا من الخيبة كيف يحققون النجاح . والشخص الأقل حظا من التعليم يتحقق بطريقة ما تعوضه عن الافتقار إلى العلم بفضل ما وهبه من بساطة معينة وتفتح ذهن . فهو أميل إلى التأثر بنفوذ الزعماء ولكنه - بصفة عامة - على الأقل فى انجلترا وأمريكا - ذكى ذكاء لكى يميز بين رجل عظيم ومشعوذ جماهيرى . فهو يكسب أكثر مما خسر .

إن كل القضايا السياسية والاجتماعية الكبرى تقريبا قد شقت طريقها وسط الطبقات المتوسطة أو الأكثر تواضعا ، فالباعث الأصلى الذى دفع القضية إلى الحركة والأفكار الموحية التى جذبت الناس إليها ثمرة عقول ناضجة ثاقبة ، وهى بصفة عامة عقول الطبقة المثقفة . ولكن المبادىء والفروض التى أطلقتها هذه العقول قد انتشرت بقوة ، لأن عامة الناس تلقوها فرحين فى حين أن الطبقات الثرية المتعلمة تجهموا لها ، بل واضطهدوها وأروع الأمثلة على كل ذلك يوجد فى فجر تاريخ المسيحية .

ومع ذلك فإن التحليل الذى حاولت أن أعطيه للرأى ينطبق فقط على التسعة عشر شخصا من العشرين شخصا لا على الشخص العشرين ، إنه ينطبق على ما

يجوز أن يسمى الرأى السلبى . رأى أولئك الذين ليست لهم مصلحة خاصة فى السياسة ، ولا شأن لهم بها بعد الإدلاء بأصواتهم . أولئك الذين يتلقون الأراء عن الشئون العامة ويروجون لها لكونها لا تصدر عنهم . أو – لكى تعبر عن نفس المعنى بكلمات أخرى – كنا نبحث كيف ينمو الرأى العام وينتشر تلقائيا وطبيعيا . ولكن الرأى لا يقتصر على مجرد النمو ، بل إنه «يصنع أيضا» ولا يقتصر الأمر على الطبقة السلبية من الناس . فهناك الطبقة الإيجابية التى يهتم أفرادها اهتماما رئيسيا بالشئون العامة والذين يتطلعون إلى خلق الرأى وقيادته . والطريقة التى يتبعها هؤلاء المرشدون معروفة معرفة تغنى عن الوصف . ومع ذلك فهناك نقطة أو اثنتان تجب الإشارة إليهما لكى نقدر أثر انعكاس الطبقة السلبية على الطبقة الإيجابية .

إن الشخص الذى يحاول أن يقود الرأى العام ، سواء كان سياسيا أو صحفيا أو محاضرا إذا ما أراد أن يصدر حكما على أية حادثة جارية فإنه يتبين فى نفسه قدرا من التحيز الشخصى وما يمكن أن يسمى نظرية سياسية أو مذهبا سياسيا أكبر من القدر الذى يتبينه المواطن العادى . ولذلك فإن وجهة نظره تنطوى على فردية أكثر وعلى قيمة ذهنية أكبر . ومن جهة أخرى فإن لديه واعزاً أقوى مما لدى المواطن العادى على الاحتفاظ بصلات طيبة مع أصدقائه وحزبه ، لأنه انعزل ودافع عن وجهات نظر خاصة به فربما يفقد نفوذه ومركزه ، إن وراءه ماضيا ويمنعه الخوف من أن يبدو متقلبا ، من أن يعدل عما سبق أن قاله ، وأمامه مستقبل يرهب أن يسىء إليه بالانفصال عن حزبه ولو انفصالا صغيرا . ولذلك فهو مسوق إلى أن يوائم بنفس الطريقة بين اتجاهاته الشخصية والاتجاه العام الذى يتخذه المواطن العادى ولكنه يفعل ذلك بوعى أكبر متبينا تبينا أدق لمراحل الفرق بين ما يفكر فيه أو يقوله أو يفعله . لو ترك وشأنه وما يقوله ويفعله كسياسى لا يستطيع أن يكون نافعا وناجحا إلا كعضو فى هيئة من الناس ، يعملون معا ويحترفون تفكيرا متشابها .

وتبعا لذلك ، ومع أن القسط الأكبر من العمل الخاص بتكوين الرأى يزاوله هؤلاء الناس الذين لا أدعوهم ساسة محترفين لأن كثيرا منهم فى أوروبا لا يقتصر اهتمامهم على السياسة فى حين يقصر وصف المحترفين على طبقة أخرى – فلا يجب أن ننسى رد الفعل المستمر الذى يقع عليهم من الغالبية السلبية . وفى بعض الأحيان

يلتزم أحد الساسة أو أحد الصحفيين خطا يتبين أن غالبية من يقرونه عادة على مواقفه لا يتجاوبون معه فى التزامه . فيدرك أنهم لن يتبعونه وأنه يجب أن يختار بين العزلة وتعديل آرائه الخاصة . وقد يجازف سياسى فى الحالة السابقة فيوفق فى حالات نادرة جدا إلى فرض إرادته وحكمه الخاصين على حزبه . أما الصحفى فإنه يضطر إلى أن يعود على أعقابه إذا كان قد اتخذ غفلة موقفا لم يرض قراءه لأن أصحاب الصحيفة يهتمون بتوزيعها ، ولكى يتفادى مثل هذا الاختيار السىء فإن السياسى أو الصحفى يتنبهان عادة إلى جس نبض الرأى العام قبل أن يلتزم أيهما باتجاه جديد فيحاول أن يشعر بهذا النبض لدى غالبية المواطنين العاديين . وتبدو دقة هذا الوضع لأن هذه الغالبية من جهة أخرى تتطلع إليه لكى تتلقى منه البدء بالتوجيه . وفى البلاد الأوروبية تتغلب وجهة نظر الزعماء بصفة عامة ، ولكنها تعدل وفقا للصورة التى تتلقاها بها الجماهير فتصبح النقط التى تقدرها هذه الجماهير أكثر بروزا ووضوحا ، فى حين تتراجع النقط التى لم تحظ بالرضاء الشعبى متوارية فى الظل .

إن التفاعل ورد الفعل المتبادلين اللذين يمارسهما صانعوا الرأى أو قادته على الجماهير واللذين تمارسهما الجماهير عليهم هو أعجب جزء من أجزاء العملية التى يتم عن طريقها إنتاج الرأى . كما أن فى هذا الجزء أيضا يبدو الفارق الأكبر بين بلاد حرة وغيرها . ففى بعض البلاد يسهم الزعماء مثلا فى ثلاثة أرباع هذا الانتاج ويقتصر إسهام الجماهير على ربع الإنتاج . وفى بلاد أخرى تنعكس هذه النسب . وفى بعض البلاد لا يقتصر الأمر على هبوط مستوى التعليم لدى جماهير الناخبين هبوطا ملحوظا عن مستواه لدى القلة الذين يتولون الزعامة ، بل يتعداه إلى أن تلك الجماهير تعوزها الثقة بالنفس وهى أميل إلى الاعتماد على زعمائها ، وفى بلاد أخرى تضيق شقة الفارق فى المستوى الذهنى بين الذين يشتغلون بالسياسة ومتوسط الناخبين . وقد لا يكون الزعيم فى هذه الحالة رجلا متعلما تعليما طيبا كالوضع فى البلد الذى أشير إليه أولا ، وقد يكون متوسط الناخبين أفضل تعلما وأكثر ثقة بالنفس . وحيث تتوافق كلتا هاتين الظاهرتين ، أى أن يكون الفارق فى المستوى ضئيلا فإن الرأى العام سيصبح مختلفا اختلافا واضحا عنه فى البلاد التى وإن صارت دساتيرها ديموقراطية ، فإن عادات شعوبها ظلت أريستوقراطية وهذا هو الفارق بين أمريكا وبلاد أوروبا الغربية .

الحكومة بالرأى العام*

إننا نتحدث عن الرأى العام كقوة جديدة فى العالم لم تبد للعيان إلا منذ بدأت الحكومات فى أن تصبح شعبية . وكان الساسة حتى وقت قريب منذ جيلين ينظرون إليه ببعض الشك والسخط . فسير روبرت بيل مثلا فى خطاب مكتوب فى عام ١٨٢٠ يتحدث كما لو قد اكتشف ذلك الخليط الكبير - من الجنون والضعف والتحيز والشعور الخاطىء والشعور الصحيح والعناد وفقرات الصحف - الذى يسمى رأيا عاماً» .

ومع ذلك فإن الرأى كان حقا القوة الرئيسية والعليا فى كل الشعوب تقريبا وعلى مدى كل العصور تقريبا . ولا أعنى مجرد رأى الطبقة التى ينتمى إليها الزعماء . فمن المعروف أن حكومة القلة «الأوليجارشى» فى البندقية كانت متأثرة برأى النبلاء البنادقة ، كما أن القيصر المطلق السلطة متأثر برأى بلاطه وجيشه ، وإنما أعنى رأى جماهير الناس الذى لا يعبر عنه بالقول ويجول فى العقل الباطن ، ولكنه مع ذلك صادق وقوى . إن الحكومات قد اعتمدت دائما - إلا فى حالات خاصة - ويجب أن تعتمد إن لم يكن على حب الغالبية العددية فعلى احترامها وهيبتها . وإن لم يكن على موافقتها الإيجابية فعلى رضائها الضمنى . ولم يستطع ملك أو حكومة من حكومات القلة «الأوليجارشى» أن تحتفظ بالسلطة ضد إرادة الشعب إلا فى حالات استثنائية نادرة ، وحكم الفرد المطلق فى الشرق وإن بدأ عادة عن طريق الغزو ،فإنه لم يبق بالقوة العسكرية ولكن برضاء الشعب . وهذا ما حدث للملكيات الإقطاعية فى أوروبا خلال القرون الوسطى . كما أن هذا ما حدث لحكم السلطان العثمانى (على الأقل بالنسبة لرعاياه المسلمين) وللشاه وللامبراطور الصينى . أما الحالات المضادة فهى بصفة رئيسية تتمثل فى نظم الحكم الاستبدادية العسكرية . كتلك التى قامت فى كثير من المدن اليونانية فى التاريخ القديم وفى بعض المدن الإيطالية فى أثناء عصر النهضة ، وكما يحدث الآن فى بعض ما يسمى جمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية ، وحتى الامبراطورية الرومانية . ذلك الابن البكر للحرب والغزو لم تعتمد على القوة بل اعتمدت على رضاء مواطنيها وهدوئهم ، وهذا يبدو من صغر جيوشها التى كانت كلها تقريبا تستخدم ضد الأعداء على الحدود ، لأنه نادرا ما نشبت أية ثورات داخلية أو قلاقل يخشى منها . إن الإيمان بالسلطة وحب النظام المستقر هما من

أشد القوى فى الطبيعة البشرية ، وبالتالى فى السياسة . فالأول يدعم الحكومات الشرعية والثانى يدعم الحكومات التى تستند إلى حكم الواقع ، وهما يأتلفان ليدعما الحكومات التى تستند إلى حكم القانون والواقع معا . ، وحيث لا يرضى المواطنون فإن سخطهم قد يبدو ربما فى النكات التى لطفت من استبداد لويس الخامس عشر فى فرنسا . وربما فى العطف على قطاع الطريق مثل «روبين هود» وربما فى حركات التمرد التى تنشب بين وقت وآخر ، كتلك التى نشبت فى القسطنطينية فى أثناء حكم الأباطرة الشرقيين . وحيث لم يتعود الشعب أن يتجمع ليقاوم فإن السخط بطبيعة الحال قد يستمر زمنا ما دون أن تعبر هذه الوسيلة الثالثة – أى حركات التمرد – عن نفسها . ولكن حتى لو لم يكن الجالس على العرش محبوبا فإن العرش كنظام لا يكون معرضا للخطر مادام قد استطاع أن يفرض احترام الجماهير له وأن يبدو جديرا بواجباته .

إن الرأى العام فى الأشكال المبكرة أو البسيطة للمجتمعات السياسية يكون سلبيا . فهو أميل إلى الرضى بالسلطة القائمة منه إلى تأييدها مهما تكن أخطاؤها . لأنه لا يعرف ما هو أفضل منها ولأنه لا يرى وسيلة للإصلاح . ولأنه قد يكون مبالغا فى خشية نوع من الجزاء الدينى . إن الطبيعة البشرية يجب أن تلتمس شيئا له الاحترام ، ولأن الحاكم بمنأى عن الشعب ، وقوى تحيطه الأبهة والعظمة ، فإنه يبدو غامضاً ونصف مقدس . ولا يمكن تصور حكم أسوأ من حكم تركيا الآسيوية وإيران فى القرن التاسع عشر ، ولكن الشعب لم يبد علامات السخط عليه . إن رعايا «دارا» ورعايا «تيبو» أطاعوا كأن الطاعة أمر لابد منه . لم يتساءلوا لم أطاعوا واكتفو بعادة الطاعة . وكأن فى إمكانهم مع ذلك إذا سخطوا أن يقلبوا العرش الذى لم يكن لديه فى كلتا الحالتين إلا قوة ضئيلة من الحرس لحمايته . وعلى مدى عصور طويلة لم يسأل العقل البشرى نفسه – وهو لا يسأل نفسه حتى الآن فى أنحاء كثيرة من العالم – الأسئلة التى تبدو لنا من أكثر الأسئلة وضوحا . والعادة كما قال «بيندار»ملك يسود الأحياء والأموات . والعادة هى التى فرضت الطاعة . وعندما يصبح الرأى العام فى أى مجتمع واعيا ، عندما يبدأ فى أن يتبين قوته ويناقش حقوق حكامه ، فإن هذا المجتمع يكون فى طريق التقدم . وسرعان ما يجد الوسائل لتنظيم المقاومة وفرض الإصلاح ، ولذلك فإن الفرق بين البلاد التى تحكم حكما غير سياسى والبلاد الحرة لا يتمثل فى أن

الأخيرة يحكمها الرأي العام والأولى تحكم بالقوة ، لأنها جميعا يحكمها الرأى العام . وإنما يتمثل أكثر فى أن الشعب فى الأولى يطيع سلطة لا يدرك أنها حقا من صنعه ، وأنها تقوم برخصة منه ، بينما فى الثانية يشعر الشعب بسيادته ويعامل حكامه واعيا أنهم وكلاء عنه ويطيع الحكام سلطة الشعب التى يقرون بأنها هى التى أوصلتهم إلى الحكم وأنها قادرة على أن تقصيهم عنه . وفى كلتا الحالتين يندر أن يكون الالتجاء إلى القوة ضروريا . وإذا احتاج الأمر إليها فإنما يكون ذلك ضد جماعات صغيرة فقط . لأن عادة الطاعة تحل محلها ، أن المصادمات والثورات تحدث فى مرحلة الانتقال عندما يأخذ الشعب فى اليقظة والإحساس بأنه حقا السلطة العليا فى الدولة ، ولكن عندما لا يتنبه الحكام بعد إلى أن سلطتهم إنما استمدوها من مجرد الوكالة عن الشعب . وإذا ما تلاشت الخرافة وعادة الخضوع من عقول الذين كانوا رعايا خاضعين ، وإذا ما تبين الحكام أنهم ليسوا أكثر من وكلاء عن المواطنين واكتسبوا بدورهم عادة إطاعة هؤلاء المواطنين ، فإن الرأى العام يصبح عندئذ المدير الفعلى والمشرف على عمل لم يكن فيه من قبل إلا الشريك «النائم» والمنسى بصفة عامة ، ولكن حتى بعد الوصول إلى هذه المرحلة كما حدث فى معظم الدول المتمدينة فإن هناك فروقا فى الدرجة والشكل اللذين يؤكد بهما الرأى العام سطوته . ففى بعض البلاد تبلغ عادة طاعة الحكام والموظفين من القوة إلى حد أن الشعب بمجرد اختيار الهيئة التشريعيةأو رئيس الهيئة التنفيذية الذى يتولى تعيين الموظفين ، فإنه يسمح لهؤلاء الموظفين بقدر كبير من السلطة . كما كان يحدث فى عصور الاستبداد . ومثل هذا الشعب يشعر نحو الحكومة كحكومة باحترام عميق وبإحجام – يعود إلى اعتبار نظرى أو إلى مجرد الكسل وربما إليهما معا – عن التدخل فى عملها . وهم يقولون «هذا من شأن الحكومة» لا دخل لنا فيه وينأون بقدر الامكان جانبا أو يتقدمون بالطلب فى تواضع كما لو أن الحكومة لم تكن ثمرة إرادتهم . وربما يسلمون أنفسهم – كما فعل الألمان فى عصر بسمارك – إلى يدى ملك مبجل أو وزير قوى مطلقين يد هؤلاء الحكام ما دامت سياستهم تجرى وفق إحساس الأمة وتحرص على مجدها . وربما يتنازلون – فى أثناء تغييرهم المتكرر لوزاراتهم مع ذلك لكل وزارة وللموظفين التابعين لهما فى كل أنحاء البلاد – عن سلطة ضخمة ما دامت قائمة تحكم تصرفات الفرد المواطن إلى حد كبير . وهذا يبدو أنه لا

يزال مطبقا فى فرنسا ، وهناك بلاد أخرى وإن حدد القانون فيها تحديداً صارماً نفوذ الحكومة ، ولم ينحن المواطن العادى فيها أمام الموظف إلا قليلا ، فإن العادة قد جرت فيها على أن تراقب الهيئة التشريعية غالبا أعمال الوزارة ، ولا تستعرض تصرفات الهيئة التشريعية والوزارة معا إلا بعد فترات طويلة عندما يجرى انتخاب الهيئة التشريعية . وهذا ما كان مطبقا ولا يزال إلى حد ما مطبقا فى بريطانيا . فمع أن الشعب يحكم إلا أنه لا يحكم مباشرة ولكن عن طريق مجلس العموم الذى ينتخبونه مرة كل أربع أو خمس سنوات والذى قد يمثل فى أية لحظة إرادة الأمة السابقة أكثر من تمثيله لإرادتها الحاضرة .

وإنى أقدم هذه الملاحظات بغرض الإشارة إلى شكل آخر من أشكال الحكم قد يمارسه الشعب . فقد ميزنا بين ثلاث مراحل لتطور الرأى من حالته اللاواعية السلبية إلى حالته الواعية الإيجابية ففى الحالة الأولى يذعن لإرادة الحاكم الذى اعتاد أن يطيعه . وفى الحالة الثانية تنشب المصادمات بين الشخص الحاكم أو الطبقة الحاكمة بتأييد من أولئك الذين لا يزالون على استعداد للطاعة فى جانب ، وذوى الروح الأكثر استقلالا أو أكثر تقدما فى الجانب الآخر . وهذه المصادمات يحسمها السلاح ، وفى المرحلة الثالثة يكون الحاكم السابق قد خضع وأحيلت المنازعات إلى الشعب صاحب السيادة الذى يعبر عن إرادته فى فترات على بطاقات من الورق تودع الصناديق ، ويتولى تنفيذها الوزير أو الهيئة التشريعية التى صدرت لها وكالة الشعب ، ويمكن الوصول إلى مرحلة رابعة إذا أصبح من الممكن التحقق من إرادة غالبية المواطنين فى أى وقت دون الحاجة إلى التماس هذه الإرادة عن طريق هيئة من ممثلى الشعب ، وربما حتى دون الحاجة إلى نظام تصويت على الإطلاق . ففى مثل هذا الوضع تكون سيطرة الرأى العام قد أصبحت كاملة لأن الرأى العام فى هذه الحالة ، وهو أكثر استمرارًا مما هو فى تلك البلاد الأوروبية مثل فرنسا وإيطاليا وبريطانيا . وينظر غالبا إلى البرلمانات كبينات عن الشعور الوطنى .

وهنا تظل السلطة طول الوقت فى أيدى جماهير المواطنين . وتكون الحكومة الشعبية فى هذه الحالة قد انطلقت متقدمة إلى حد الاستغناء عن الأشكال القانونية التى تعبر بها الغالبية عن إرادتها فى غرف الانتخاب أو إلى حد سبق هذه الأشكال القانونية . وهذه الرقابة غير القانونية ولكن المباشرة التى تمارسها

الجماهير تبخس من أهمية تلك الإجراءات القانونية التى تتم بين وقت وآخر فى أثناء انتخاب ممثلى الشعب إن لم تحل محلها . وفى هذه الحالة يكون التعبير «حكم الرأى العام» منطبقا أتم الانطباق لأن الرأى العام هنا لا يسود فقط بل يحكم .

والصعوبات الآلية - كما يحتمل أن تسمى - فى ممارسة مثل هذا الطراز من الحكومة واضحة . ولكن ما أود أن أوضحه هو أنه حتى حيث يفتقر إلى اختراع الوسيلة التى توزن أو تقاس بها الإرادة الشعبية من أسبوع لأسبوع أو من شهر لشهر ، وحيث لا يبدو احتمال اختراعها فإن الحكام سواء كانوا وزراء أو مشرعين ربما يميلون إلى أن يتصرفوا كما لو أن الوسيلة موجودة أى أنهم يتطلعون بلا انقطاع إلى مظاهر الرأى العام الجارية ويصوغون تصرفاتهم طبقا لما يستشفونه من هذه المظاهر . وهذا الميل تصحبه غفلة دائمة من جماهير المواطنين عن الشئون العامة وشعور لديهم بأنهم الحكام الحقيقيون ، وأن وكلاءهم أعضاء الهيئة التنفيذية أو المشرعين إنما هم خدم أكثر منهم وكلاء . وحيث يقوم هذا الوضع : الشعب فى جانب والأشخاص الذين يمارسون الحكم فعلا فى جانب آخر ، يمكن أن يقال حقا بوجود نوع من الحكومة تختلف ماديا إن لم يكن قانونيا عن النظاك التمثيلى ، كما بدا للمفكرين الأوروبيين ورجال السياسة فى الجيل الماضى . وإلى هذا النوع من الحكومة يلوح أن الأمم الديموقراطية تتجه .

إن تفوق الحكومة الشعبية لا ينبع من حكمتها - إذ أنها عرضة للخطأ كغيرها من أنواع الحكومات - بقدر ما ينبع من قوتها . فقد قورنت منذ «سير وليم تمبل» بالهرم وهو المبنى الذى يستند على أقوى القواعد . فلا يمكن أن يلائم أحد على إطاعتها . ولا استئناف لقراراتها . فالمبدأ الذى يقضى بأن إرادة الغالبية التى يمكن التحقق منها بأمانة يجب أن تسود بمجرد أن يتشربه عقل أمه ما ، وتتكون منه عاداتها فإن هذه الأمة لا تكتسب استقرارًا فحسب ، وإنما قوة مؤثرة ضخمة . فلا تحتاج إلى خشية المناقشة والإثارة ، وتستطيع أن توجه كل مواردها إلى تحقيق غاياتها الجماعية . ويختفى الاحتكاك الذى يحدث فى البلاد التى انتقلت القوانين والنظم التى تتعارض مع إحساسات ورغبات الشعب فيها من الأجيال السابقة . فقد عثر على مفتاح كفيل بإغلاق كل باب .

ومن جهة أخرى فإن مثل هذه الحكومة معرضة لخطرين : أولهما وأصغرهما ومع ذلك فإنه يكون أحيانا أكثرهما مشقة ، هو صعوبة التحقق من إرادة الغالبية . ولا أقصد صعوبة جمع كل المواطنين للتصويت ، إذ يجب التسليم بأن من لايصوت يترك إرادته بين أيدى من يصوتون . ولكن صعوبة الحصول بواسطة أية وسيلة أمكن الاهتداء إليها حتى الآن على بيان صادق تماما عن نتائج التصويت ، فحيث تكون البرامج مثقلة منطوية على مصالح ضخمة لأفراد أو لجماعات يكون خطر الرشوة والضغط بل والتزوير فى أخذ الأصوات وحسابها خطرا شديدا . . والخطر الآخر هو أن الأقلية قد لا تدعم مركزها . فإذا أخطأت الغالبية فإن العلاج الوحيد ضد استمرار خطئها أو تكراره هو احتجاجات الأقلية المستمرة وتحركها حركة يجب أن يقودها - سلميا - الصوت والقلم . ولكن يجب أن تكون من العنف بحيث تستفز الشعب وتخلصه من عواقب أخطائه . ولكن كلما تكامل نفوذ الغالبية ضعف استعداد الأقلية للمثابرة فى هذا النضال . فهى تفقد الإيمان فى قضيتها ، وفى نفسها ، وتسمح لصيحات الانتصار التى يطلقها خصومها بأن تسكت صوتها . كيف يذعن الناس توا وبولاء لقرار الغالبية ، ومع ذلك يستمرون فى التنديد به ؟ كيف يمكن أن يكونوا فى نفس الوقت صاغرين ومتمردين ؟ إن ذلك الغرور الذى يسكر ملكا مطلقا زهوا بفضله وعظمته هو الذى يحدق أيضا بشعب ذى سيادة . فالبذخ الذى يتقرب به الوزراء من حاكم شرقى مستبد قد يعود إلى الظهور فى تصرفات ساسة إحدى الديموقراطيات الغربية . ولذلك فإن واجب السياسى الوطنى فى بلد يحكمه الرأى العام قد يكون فى أن يقاوم ويقوم أكثر من أن يشجع الشعور السائد . فلا يقنع بأن يحاول أن يكون هذا الشعور ويصوغه ويقوده ، بل أن يواجهه ويتحدث إليه ، ويذكره بأنه ليس معصوما وأن يوقظه من غفلته . ولسوء الحظ فإن الشجاعة والاستقلال فى الرأى العام نباتات لا تنمو فى أرض مشبعة بالإيمان بحكمة الغالبية . كما أن الساسة لم يهتدوا إلى أى فن يمكن عن طريقه تغذية هذه النباتات لإنمائها .

ومع ذلك فإن التجربة قد كشفت عن خطط للإقلال من الأخطار الناجمة من سيطرة طراز معين من مجموعة آراء . وإحدى هذه الخطط أن يحد الشعب نفسه من سلطاته ، بمعنى أن يحيط عمله وعمل وكلائه بقيود خاصة بالفترة التى يزاول فيها تلك السلطات والوسيلة التى يزاولها بها ، بحيث تحمل بعض القيود على التريث ،

والخطط الأخرى - وهى خاصة بالشعب أيضا - أن يوزع الاختصاصات على كثير من الوكلاء بحيث إذا اختير أحدهم اختيارا طائشا ، أو إذا بالغ فى ممارسة واجبات وكالته فإنه لا يستطيع أن يلحق أذى كبيرا وبحيث قد يكون اختلاف الآراء التى تصدر عن العدد الكبير من الوكلاء كفيلا باسترعاء انتباه المواطنين .

إن مزاج شعب ما وطبيعته قد يوفران ضمانات أكثر قيمة . فالبلد الذى صنع لنفسه حكومة حرة حقيقية إنما فعل ذلك بفضل شخصية أبنائه القوية . ومثل هذه الشخصية لا تستسلم سريعا حتى لضغط الأوضاع الديموقراطية . وفى أمة ذات إحساس معنوى مرهف واحتمال للانفعالات القوية يكون الرأى المبنى على حب ما يعد حقا أو طيبا كفيلابمقاومة الجماهير إذا انحرفت إلى الشر . وإذا كان هناك فارق كبير فى الأحوال الاجتماعية وصور الحياة والمعتقدات الدينية فإنها ستدعم مراكز المقاومة للاتجاه السائد كالصخور التى تعترض مجرى النهر قد يتعلق بها من يجرفه التيار إلى أسفل . ويمكن سرد الأمثلة حتى من بلاد كانت كل مصادر القوة فى قبضة غالبيتها - القوة المادية والتقاليد كل شىء ولكن فى نطاق معتقدات وأفكار متحيزة مبتسرة عامة تشترك فى اعتناقها الطبقات الدنيا والعليا - انتصرت فيها أقليات صغيرة أولا بإثارة الفزع ، ثم بتغيير رأى الغالبية وإقناعها . وقد تم ذلك بفضل تلك الشدة التى تلاحظ غالبا فى إيمان طائفة أو جماعة صغيرة . لا لأنها صغيرة . ولكن لأن إيمانها لو لم يكن شديدا لما جرؤت على مقاومة الجماهير المضادة ويتحول الأمر على المدى الطويل بفضل حيوية كل فرد فى الأقلية إلى مباراة مع غالبية وإن كانت أضخم إلا أنها لم تفطر على الحيوية . وفى بلد حر بوجه أخص يستطيع عشرة من الرجال المؤمنين أن يكونوا أنداداً لمائة من غير المؤمنين .

إن مثل هذه الموازنات الطبيعية تحدث فى العالم الروحى كما تحدث فى العالم المعنوى وتحفظ الاثنين معا . ولكنها موازنات لا يمكن للسياسى العملى أن يعتمد عليها أمنا لأنها جزئية ، ولأنها لا يمكن التأكد منها ، ولأنها يحتمل أن تتجه إلى التلاشى مع تقدم الديموقراطية . وكلما طال الوقت الذى يحكم فيه الرأى العام زاد احتمال إطلاق سلطة الغالبية . وقل احتمال تحرك الأقليات النشطة ، وقوى احتمال اهتمام الساسة باكتشاف الرأى العام والمبادرة إلى إطاعته لا بتكوينه .

(٥)

الجماهير والرأى العام والمصالح العامة
هارولد لاسويل وابراهام كابلان

تعريف : «الجماعة» – هى مجموعة منظمة من الناس . و «الجمعية» هى جماعة منظمة تنظيما دقيقا . و«الطائفة» هى هيئة ذات تنظيم أدنى .

والمجموعة من الناس التى يتعاون كل فرد فيها مع الآخر تعاونا آليا لا تكون «جماعة» كما لا تعد جماعة إذا تكونت بمجرد الاشتراك فى توقع آمال متبادلة . ولا تتكون «جماعة» حتى إذا تبادل كل فرد من أفراد مجموعة من الناس التحقق من معرفة الآخر إذا لم يتوافر لها أشكال كاملة مختلفة للعمل . فالعمال المهرة مثلا قد يتعارفون ، ولكنهم لا يكونون «جماعة» إلا بعد أن تتكامل أعمالهم على أساس ذلك التعارف الوثيق .

والجماعات قد تبدى طبعا قدرا متفاوتا من التعاون والتضامن بشرط أن يكون كلاهما قد وصل إلى درجة معينة من النضج . فقد يكون تنظيم الجماعة مفككا من جهة اتساع مدى المصالح المشتركة والإيمان بمبادئها والولاء لها . وقد تكون الجماعة منظمة تنظيما دقيقا لتحقيق مطلب محدود . وتعبيرا «جمعية» و «طائفة» قد استخدما لتقدير الدرجات المختلفة التى يصل إليها طابع «الجماعة» . فحيث يتحقق الاهتمام الكافى بتعدد العمليات التى تمارسها الجماعة وتكاملها والتعاون بين أعضائها نتحدث عن «جمعية» . إذ أن أعضاء«جمعية» ما يشتركون فى قسم متشابك وصارم نسبيا من العمل حيث تتكامل العمليات التى يمارسها كل شخص والنتائج التى يتوقعها تكاملا هادئاً مع العمليات والنتائج المتوقعة الخاصة بالأخرين . وفى «الطائفة» يكون كلا التضامن والتعاون ضئيلا نسبيا . فبدلا من أن يكون هناك رمز يتضمن إثباتا لشخصية الجماعة بأكملها قد لا توجد إلا رموز جزئية متداخلة لإثبات تلك الشخصية ، كما هى الحال فى دولة ليس بها إلا قدر تافه من الآمال الوطنية أو القومية المتوقعة . وقد يكون القسم من العمل المذكور تافه المستوى أو المدى ، إذ ربما لا تتجاوز العمليات المتكاملة إلا قليلا مجرد

الاشتراك فى حضور احتفال عرضى لمناسبة معينة . ومثال ذلك جماعة يعتنقون مذهبا دينيا معينا دون أن تكون لهم كنيسة معدة لهم ، أو شكل مؤقت من عمل لم يتوثق تكامله كما فى حالة دهماء يقتصون من الناس بأنفسهم . وبالإيجاز فإننا لا نميز تماما بين الجماعات وما لا يعد من قبيل الجماعات ، ولكننا نحصر اهتمامنا فى مدى العلاقات الشخصية المتبادلة بين أعضاء مجموعة معينة ومدى تشابكها .

وأهمية الفكرة العامة عن «الجماعة» بالنسبة للعلم السياسى ليست فى حاجة إلى أسباب . ولم يكد «ببرد» يغلو عندما أكد فيما قرره (١٩٣٤ ، ٦٧) من أن «هذه الحقيقة العظيمة تقاوم بوضوح فعلى مدى القرون الماضية – إلى يومنا الحاضر – حتى تم الاعتراف بأن مصالح الجماعات هى التى تكون جوهر السياسة نفسه سواء نظريا أو عمليا» . ومع ذلك فبغض النظر عن أهمية الجماعات من واقع التجربة ، فإننا لا نتناول الفكرة العامة على أنها أساسية منطقيا بمعنى أن الظواهر السياسية لا تحدد إلا فى نطاق الجماعات دون غيرها . فنحن لا نهتم سواء بالجماعات أو بالأفراد كأنها «ذرات اجتماعية» ولكننا نهتم بالعلاقات الشخصية المتبادلة التى تظهر – تحت ظروف معينة تنظيما متفاوت النوع والدرجة .

تعـريف : الرأى فى جماعة هو مطلب أو أمل يحتمل الجدل داخل الجماعة . و «الاتفاق» هو الرأى الذى لم يعد يحتمل جدلاً .

والمطلب أو الأمل الذى يحتمل الجدل فى جماعة ما يعنى أن مخالفته لا يترتب عليها فقد عضوية الجماعة أو توقيع جزاء قاس آخر . والأمل المتوقع هو الوصول إلى اتفاق لا مجرد إبداء الرأى عندما لا يلقى الاعتراض على هذا الرأى تأييدا . والاعتراض على القرار يقابل عادة بجزاء صارم وهو كيفما كان يثير عواطف الجماعة كان يثير عواطف الجماعة وآمالها ومن شأنه أن يصدم ويدهش .

والرأى ليس سلبيا ولا خامدا ، وإنما يشمل بصفة عامة شكلا من التعبير يؤثر بدرجة ما . والتأكيد على إتمام عملية «التمسك» برأى ما هو الذى يميز قوة الرأى . والشعار الواضح المسبب للنتائج المتوقعة والعمليات التى تقرر الرأى والتى يقررها الرأى قد تسمى تنقية خاصة بالشعار وبالممارسة . فالشعار عرض للأساس الذى يدل على العمل . والممارسة تعيين للعمل الذى يدعو إليه الرأى . ففى نطاق تنقيته رمزيا أو شعاريا قد يوصف الرأى بأنه تم إعلامه أو لن يتم ، وأثيرت عاطفته إلى مختلف الدرجات وهكذا .

اقتراح : إن المجموعة التى تعتنق رأى ما يزيد احتمال أن يتحقق التعاون بين أفرادها كلما زادت حدة الجدل حول هذا الرأى وكلما بان أن هذه المجموعة أقلية . فالنزاع الشديد مع الآراء الأخرى يزيد من تبادل التحقق من شخصيات أولئك الذين يشتركون فى اعتناق ذلك الرأى والنتيجة التى يتوقعها كل شخص تدعم تمسك الآخرين بها . فالمطالب يمكن أن تقدم باسم السمو على الأثرة الذاتية ، والآمال يمكن أن تزعم أنها مكفولة التحقق بمشاركة الآخرين فيها .

وكلما صغرت الأقلية زادت أهمية التعاون على جعل رأيها مؤثرا . والأقلية أكثر ترحيبا بالدعوة إلى التعاون لأنها أشد شعورا بالحاجة إلى تبرير النتيجة المتوقعة الخاصة بها أمام استئثار الآخرين بذاتيتهم (يوجد طبعا حد أدنى لوضع الأقلية إذا تجاوزته لم يعد التعاون ممكنا وربما كان الهبوط عن هذا الحد يجعل الأقلية من الضآلة بحيث لا تكون مؤثرة ولا عرضة للهجوم) . وتكوين الكتل فى الهيئات التشريعية والأجنحة فى الأحزاب السياسية يضرب مثلا على هذه النظرية .

تعريف : الجمهور يتكون من الأشخاص فى الجماعة الذين لهم أو يتوقعون أن يكون لهم رأى ما . و «الرأى العام» هو توزيع الرأى فى جمهور ما .

والجمهور تحدد صلته بجماعة ما فى نطاق أن اختلاف الرأى بين أفراد جمهور تلك الجماعة يختفى تحت ما ينتهى إليه الاتفاق بشأن هذا الرأى اتفاقا أساسيا . فإذا افتقر إلى ذلك الاتفاق لم يعد أمامنا جمهور واحد ، بل عدة جماهير .

ولنلاحظ أن الجمهور أضيق فى مداه من مجموع الناس الذين تسترعى انتباههم مسألة ما . فلكى يكون الشخص عضوا فى جمهور يجب أن يتوقع إمكان أن يكون له بعض الأثر فى تكوين سياسة هذا الجمهور . وقد يتردد الشخص فى الإجابة على بعض الأسئلة ، ولكنه لا ينفصل عن الجمهور إلا إذا توقف عن توقع الاشتراك بعض الوقت أو فى بعض المسائل . ودرجة الاشتراك قد تتغير بتغير المسائل المعروضة حتى لو لم يطرأ تغيير على الجمهور نفسه . ومعالم الجمهور الدالة عليه تتضمن أعمالا كالخطابة والكتابة وتلمس أصوات الناخبين والاشتراك فى الأحزاب وفى مناقشة القضايا العامة (آمال ذوى المواقف السلبية لا يمكن تحديدها إلى بطرق المراقبة الشديدة الدقة) .

والرأى العام يشمل كل الآراء التى تعتنقها القطاعات المختلفة فى الجمهور موضوع البحث ، كما يشمل تحديدا للقطاعات التى لا رأى لها . وعندما نذكر (الرأى العام) بصيغة المفرد فأن رأيا غالبا واحداهو المعنى بالإشارة . والمعالم

التى تقر غلبة الرأى يجب أن تحدد . و «الرأى الغالب» ليس حتما «رأى الغالبية» فقد يكون رأى أقلية ذات نفوذ هو ذلك الرأى المؤثر فعلا .

تعريف : الحشد يتكون من أشخاص فى جماعة يعبرون عن اتفاق فى رأى ما .

وكرد فعل ضد ما ذهب إليه (لوبون) من الغلو فى التعميم بشأن الفكرة العامة عن الحشد فقد لقيت كلمات «حشد» و «جمهور» تعريفا أدق (يراجع كتاب روبيرت بارك الذى أسماه «الحشد والجمهور» ، ١٩٠٤) . وعندما تتقدم جماعة من الناس بمطالب غير قابلة للمناقشة فإنها تعمل عمل الحشد (والحشد إذا انتقل إلى العمل يتحول إلى دهماء) . وعندما تختفى الروابط التى تحقق معرفة كل فرد فى الحشد بشخصية الآخر ولم يعد كل شخص معنيا إلا بذاته ، فإننا نصبح أمام حالة فزع . إذ أنه توجد فى الحشد «عدوى نفسية» - درجة قصوى من التحمس بلا تفكير وبانفعال فى نثر الشعارات .

تعريف : «جماعة مصلحة» . هى مجموعة من الناس نظموا أنفسهم لتحقيق هذه المصلحة . وكل الجماعات قد تعد جماعات مصلحة ما دامت جميعها تنطوى على مطالب (بالتفضيل إن لم يكن بالتحتيم) وآمال ، ولكننا قد نتبين بين مختلف نماذج نشاط الجماعة أن تلك النماذج التى تعنى بتحقيق المصالح أكثر بروزا مثلا من نماذج نشر المبادىء أو جمع الأنصار وأنها تطبع الجماعة بطابع جماعة مصلحة بالنسبة لتلك الأشكال .

تعريف : «جماعة مصلحة خاصة» .

وهى تلك التى - فى الواقع أو طبقا لأملها الخاص - يفوق تحقيق مصلحتها فى الأهمية تحقيق مصالح أولئك الذين خارج الجماعة .

و «جماعة مصلحة عامة» هى الجماعة التى لها إلى حد كبير مصالح أخرى غير المصالح الخاصة . فإذا تحركت نقابة عمال أو جماعة من الجماعات التى تتولى الضغط لسحق هيئات أخرى فإنها - طبقا لآمالها - جماعة مصلحة خاصة . ومع أن اشتراك جماعات أخرى فى هذا السخط قد لا يتحقق دائما فإن من المقطوع به أن المزايا تعم الخارجين عنها كما يحدث عندما تتفق شركات التأمين على تخفيض سعر الحوادث والدعاية له بواسطة التوعية العامة . فما يهم هو مقارنة ما يعود على الجماعة من مزايا وما يعود على الخارجين عنها .

وعند استخدامنا تعبير «فى الواقع» عند وصف جماعة المصلحة الخاصة إنما نشير إلى التقديرات العلمية غير المتحيزة . فنحن ندرك أن تقدير زعماء الجماعة (وأعضائها) لأنفسهم قد يتفق مع تقدير العلماء المؤهلين . ومع ذلك فكثيرا ما يكون تقويم الجماعة لنفسها زائفا (حتى بدون نفاق) وأولئك الذين يظنون أنهم يخدمون المصلحة العامة يعمون عن المزايا الهامة التى يحققونها لأنفسهم .

وكل جماعة لها بعض المصالح الخاصة كتلك - مثلا - التى ينطوى عليها وجودها ونشاطها كجماعة . ولكن جميع المصالح الخاصة لا يتحتم تصادمها فقد تأتلف أو حتى فى بعض الحالات قد تيسر إحداها عمل الأخريات . وفى خلال الظروف المتغيرة قد تندمج المصالح الخاصة فى المصلحة العامة . فالمصالح الخاصة للعسكريين تصبح مصالح عامة فى وقت الحرب .

ومن المصاعب فى تصنيف مجموعة معينة كجماعة مصلحة عامة أو خاصة عـدد المصـالح التى تقصد الجمـاعة متابعة تحقيقها . فضـلا عن أن النتائج لا تتضح بعد فترات قصيرة من الزمن ، والهيئات المهنية تمتاز بأنها يفترض غالبا أنها تخدم المصلحة العامة . ومع ذلك فإن «جراهام والاس» (تراثنا الاجماعى : مطبعة جامعة بيل ١٩٤١ قد (أظهرت تماما) أن توافق المهن أو الحرف المختلفة مع الخير العام ليس أمرا يسيرا . فالصعوبة فى تصنيف مجموعة معينة كجماعة مصلحة عامة أو خاصة تكمن فى عدد المصالح التى تقصد الجماعة متابعة تحقيقها أو التى تعمل جاهدة على التأثير فيها . ولنضف أيضا أن النتائج لا تتضح غالبا بعد فترة قصيرة من الزمن .

اقتراح : إن توفيق جماعة مصلحة وذيوعها يختلف باختلاف درجة اهتمامها بالمصالح العامة دون اهتمامها بالمصالح الخاصة .

والنظرية لا تعدو فى بساطتها أنه كلما عمت المصلحة - بالمعنى الراهن الخاص بتوزيع مزايا تحقيق المصلحة توزيعا على نطاق واسع - خفت حدة نشاط من تهمهم هذه المصلحة . وبوجه الإجمال فإن المثابرة هى طابع متابعة تحقيق المزايا الخاصة دون الإصلاحات العامة . زد على ذلك أن جماعة المصلحة العامة أقدر على اختراق الصعوبات وليست فى حاجة إلا إلى أمل متوقع فى «حيوية عامة» فقط دون التشبث بمصلحة خاصة معينة . ومع هذا القدر القليل من الشدة فى تحقيق مثل هذه النتائج المتوقعة يجب أن يحتمل إجراء تغيرات متكررة فى عضوية هذه الجماعات كلما صادفتها عقبات .

الجــزء الثانى

العوامل المؤثرة فى الرأى العام

(٦)

رســـالة عن الحكومـــة
جـــون كـــالهـــون[1]

إن تكوين طبيعتنا الذى يجعلنا أكثر شعورا بما يؤثر علينا تأثيرا مباشرا عما يؤثر علينا تأثيرا غير مباشر بواسطة الآخرين يقود بالضرورة إلى التعارض بين الناس . فكل شخص تبعا لذلك يهتم لسلامته أو سعادته اهتماما أكبر من اهتمامه بسلامة أو سعادة الآخرين ، وإذا تعارضت سلامته أو سعادته مع سلامة أو سعادة الآخرين ، فهو مستعد لأن يضحى بمصالح الآخرين فى سبيل مصلحته . ومن ذلك ينشأ الميل إلى حالة التعارض العام بين شخص وآخر ، تعارضا مصحوبا بما يرتبط به من انفعالات الشك والحسد والغضب والثأر التى تعقبها القحة والتزوير والقسوة والتى ، إن لم توقفها سلطة مهيمنة ، فإنها تنتهى إلى حالة عامة من النفور والحيرة تحطم النظام الاجتماعى وهو ما تعرف عواقبه . هذه السلطة المهيمنة أينما منحت أو أيا كان من يمارسها هى الحكومة .

ويتبع ذلك إذن أن الإنسان قد جبل على أن الحكومة ضرورية لوجود المجتمع ، وان المجتمع ضرورى لوجوده ولإكمال مواهبه . ويتبعه أيضا أن الحكومة تستمد أصلها من هذا التكوين المزدوج للطبيعة البشرية : المشاعر الانجذابية أو الاجتماعية التى هى العنصر النائى من ذلك التكوين ، والعنصر الفردى أو المباشر ، وهو السبب الملازم للإنسان .

وإذا كان الإنسان قد جبل على غير هذين العنصرين - فبدلا من أن يكون اجتماعيا بطبيعته يكون قد خلق بدون عطف على جنسه ، ومستقلا عن الآخرين فى المحافظة على سلامته وكيانه . أو إذا كان - من جهة أخرى - قد خلق بحيث يكون أكثر شعورا بما يؤثر على الآخرين عما يؤثر عليه هو نفسه (إذا كان ذلك ممكنا) فمن الواضح فى أى من الحالتين أنه لن تكون هناك حاجة إلى

---

(١) من طبعة «ريتشارد ك . كرال» عن «كتب جون كالهون» (The Works of John Calhoun) (نيويورك ، د . ا بيلتون ، ١٨٩٥) .

حكومة ، وأنه ما كان يمكن أبدا أن توجد أية حكومة . ولكن رغم أن المجتمع والحكومة مرتبطان هكذا ارتباطا وثيقا وكل منهما يعتمد على الآخر فإن المجتمع أعظم الاثنين . إنه الأول فى ترتيب الأشياء وفى شرف غايته . فالغاية من المجتمع - وهى غاية رئيسية - حفظ جنسنا وإكماله . والغاية من الحكومة - وهى غاية ثانوية وتبعية - حفظ المجتمع وإكماله . وكلاهما مع ذلك ضرورى لكيان جنسنا وخيره ، وكلاهما على السواء من السنن الإلهية .

ولكن الحكومة مع أنها مقامة لحماية المجتمع والمحافظة عليه تميل هى نفسها ميلا قويًا إلى الإخلال بالنظام وإساءة استعمال السلطة . كما تشهد بذلك كل التجارب وكل صفحة من صفحات التاريخ . ويوجد السبب فى نفس تكوين طبيعتنا التى تجعل من الحكومة ضرورة لا غنى عنها . إن السلطات التى تقضى الضرورة بأن تملكها الحكومة لكى تقمع العنف وتحفظ النظام لا يمكن أن تقضى على نفسها بنفسها . فهذه السلطات يجب أن يمارسها أشخاص كغيرهم من الناس . روح الفرد فيهم أقوى من المشاعر الاجتماعية . ويترتب على ذلك أنه إذا تركت السلطات المخولة لهم لمنع الظلم والجور عن الآخرين بلا حراسة فإنهم سيحولونها إلى أدوات لاضطهاد بقية الجماعة .

وما يقوم بمنع ذلك أيا كان الاسم الذى يطلق عليه هو الذى يقصده الدستور بمعناه الشامل عندما يطبق على الحكومة .

ولما كان الدستور متأصلا فى نفس المبدأ الذى تقوم عليه طبيعتنا فإن الدستور يتمسك بالحكومة كما تتمسك الحكومة بالمجتمع . ولما كان الغرض منه تنظيم المجتمع فإن هذا المجتمع ينهار بدون حكومة ، كما أنه لما كان الغرض منه تنظيم الحكومة فإن هذه الحكومة تنهار إلى حد كبير بدون دستور . ولكنهما يختلفان فى هذ الوضع المدهش . فما من صعوبة فى تشكيل حكومة بل أنه حتى لا خيار فى الأمرين أن تكون هناك حكومة أو لا تكون ، كالتنفس الذى لا يعتمد على إرادتنا . فالضرورة تفرضها قهرا فى جميع المجتمعات بشكل أو بآخر . ولكن وضع الدستور يختلف اختلافا كبيرا ، فهو ليس ضرورة حتمية ، بل إنه عمل من أشق الأعمال أن يفرض على الإنسان وضع دستور جدير بهذا الاسم . فى حين أن وضع دستور كامل - دستور كفيل بأن يقاوم تماما انحراف الحكومة إلى الجور والعسف ، وأن يحملها على التزام حدود واجباتها الكبيرة

المفروضة عليها - وضع مثل هذا الدستور قد قصر عنه العقل البشرى حتى اليوم ، وربما سيظل قاصرا عنه إلى الأبد ، ومن هنا يبدو فارق هام . فالدستور من عمل الإنسان فى حين الحكومة من السنن الآلهية . فقد ترك للإنسان أن يستكمل ما سنته الحكمة اللانهائية كضرورة لحفظ الجنس .

بهذه الملاحظات أنتقل إلى تأمل المسألة الهامة والعسيرة : كيف يقاوم هذا الانحراف فى الحكم ؟ أو للتعبير عن ذلك تعبيرا أتم - كيف يمنع أولئك الذين خولت لهم سلطات الحكومة من استخدامها كوسائل لتعظيم أنفسهم بدلا من استخدامها لحماية المجتمع والمحافظة عليه ؟

لا يمكن تحقيق ذلك بإنشاء سلطة أعلى لمراقبة الحكومة وأولئك الذين يديرون شئونها . لأن مؤدى ذلك تغيير كرسى لاسلطة وجعل الهيئة الأعلى هى الحكومة فى الحقيقة بنفس الاتجاه لدى أولئك الذين قد يمارسون سلطاتها للانحراف بها واستخدامها كأدوات للتعاظم . كما أنه لا يمكن الحد من سلطات الحكومة بحيث تكون أضعف من أن تتحول إلى أداة للعسف . لأنه - مع التجاوز عن صعوبة مثل هذا الحد من سلطاتها - بدون إنشاء هيئة أعلى من الحكومة نفسها تلزم بملاحظة هذه الحدود يكفى لدحض هذه الفكرة أنها إذا كانت قابلة للتنفيذ ، فإنها تقضى علي الغرض الذى أقيمت الحكومة لتحقيقه يجعلها من الضعف بحيث لا تستطيع أن تحمى المجتمع وتحافظ عليه . فالسلطات اللازمة لتحقيق هذا الغرض ستكفى دائما لتمكين أولئك الذين يمارسونها من التعاظم على حساب بقية المجتمع .

ولتقدير القسط من السلطة المطلوب لضمان تحقيق أغراض الحكومة يجب أن نتبين ما تدعو الضرورة إليه للدفاع عن المجتمع ضد الأخطار الخارجية والداخلية معا .

إن المحافظة على النفس هو القانون الأعلى بالنسبة للمجتمعات والأفراد على السواء . ومن ذلك يبدو الخطر من سحب التحكم التام فى السلطة وفى موارد الدولة من الحكومة ، كما تبدو الصعوبة الكبيرة فى الحد من سلطاتها الكافية لحماية المجتمع والمحافظة عليه . ولذلك يعود السؤال - بأية وسيلة يمكن منع حكومة من إساءة استعمال سلطاتها بدون سحب كامل تحكمها فى جميع موارد المجتمع ؟

لا توجد إلا وسيلة واحدة ربما يمكن بها تحقيق ذلك ، وهو نظام يوفق المحكومين لإمكانيات مقاومة اتجاه الحكام إلى الجور والعسف . فالقوة لا يمكن أن تقاومها إلا القوة ، والانحراف إلى اتجاه معين لا يمكن أن يقاومه إلا ميل إلى اتجاه مضاد . فأولئك الذين يمارسون السلطة وأولئك الذين تمارس عليهم - الحكام والمحكومون - يقف كل منهم موقفا معارضا للآخر ، ونفس تكوين طبيعتنا الذى يدفع الحكام إلى اضطهاد المحكومين - بغض النظر عن الغرض الذى قامت الحكومة لأجله - سيدفع المحكومين بقوة مماثلة للمقاومة إذا توافرت لديهم وسائل المقاومة السلمية الفعالة . ومثل هذا النظام إذ يوفر الوسائل التى قد تستخدم بدقة وهدوء بواسطة المحكومين لمقاومة جور الحكام وعسفهم هى الخطوة الأولى والتى لا غنى عنها نحو تكوين حكومة دستورية . ولما كان ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق حق الاقتراع أو بواسطته - (وهو حق المحكومين فى اختيار حكامهم فى فترات مناسبة وفى محاسبتهم عن تصرفاتهم) - فإن مسئولية الحكام أمام المحكومين بواسطة حق الاقتراع هور المبدأ الذى لا غنى عنه ، والمبدأ الأول فى تأسيس حكومة دستورية .

إننى أدعو حق الاقتراع المبدأ الذى لا غنى عنه والأول لأن من الخطأ الخطر أن تفرض - كما يفعل الكثيرون - أن هذا الحق يكفى وحده لتكوين حكومات دستورية .

إن حق الاقتراع وحده لا يستطيع أن يفعل أكثر من اعطاء الناخبين رقابة كاملة على المنتخبين . وهو بذلك يستنفد كل ما فى امكانه أن يؤديه . وهذا هو هدفه - وعندما يصل إلى هذا الهدف تتحقق غاية الغرض منه . فلا يستطيع أن يتجاوز ذلك مهما يكن الشعب مستنيرا ومهما يكن ذيوع هذا الحق ومهما أحكمت حمايته . وجملة النتيجة عندئذ لآثاره إذا ما وفق توفيقا تاما هو جعل المنتخبين ممثلين حقيقيين وأمناء للناخبين - بدلا من أن يكونوا حكاما غير مسئولين - ولو أن هذا النظام لم يكن موجودا ، وذلك بتحويل هذا النظام إلى وكالة والحكام إلى وكلاء . وتجريد الحكومة من كل مزاعم السيادة والحرص على ألا يصاب المجتمع بأذى منها . ولكن من الواضح أن حق الاقتراع فى إجرائه لهذه التغيرات ينقل فى الحقيقة الرقابة الفعلية على الحكومة من أولئك الذين يضعون القوانين وينفذونها إلى هيئة المجتمع ، وبذلك يضع سلطات الحكومة بأكملها فى أيدى

جماهير الناس ، كما كانوا لو أنهم فى الواقع قد اجتمعوا ووضعوا القوانين ونفذوها هم أنفسهم بدون تدخل ممثلين أو وكلاء . وكلما استكمل النظام تحقيق ذلك استكمل تحقيق الغاية منه ، ولكنه فى إجراء ذلك إنما يقتصر على تغيير كرسى السلطة بدون أن يقاوم أدنى مقاومة انحراف الحكومة إلى الجور والعسف فى سلطاتها .

إذا كان جميع أفراد المجتمع لهم نفس المصالح ، بحيث إن مصالح كل فرد وكل فريق تتأثر بعمل الحكومة وأن القوانين التى تظلم فريقا أو تفقره لابد أن تظلم جميع الآخرين وتفقرهم - أو العكس - إذ صح هذا الفرض فإن حق الاقتراع وحده يكفى تماما لمقاومة انحراف الحكومة إلى الجور والعسف فى سلطاتها ، وبطبيعة الحال يكفى لتكوين حكومة دستورية كاملة . وطبقا لهذا الفرض القائل بأن مصلحة الناس جميعا واحدة - فى نطاق صلتهم بعمل الحكومة - يكون للجميع نفس المصالح بشأن ما يجب سنه من قوانين وكيف يجب أن تنفذ . فكل كفاح وصراع بشأن من يجب أن ينتخب ليضع القوانين وينفذها يصبح من الواجب وقفه . ولا يبقى إذ ذاك إلا السؤال الوحيد : من هو الأصلح ؟ من هو الأحكم والأقدر على فهم مصلحة الجميع المشتركة ؟ فإذا تقرر ذلك فإن الانتخاب يتم فى هدوء بدون خلاف حزبى . لأنه لن يتسنى إذ ذاك لفريق واحد أن يحتج بمصلحته الخاصة بغض النظر عن مصالح الآخرين لانتخاب مرشح مفضل .

ولكن هذا الفرض لا يطابق الواقع . فعلى العكس ليس هنا أصعب من تحقيق التوازن فى عمل الحكومة الذى يمس بمصالح المجتمع المتباينة المتبدلة ، وليس هناك أيسر من إفساد سلطاتها وتحويلها إلى أدوات للتعاظم ، ولإثراء واحد أو أكثر من أصحاب المصالح بظلم وإفقار الآخرين . وهذا أيضا يتم تحت حماية القوانين المغلفة بعبارات عامة ، والتى تبدو فى ظاهرها عادلة لا تفرق بين الناس . وهو لا يطابق الواقع فى بعض المجتمعات المعينة فحسب ، وإنما لا يطابقه فى جميع المجتمعات صغيرها وكبيرها ، فقيرها وغنيها ، دون التفات إلى المطالب أو المنتجات أو مستويات الحضارة ، ومع ذلك فهناك هذا الفارق . وهو أنه كلما تكاثف وتكاثر سكان البلد تنوعت وتبدلت أوضاع ومطالب سكانه وأثرى وزاد بذخه وتغايرت أوضاع أهله وصعب أن يتحقق التوازن فى تصرفات الحكومة وسهل

على فريق من الشعب أن يفسد الحكومة وأن ينحرف بسلطاتها إلى ظلم الآخرين ونهب أموالهم .

ولما كان هذا هو الوضع فإنه يترتب عليه حتما أن حق الانتخاب بوضعه الرقابة على الحكومة بين يدى المجتمع يجب - من نفس تكوين طبيعتنا التى تجعل الحكومة ضرورية لحفظ المجتمع- أن يقود إلى التصادم بين مختلف مصالح هذا المجتمع - فكل فريق يجاهد للاستيلاء على سلطاته كوسائل لحماية نفسه ضد الآخرين - أو ترجيح مصالحه بغض النظر عن مصالح الآخرين ولهذا السبب ينشب الصراع بين مختلف المصالح لكى يفوز كل منها بغالبية تمكنه من الرقابة على الحكومة . وإذا لم يقو فريق بمفرده على نيل هذه الغالبية ، فإن ائتلافا يتم بين المصالح الأكثر تشابها ، كل منها يتنازل عن قدر من مطالبه للآخرين حتى يحصل على غالبية . وقد تكون العملية بطيئة . وقد تستدعى وقتا طويلا قبل أن تتكون على هذا الوجه غالبية متماسكة منظمة . ولكن بمجرد تكوينها تصبح على موعد - حتى بدون تدبير سابق أو تصميم - تجاه الأعمال الأكيدة لذلك المبدأ أو التكوين الخاص بطبيعتنا الذى تأصلت فيه الحكومة نفسها . فبمجرد تكوينها ينقسم المجتمع إلى حزبين كبيرين - أحدهما كبير والآخر صغير - تقوم بينهما صراعات دائمة ، من جانب الاحتفاظ بالغالبية ، ومن الجانب الآخر للحصول عليها . والحصول بذلك على الرقابة على الحكومة والمزايا التى تضيفها ، وحتى هذا الوقت لا يكون حق الانتخاب دون بعض احتياطات أخرى قادرا على مقاومة انحراف الحكومة . والسؤال الثانى الذى يدعو للتأمل - ما هو هذا الاحتياط الآخر؟

يتضح مما قيل قبلا إن هذا الاحتياط يجب أن يكون من طراز روعى فيه أن يمنع أية مصلحة أو مجموعة مصالح من استخدام سلطات الحكومة للتعاظم على حساب المصالح الأخرى . وهنا يكمن الشر . فبنسبة ما سوف يمنع هذا الاحتياط تلك المصلحة أو مجموعة المصالح أو يخيب فى منعها ، فإنه سيؤثر بنفس القدر أو يخيب فى أن يؤثر فى الغاية المأمول تحقيقها ، وليس هناك إلا شكل واحد معين يؤكد الوصول إلى هذه النتيجة ، وهو اتباع نوع من القيد أو الحد الذى يقوى على منع أية مصلحة أو مجموعة مصالح من الاستئثار بالرقابة على الحكومة ، وعلى إخماد الأمل فى نجاح كل المحاولات الموجهة إلى هذا

الغرض . كما أنه أيضا ليس هناك إلا شكل واحد يمكن فى نطاقه إنجاز ذلك بمراعاة اتجاه كل مصلحة أو فريق من المجتمع قد وقع عليه حيف أو أصيب بأذى من انفراد الحكومة بالتصرف ، وذلك عن طريق الغالبية الخاصة بتلك المصلحة أ وذلك الفريق . أو بطريقة أخرى تمكنهما من التعبير عن رأيهما تعبيرا كافيا ، وتقضى بالحصول على موافقة كل مصلحة على استمرار الحكومة فى العمل أو منعها منه . وهذا أيضا لا يمكن تحقيقه إلا بطريقة واحدة - وذلك فى ظل نظام حكم وعند الضرورة لتحقيق نفس الغرض نظام مجتمع أيضا - يقوم على تقسيم سلطات الحكومة وتوزيعها ، بحيث يعطى كل قطاع أو كل مصلحة عن طريق الهيئة الخاصة بها صوتا تجب موافقته لوضع القوانين وتنفيذها أو لوقف تنفيذها . وبمثل هذا النظام وحده يمكن الحصول على موافقة الجميع على استمرار الحكومة فى العمل أو على السلطة التى تملك وقفها عن العمل إذا ما خولته - وعلى صورة هاتين الصورتين أو على الصورة الأخرى وحدها يمكن حماية المصالح المختلفة والأنظمة والطبقات أو القطاعات التى يضمها المجتمع ، كما يمكن منع كل تصادم وصراع بينها - وذلك يجعل نشوب ذلك أو وقفه مستحيلا إلا بموافقة الجميع .

مثل هذا النظام - مرتبطا بحق الانتخاب - يكون فى الواقع عناصر الحكم الدستورى ، وأحد هذه العناصر هو أن ذلك الحكم الذى يجعل أولئك الذين يضعون القوانين وينفذونها مسئولين أمام أولئك الذين يمارسون سلطاتهم عليهم إنما يمنع الحكام من ظلم المحكومين . والعنصر الآخر هو أنه يجعل استئثار أية مصلحة أو مجموعة مصالح متآلفة أو طبقة أو هيئة أو قطاع من المجتمع بالرقابة على الحكومة مستحيلا إنما يمنع أيا منها من ظلم الآخر . ومن الواضح أن الظلم وسوء استعمال السلطة إنما يقع إذا وقع من فريق على آخر . فليس هناك مصدر ثالث ، ويتبع ذلك أن كلا من حق الانتخاب والنظام الملائم له بارتباطهما كافيان لمقاومة انحراف الحكومة إلى الجور ، وسوء استعمال السلطة ولقصر عملها على تحقيق الغايات العظيمة التى شكلت من أجل تحقيقها .

وقد يستدل مما تقرر قبلا أن من شأن هذا النظام ألا يحل محل أهمية حق الانتخاب ، كما لا ينتقص من هذه الأهمية ، وانما يساعد هذا الحق ويكمله . فالغرض من حق الانتخاب هو بيان شعور المجتمع ، وكلما جمع هذا البيان بدقة

وكمـال كلمـا تحققت الغاية منه . ولكن أقصى ما يمكن أن ينجزه وحده هو أن يجمع البيان عن شعور العدد الأكبر . أى أهم المصالح أو مجموعة المصالح المتآلفة وأن يفرض أن هذا هو شعور المجتمع . ولا يمكن بغير معونة نظام ملائم أن يجمع بيانا عن شعور المجتمع كله – عن شعور كل مصلحة فيه وكل مصالحه بواسطة الهيئة الخاصة بها وعن مجموع المصالح بواسطة هيئاتها مجتمعة . عندئذ يتبين حقا شعور المجتمع كله على ما فى داخل كل مصلحة من تباين إذا كانت جميعها لها نفس المصلحة بالنسبة لتصرف الحكومة . فالأفراد الذين يكونون كل فريق صاحب مصلحة تمثلهم تمثيلا تاما وصادقا أغلبية الفريق أو الهيئة الخاصة به . مقارنة بالمصالح الأخرى . وبالاختصار فإن كل فرد من كل فريق ذى مصلحة يجب أن يعتمد فى ثقة على غالبية فريقه أو الهيئة الخاصة بها ضد غالبية فريق كل مصلحة أخرى .

وينتج مما قيل أن هناك وسيلتين مختلفتين قد يمكن بهما معرفة شعور المجتمع : إحداهما بحق الانتخاب وحده دون معونة ، والأخرى بهذا الحق خلال نظام ملائم . فكل منهما يجمع بيانا بالغالبية . ولكن إحداهما تعنى بالأرقام وحدها ، وتعد المجتمع كله كوحدة ذات مصلحة واحدة شاملة ، وتجمع البيان عن شعور العدد الأكبر من المجموع على أنه شعور المجتمع . أما الأخرى فعلى العكس تعنى بالمصالح عنايتها بالأرقام – متأملة المجتمع على أنه مكون من مصالح متباينة ومتناقضة بالنسبة لتصرف الحكومة ، وتتبين شعور كل فريق من خلال غالبيته أو الهيئة التى تمثله ، كما تعد وحدة الشعور العام شعور المجتمع كله . والوسيلة الأولى سأسميها الوسيلة العددية أو الغالبية المطلقة والثانية الوسيلة التحالفية أو الغالبية الدستورية . وإننى أسميها الغالبية الدستورية لأنها عنصر رئيسى فى كل حكم دستورى مهما يكن شكله . والفارق من الوجهة السياسية بين الغالبيتين كبير إلى حد أن الخلط بينهما يقود إلى أخطار كبيرة مدمرة .

ومع ذلك فإن التمييز بينهما قد غفل عنه تماما إلى حد أنه عند استخدام تعبير الغالبية فى المناقشات السياسية ، فإنه يقصر تطبيقه على الغالبية العددية كما لو أنه ليس هناك غالبية أخرى ، وإلى أن يتبين هذا التمييز ويفهم على وجه أفضل يستمر احتمال كبير لخطأ فى إقامة حكومات دستورية إقامة سليمة ، وبخاصة ما

كان منها شعبى الشكل وفى الاحتفاظ بهذه الحكومات إذا أقيمت على أساس سليم . وحتى يتحقق ذلك فإن هذا الحكم الدستورى سيتجه اتجاها قويا إلى الانزلاق أولا إلى حكم الغالبية العددية ، وينتهى إلى الحكم المطلق تحت شكل آخر . ولإثبات صحة هذا وللتأكيد على الفارق ين الحكمين بفرض الاحتراس من إغفال هذا الفارق أرى تأمل الموضوع فى إسهاب أكثر .

إن أول وأهم الأخطاء التى تنشأ عن إغفال التمييز المشار إليه هو خلط الغالبية العددية بالشعب خلطا تاما إلى حد التماثل والمطابقة . وهذه هى العاقبة التى تترتب حتما على عد الغالبية العددية الغالبية الوحيدة . والجميع يسلمون بأن الحكومة الشعبية أو الديموقراطية هى حكومة الشعب لأن التعبير يدل عليه . والحكومة الكاملة من هذا الطراز هى تلك التى تحصل على رضى كل مواطن أو كل عضو فى المجتمع . ولكن لما كان هذا متعذرًا فى نظر أولئك الذين يعدون الغالبية العددية هى الغالبية الوحيدة والذين لا يدركون أية وسيلة أخرى يمكن بها تبين شعور الشعب – فإنهم يرغمون على أن يتبعوا هذه الوسيلة على أنها الأساس الصادق الوحيد للحكومة الشعبية المضادة للحكومات ذات الأشكال الاريستوقراطية أو الملكية . فإذا ما حملوا على ذلك فإنهم بعد مضطرون إلى عد الغالبية العددية كأنها فى الواقع الشعب بأجمعه . أى عد الجزء الأكبر من الشعب كمجموع الشعب ، وحكومة الجزء الأكبر كحكومة الشعب كله . وهكذا يحدث الخلط بين الاثنين . ويعد الجزء والكل متماثلين متطابقين . وهكذا أيضا تخول كل حقوق وسلطات وحصانات مجموع الشعب إلى الغالبية العددية ، كما تخول لهذه الغالبية بين ما يخول لها سلطة السيادة العليا فى إقامة الحكومات وإقالتها كما يتراءى لها .

إن هذا الخطأ الجذرى الذى يترتب على الخلط بين غالبية الشعب والشعب نفسه وعد هذه الغالبية هى الغالبية الوحيدة قد أسهم أكثر من أى سبب آخر فى منع تشكيل حكومات دستورية شعبية ، وفى تحطيم هذه الحكومات حتى بعد تشكيلها . فهو يقود إلى الاقتناع بأنه فى تشكيلها ليس هناك من ضرورة لأكثر من حق الانتخاب ، وإعطاء كل قطاع من المجتمع حصة لتمثيله فى الحكومة طبقا لنسبته العددية . وإذا كانت الغالبية العددية هى الشعب حقا ، وإذا كان تبين شعورها حقا إنما هو تبين لشعور الشعب حقا ، فإن حكومة تؤلف هكذا تكون طرازا صادقا وكاملا

لحكومة شعبية دستورية وكل تحول عنها يكون حطا من قدرها . ولكن لما كانت الحقيقة غير هذا - لأن الغالبية العددية بدلا من أن تكون هى الشعب لا تعدو أن تكون جزءا من الشعب - فإن مثل هذه الحكومة بدلا من أن تكون طرازا صادقا وكاملا لحكومة الشعب أى لشعب يحكم نفسه بنفسه لا تعدو أن تكون حكومة جزء على جزء - القسم الأكبر من الشعب يحكم القسم الأصغر .

ولكن هذا الخطأ فى إدراك العناصر الحقيقية للحكومة الشعبية لا يقف عند هذا الحد ، بل إنه يقود إلى أخطاء أخرى تتساوى معه فى الاتسام بالزيف والخطورة بشأن أفضل الوسائل للاحتفاظ بهذه الحكومات وتمكينها من الاستمرار عندما تشكل تشكيلا صحيحا بفضل اجتماع بعض الظروف المواتية . لأن أولئك الذين يقعون فى هذه الأخطاء يعدون القيود التى يفرضها النظام على إرادة الغالبية العددية قيودا على إرادة الشعب ، ولذلك فهى ليست عديمة الجدوى فحسب ، إنما خاطئة وخبيثة . وترتيبًا على ذلك يحاولون أن يحطموا النظام تحت الأمل الباطل فى إقامة حكومة أكثر ديموقراطية .

وهناك خطأ آخر ذو طابع قريب يسهم أثره كثيرا فى نفس النتائج . وأنى أقصد الرأى الذائع الذى يذهب إلى أن دستورا مكتوبا يتضمن قيودا مناسبة على سلطات الحكومة يكفى وحده بدون معونة من أى نظام - اللهم إلا ما يتعلق بفصل السلطات المختلفة وتحقيق استقلال كل منها عن الأخرى - لكى يقاوم انحراف الغالبية العددية إل الجور وسوء استعمال السلطة .

إن للدستور المكتوب بالتأكيد مزايا عديدة وهامة ، ولكن من الخطأ الكبير أن نفرض أن مجرد إدراج مواد تقيد وتحد من سلطات الحكومة بدون أن تخول أولئك الذين أدرجت هذه المواد لحمايتهم الوسائل التى تمكنهم من فرض احترامها - من الخطأ الكبير أن نفرض أن هذا سيكون كافيا لمنع الحزب الأكبر والحاكم من إساءة استعمال سلطاته . وما دام الحزب قد استولى على الحكم فإنه - طبقا لنفس تكوين الإنسان الذى يجعل الحكومة ضرورية لحماية المجتمع سيصبح نصيرا للسلطات الممنوحة بالدستور ومعارضا للقيود المقررة للحد منها ، وباعتباره الحزب الأكبر والحاكم لن يكون فى حاجة إلى هذه القيود لحمايته . فصندوق الانتخاب وحده يكفى لحمايته . لأنه ليس فى حاجة إلى حماية أخرى فإنه سينتهز الوقت الذى يعد فيه هذه القيود عراقيل غير ضرورية وغير لائقة ، ويحاول أن يفلت منها راميا إلى زيادة سلطته ونفوذه .

أما الحزب الأصغر أو الأضعف فعلى العكس سيسلك الاتجاه المضاد - ويعد تلك القيود جوهرية لحمايته من الحزب الحاكم . ويترتب على ذلك أن يجتهد فى الدفاع عنها والتوسع فيها وللحد من السلطات والتضييق منها . ولكن عندما تعوزه الوسائل التى يستطيع بها أن يرغم الحزب الأكبر على مراعاة القيود فليس أمامه إلا الالتجاء إلى صياغة صارمة - أى أن يكون دستورا يحصر السلطات فى أضيق الحدود التى يسمح بها معنى الكلمات التى استخدمت للتعبير عن منح هذه السلطات .

وعندئذ يعترض الحزب الأكبر ويطالب بصياغة حرة - صياغة تعطى للكلمات المعبرة عن منح السلطات أوسع معنى تحتمله . وبذلك يتحول الصراع إلى صياغة ضد صياغة : إحداهما للتضييق إلى أقصى حد من سلطات الحكومة والأخرى للتوسع إلى أقصى حد فى هذه السلطات . ولكن ماذا يمكن أن تجدى الصياغة الصارمة التى اقترحها الحزب الأصغر تجاه التفسير الحر الذى يلجأ إليه الحزب الأكبر إذا كان أحدهما قد يستجمع كل سلطات الحكومة التى تمكنه من وضع صياغته موضوع التنفيذ - والآخر مجرد من كل الوسائل التى تكفل تنفيذ ما يقصده من صياغته ؟ مثل هذا النزاع الذى لا تتساوى فيه كفة الطرفين لا شك فى نتيجته وهى أن ينهزم الحزب الذى يطالب بالقيود .

كما أن تقسيم الحكومة إلى إدارات منفصلة أى مستقلة كل منها عن الأخرى لا يمنع هذه النتيجة فمثل هذا التقسيم قد ييسر أعمالها ويضمن لإدارتها قدرا أكبر من الحيطة والتأنى - ولكن مادامت كل إدارة من هذه الإدارات على حدة وكلها مجتمعة ، وبطبيعة الحال الحكومة بأكملها إنما هى تحت رقابة الغالبية العددية فإن من الواضح وضوحا لا يحتاج إلى تفسير أن مجرد توزيع سلطات هذه الحكومة على وكلائها وممثليها لن يجدى إلا قليلا . أو لن يجدى قط فى مقاومة انحرافها إلى الجور وسوء استعمال السلطة . ولتحقيق تلك المقاومة من الضرورى أن تخطو خطوة أبعد بتحويل إدارات الحكومة المختلفة إلى أجهزة تمثل المصالح أو القطاعات المتباينة فى المجتمع وإعطاء كل منها حق الاعتراض على الأخرى . ولكن أثر ذلك هو تغيير الحكم من الاستناد على الغالبية العددية إلى الاستناد على الغالبية المتحالفة .

إن النتيجة الضرورية لتبين شعور المجتمع بواسطة الغالبية المتحالفة ، هى كما سبق إيضاحه إعطاء كل مصلحة أو قطاع من المجتمع حق الاعتراض على القطاعات الأخرى . وهذا الاعتراض المتبادل بين مختلف المصالح المتصادمة هو الذى يخول كلا منها سلطة حماية نفسه ويضع حقوق وأمن كل منها حيث يمكن الاطمئنان عليها تحت حراسة من صاحب الحق نفسه . وفى هذا الوضع بالفعل يكون الدستور من صنع سلطة الاعتراض ، وتكون الحكومة من صنع المواقف الإيجابية ، فإحداهما سلطة الموافقة على العمل ، والأخرى سلطة منع العمل أو وقفه . الاثنتان عند ارتباطهما معًا تصنعان الحكومات الدستورية .

ولكن لما لم يكن هناك دستور بدون السلطة السلبية أى سلطة الاعتراض ، ولا سلطة اعتراض بدون الغالبية المتحالفة - يتبع ذلك بالضرورة أنه حيث تستأثر الغالبية العددية بالرقابة على الحكومة لا يمكن أن يكون هناك دستور لأن الدستور يتضمن الحد والقيد - ويناقض طبعا فكرة السلطة المنفردة أو المستأثرة . ويترتب على ذلك أن الغالبية العددية غير الممتزجة بالغالبية المتحالفة تكون حتما فى جميع الحالات حكومة مطلقة .

ومن المؤكد أن السلطة المنفردة أو الواحدة هى التى تستبعد حق الاعتراض وتقيم الحكومة المطلقة . فالغالبية العددية يصدق عليها أنها سلطة منفردة تستبعد حق الاعتراض ، كما يصدق تماما على الحكومة المطلقة التى يقيمها فرد أو قلة من الأفراد . فالأولى لا تفترق فى أنها الحكومة المطلقة التى يقيمها فرد أو قلة من الأفراد . فالأولى لا تفترق فى أنها الحكومة المطلقة من الطراز الديموقراطى أو الشعبى عن الثانية التى من الطراز الملكى أو الأريستوقراطى . وهما لذلك يشتركان فى نفس الانحراف إلى الجور وسوء استعمال السلطة .

إن الحكومات الدستورية أيا كان شكلها تشبه الواحدة منها الأخرى فعلا فى التكوين والطابع أكثر فى شبهها - كل منها على حدة - للحكومات المطلقة حتى التى تنتمى إلى طبقتها . فكل الحكومات الدستورية أيا كانت الطبقة التى تنتمى إليها تتبين شعور المجتمع من خلال قطاعاته - كل بواسطة الهيئة الخاصة به وتعد شعور جميع القطاعات شعورا للجموع . وجميع هذه الحكومات تعتمد على -ق الانتخاب ومسئولية الحاكم مباشرة أو غير مباشرة ، أما الحكومات المطلقة أيا كان شكلها فكلها تركز السلطة فى شخص واحد أو جهاز واحد لا رقابة عليه وغير

مسئول أمام أحد تعد إرادته معبرة عن شعور المجتمع . ويترتب على ذلك أن المميز الكبير والعريض بين الحكومات – ليس هو حكومة الفرد أو قلة من الأفراد أو الكثير منهم – وإنما هو الحكومة الدستورية والحكومة المطلقة .

ومن ذلك ينتج مميز آخر وإن كان ثانويا فى طابعه ، فهو يبرز بقوة الفارق بين هذه الأشكال للحكومات . وإنى أشير إلى المبدأ الواقى الخاص بكل منها على حدة أى المبدأ الذى يدعمها وتعتمد عليه فى بقائها . وهذا المبدأ فى الحكومات الدستورية هو المواءمة وفى الحكومات المطلقة هو القوة كما سوف يشرح فيما يلى :

لقد سبق أن أوضحنا أن تكوين الإنسان الذى يقود أولئك الذين يحكمون إلى ظلم المحكومين إذا لم يمنع – هو نفسه بقوة وإصرار يساويان ذلك الظلم يدفع المحكومين إلى مقاومة الظلم إذا توافرت لهم وسائل القيام بهذه المقاومة – بهدوء ونجاح . ولكن الحكومات المطلقة بجميع أشكالها تستبعد كل وسائل المقاومة الأخرى لسلطتها إلا وسيلة القوة . وبطبيعة الحال لا تترك للمحكومين خيارا إلا الخضوع للجور مهما عظم أو اللجوء إلى القوة لخلع الحكومة . ولكن خشية مثل هذا الأمر تدفع الحكومة بالضرورة إلى حماية نفسها ، ويترتب على ذلك حتما أن تصبح القوة المبدأ الواقى لكل مثل هذه الحكومات .

أما حكومات الغالبية الائتلافية فعلى العكس عندما يكتمل نظامها تستبعد احتمال الجور بإعطاء كل مصلحة أو قطاع أو هيئة – حيث توجد طبقات مستقرة – الوسائل لحماية نفسها بتخويلها أن تقف موقفا سلبيا أى حق الاعتراض ضد كل الإجراءات التى يقصد بها ترجيح المصالح الخاصة للآخرين على حسابها . ويترتب على ذلك أن تكف المصالح المختلفة – والقطاعات والهيئات على حسب الأحوال عن محاولة اتخاذ أى إجراء يقصد به تنمية رخاء مصلحة أو أكثر بتضحية مصالح الآخرين ، وهكذا يرغمون على أن يتحدوا فقط فى الإجراءات التى تستهدف تنمية رخاء الجميع كالوسيلة الوحيدة لدعم الحكومة فى اتخاذ تلك الإجراءات . وبذلك يتفادون الفوضى وهى أعظم الشرور . وبواسطة مثل هذه المقاومة المرخص بها والفعالة يمنع الجور وتبطل ضرورة الالتجاء إلى القوة فى حكومات الغالبية المتحالفة . ويترتب على ذلك أن تصبح المواءمة مبدأهم الواقى بدلا من القوة . والغالبية المتحالفة إذن أفضل لتوثيق روابط الحرية وضمانها لأنها

أصلح لمنع الحكومة من تجاوز حدودها الملائمة ولقصرها على التزام غايتها الأساسية وهى حماية المجتمع وانحراف الحكومة إلى تجاوز حدودها الملائمة هو الذى يعرض الحرية للخطر ويهدد أمنها . ورد الفعل القوى من حكومات الغالبية المتحالفة ضد هذا الانحراف هو الذى يحبب أنصار الحرية فيها .

هذه هى المزايا العددية والهامة للغالبية المتحالفة على الغالبية العددية ولا يرد على الأولى إلااعتراضان . أولهما أن من العسير تكوينها ، والآخر أنه من المتعذر الحصول على اتحاد بين المصالح المتصادمة حيث تنعدم هذه المصالح ويشتد تباينها . أو إذا لم يحدث ذلك فإن العمل لتحقيق هذا الغرض بقدر كاف من الدقة يتأخر إلى حد لا يلائم حالات الطوارئ العديدة والخطيرة التى تتعرض لها كل المجتمعات . وهذا الاعتراض معقول ويستحق اهتماما أوفى مما ناله حتى اليوم .

إن تباين الآراء فى عظم مسائل السياسة عادة تباين كبير ، وليس مما يدهش عند نظرة بسيطة إلى موضوع ما أن يتبادر إلى الذهن تعذر اتحاد مختلف المصالح المتضاربة فى المجتمع على أن خط واحد من خطوط هذه السياسة – أو أن حكومة شكلت على مثل هذا المبدأ تكون من البطء فى حركتها ، ومن الضعف فى أساسها بحيث لا يقدر لها النجاح فى العمل . ولكن رغم أن هذا الاعتراض يبدو لأول نظرة معقولا فإن النظرة الأكثر تأملا ستظهر أن هذا الرأى خاطئ ، فمن الحق أنه عندما لا تدعو الضرورة العاجلة يصعب اتفاق جميع أولئك الذين يختلفون على أى خط واحد من خطوط العمل . فكل منهم سيصر طبعا على سلوك السبيل التى يرى أنها الأفضل . ومن قبيل الاعتزاز بالرأى لن يكون مستعدا لأن يخضع للآخرين . ولكن الوضع يختلف عندما تدعو ضرورة عاجلة للاتحاد فى عمل مشترك ما ، كما يثبت المنطق والتجربة معا . فعندما يتحتم عمل شيء ما – وعندما لا يمكن عمله إلا بموافقة الجميع المتحدة – فإن ضرورة الحالة سترغمهم على المواءمة – مهما يكن سبب تلك الضرورة . وفى كل المسائل المتصلة بالعمل تكون الضرورة هى الدافع المتحكم وعندئذ تكون المواءمة فى هذه الحالات بين الأطراف شرطا لا غنى عنه للعمل . فهى تمارس تأثيرا مسيطرا يمهد لحملهم على الأذعان لرأى ما أو طريقة ما للعمل .

ولكن لتكوين تقدير أصح للقوة الكاملة لهذا الباعث على المواءمة يجب أن نضيف أنه فى حكومات الغالبية المتحالفة يلتزم كل قطاع - لكى يرجح مصالحه الخاصة - بأن يسالم الآخرين بإظهار الاستعداد لترجيح مصالحهم . ولهذا الغرض يختار كل فريق أولئك الذين يمثلونه ممن وهبوا من الحكمة والوطنية والخلق القوى ما ينتزعون به ثقة الآخرين . وتحت هذا التأثير ومع وجود ممثلين توافرت لديهم المؤهلات لتحقيق الغرض الذى اختيروا من أجله تصبح الرغبة الشاملة هى تنمية مصالح الجميع المشتركة ، ويترتب على ذلك أن يصبح التنافس بين من يجب أن يصل خضوعه إلى أقصاه فى سبيل الخير العام لا من يجب أن يقتصر خضوعه على أضيق الحدود . وهكذا لا يعد التنازل بعد تضحية ، وإنما يصبح إرادة حرة مقدمة إلى محراب الوطن ويختفى اسم المواءمة . وهنا تكمن الصورة التى تميز حكومات الغالبية المتحالفة تمييزا صارخا - عن حكومات الغالبية العددية . ففى الأخيرة يرفع جمهور كل قطاع فى الصراع - لنيل الرقابة على الحكومة - إلى السلطة الفريق الذى يحسن رسم الخطط . الماكر المستهتر الذى يقتصر فى ولائه لحزبه على ضمان سطوة هذا الحزب بدلا من استهدافه خير المجموع ، وإلى هذا ربما يعود الفضل فى أن الأساس الذى تستند عليه حكومات الغالبية المتحالفة أكثر صلابة . والطرازان من الحكم فى النهاية يعتمدان عند الضرورة على القوة التى هى سند حكومات الغالبية العددية ولا ترضى عنها الغالبية المتحالفة إلا بسبب الضرورة . وهى قوة ليست أكثر عتوا من القدر اللازم لإلزام القطاعات المختلفة فى حكومات الغالبية المتحالفة على الرضى بالمواءمة . وهناك مع ذلك فارق كبير فى الدافع ، الشعور ، العون الذى يميز استخدام القوة فى الحالتين . ففى إحداهما تمارس القوة بتلك النفور والعداء اللذين يلازمان الاضطرار إلى اتخاذ إجراء يعد ظلما وجورا يقترن بالرغبة الصادقة فى وقف استخدام القوة عند أول فرصة مواتية . أما الأخرى فإن القوة تستخدم فى تعمد وارتياح بزعم باعث وطنى مجيد ، دافعة الجميع إلى الإذعان لكل ما يتطلبه الخير العام .

(٧)

العوامل الاجتماعية المحددة للرأى العام
ألفريد ماكلنج لى [١]

لا ينقطع فى المجادلات السياسية والاقتصادية بالولايات المتحدة تصادم وجهتى النظر المتعارضتين فى التنمية الاقتصادية اللتين تزهوان باسمى «العمل الفردى الحر» و«العمل الجماعى» . وتصورهما العبارات المقتبسة الآتية :

«إن الأسباب التى تدعو كبار الصبية إلى شدة التمسك بالعمل الفردى الحر هى أنه يعنى أنهم ستكون لهم حرية استغلال العمال» .

«إن الساسة دعاة النظام الجديد تقدموا كنصل الرمح طريق العمل الجماعى خلال الأعوام العشرة الأولى . ويضطلع بهذه المهمة الآن «مؤتمر الهيئات الصناعية» بمعاونة ليست يسيرة من الحكومة الفيدرالية الحالية : حكومة ترومان .

وهذه الأقوال نموذج للدعايات الخاصة بوجه من وجوه الصراع الرئيسية فى سبيل السلطة فى الوقت الحاضر بالولايات المتحدة الأمريكية وفى باقى أنحاء العالم الذى تم تصنيعه .

والجملة الأولى التى استشهدنا بها هى لعامل بمصنع فى ولاية إنديانا خلال حديث مع باحث صناعى . والثانية مقتبسة من خطاب لنائب الرئيس المختص بالعلاقات العامة فى «جمعية أصحاب المصانع الوطنية» وهى أهم اتحاد صناعى فى البلاد .

فأصحاب المصانع وغيرهم من رجال الأعمال يدافعون عن «العمل الفردى الحر» أو «الاقتصاد التنافسى» ويصفون أنفسهم بأنهم يحققون الخير العا م . وهم متهمون بأنهم يعملون لإقامة نظام متكامل وطنيا ودوليا يرمى إلى رفع الأسعار أى ديكتاتورية الرأسماليين المحتكرين .

---

(١) عن مجلة «International Journal of Opinion and Attitude Research» ١٩٤٧ ، ١ ص ١٢ - ٢٩ .

أما زعماء نقابات العمال والساسة الذين يعطفون عليهم فيدافعون عن «العمل التعاونى» أو «الديموقراطية الاقتصادية والسياسية معا» ويصفون أنفسهم بأنهم يحققون الخير العام . وهم متهمون - كما أتهم من قبلهم - بأنهم يعملون لإقامة دولة جماعية وديكتاتورية سياسية تسيطر على كل شيء .

وهناك متحدثون آخرون فى مكان ما بين زعماء أولئك العمالقة المتحاربين يتطلعون بخوف إلى المشروعات الضخمة ، كما يتطلعون بنفس الخوف إلى نقابات العمال الضخمة وإلى الحكومات الضخمة . وفى عالم تتزايد به أهمية الجماعات التى تقو م بالضغط لا تغفل الأهمية الرئيسية للطبقة المتوسطة غير المنظمة التى يتضاءل شأنها ككتلة من أنصار احتماليين يطمع فيهم الفريقان - الإدارة ونقابات العمال - على السواء ، ولكنهم بحكم التقاليد يعدون من المؤيدين للإدارة أو على الأقل لكبار أصحاب الأموال . و«خطوط» هذه الدعاية ليس موضوع هذا البحث . ولكن ما يعنينا هنا هو كيف أن وجهات النظر المتعارضة المتعاركة هذه يمكن أن تنمو فى عقول عدد كبير من الناس المفروض أنهم يشتركون فى ثقافة واحدة . فهى ليست مجرد ابتكارات ابتدعها دعاة مهرة لصالح الباحثين عن السلطة من أصحاب المصالح أو نقابات العمال أو الطبقة المتوسطة حتى لو بذل فى رسم تفاصيلها قدر كبير من الهمة والذكاء . إذ أن هذه «الخطوط» عميقة الجذور فى المواقف والعواطف المشتركة التى تعمل كنماذج لإضافة الطاقة وهى نماذج رئيسية لكل تجمع السلطة الاجتماعية .

فما هو الوضع والنظام الآلى اللذان تطورت فى نطاقهم وجهات النظر المتعارضة والتى يتمسك بها الناس مع ذلك تمسكا عميقا ؟ إن الساسة ورجال العلوم السياسية يشيرون إلى «طقس الرأى» . أما الاجتماعيون وعلماء الأجناس فيشيرون إلى «الثقافة» . ولكن ماذا نعنى فى مزيد من الإسهاب بهذه التعبيرات؟

إن الثقافة إدراك بسيط نسبيا ، ولكنه فى نفس الوقت معقد تعقيدا شديدا . أنه تعبير شامل لكل نماذج السلوك التى تم اكتسابها اجتماعيا وتم تناقلها اجتماعيا . إنها الصورة الخلفية للحقيقة المقررة أن الناس فى جماعة معينة أو فى مجتمع معين يميلون إلى أن يتفاعلوا تفاعل متشابها أمام نفس البواعث المثيرة . ولكن هذه ليست إلا نقط البداية للإدراك الكامل للثقافة كنتيجة إجمالية مباشرة للعوامل الاجتماعية المحددة للرأى العام . فإن لكل جماعة أو طبقة أو طائفة

ثقافتها ومن ثم خصائص فكرية تختلف عن خصائص الجماعة أو الطبقة أو الطائفة الأخرى . وتضاف إلى ذلك مشكلة الانحرافات الشخصية عن مثل تلك المقاييس من السلوك . ولنصور طابع هذه التغيرات الجماعية والشخصية فى الثقافة كما يلى :

إن الأخلاق الدينية التى يقرها الزعماء فى الولايات المتحدة عريضة وعامة . فهم يصفون الحد الأدنى الجوهرى للتدين بأنه الإيمان بالله وأثر الصلاة والحاجة والتردد على الكنيسة ، وإلى حد ما الخلود الشخصى الذى يتحقق بالانتماء إلى الكنيسة (أية كنيسة «معترف بها») وعقيدتها وسلطة أحكام الدين التى تلزم بتنمية احترام الفرد والمجموع . والهيئات الدينية الأخرى اليهودية والكاثوليكية والبروتستانتية وغيرها تسلم - إذا كان معترفا بها اجتماعيا - بالقواعد العريضة العامة المتفق عليها من ثم تقدم شعاراتها الخاصة بالأخلاق الدينية للمجتمع من زاوية عقائدها التقليدية وممارستها الخاصة ، وتقدم كل شعار - طبعا - على أنه الصيغة الحقة الوحيدة .

كيف يكون رد فعل عضو عادى مقيد فى سجلات الطائفة «الميثودية» لشعار الأخلاق الدينية للمجتمع الذى يعيش فيه والتى ربى على أن يتذكرها ويبجلها ويعيش بها ؟

ودعنا نفرض أنه عامل من عمال الصلب . وعضو فى نقابة العمال . وزوج وأب . وممارس للعبة الكرة الخشبية المدحرجة ، ومن هواة تربية الحمام . وعازف البيانو من مستوى متواضع ، وممن اشتركوا فى الحرب العالمية الثانية ولاعب «بوكر» . فإنه ينزعج أحيانا أحيانا انزعاجا طفيفا من الطريقة التى يحاول بها قسيسه أن يدخل الأعمال السلمية التى يزاولها أصحاب العمل وأعضاء نقابة العمال تحت طائلة عقاب خلقى غامض ، وأن يفرض عقابا مخففا على الفريقين .

جزاء الاخلال بالأمن العام . وقد سبق أن سمع هذا العامل مناقشات زعماء العمل عن قدرة رجال الدين الذين يناصرون نقابات العمال فى أية ملة . وأنصت إلى أحاديث ألقيت فى اجتماعات هواة تربية الحمام بشأن تشارلز داروين . وكيف استخدم سجلات تربية الحمام كجزء من الدليل على التطورى العضوى (نظرية النشوء والارتقاء) وهى فكرة ينسبها قسيسه مباشرة إلى الشيطان ، ولما كان القسس يتناوبون العمل فيجيئون ويذهبون لم يدهش من أن كنيسته فى بادئ الأمر

قد اعترضت على كل الحروب إلى ما قبل ٧ من ديسمبر ١٩٤١ ثم قررت أن ضرب ميناء هاربر بالقنابل قد جعلت من الحرب العالمية الثانية حربا «مختلفة» . وهو يعلم أن مذهب «الميثودية» يستفظع «البوكر» وكل أنواع القمار الأخرى فى حين أن بعضا من أخلص أصدقائه يلعب «البوكر» معه مرة فى الأسبوع .

ولكن هذا العضو العادى المقيد فى سجلات الطائفة «الميثودية» يندر أن يطول تساؤله عن كل هذه المتناقضات وعن غيرها إذا خطر لزملائه فى الجماعة التى ينتمى إليها أن يلجأوا إلى من يكون قد درس هذه المسائل دراسة موضوعية . وقد تفقم أزمة شخصية كالانفصال عن زوجته أو اتهامه بجريمة ما أو انهياره صحيا - قد تفقم شعوره بعدم الأمن وقلقه . وتجعل تعرضه لحالة عصبية أكثر من مجرد احتمال . ولكن فى الأوقات «العادية» فإنه يبدو شخصا متزنا سيطر بنفسه على إدراكه لأى من مثل تلك المتناقضات واستعد بالتدريج للاندماج فى ثقافة المجتمع الذى ينتمى إليه ، وهى ثقافة تشبه الثوب المحاك من رقع ورتوق مختلفة . وهو يمارس حياته كما يمارسها معظم الناس فى ظل ثقافة معقدة . فهو يؤيد بعض القيم التى اعتاد أن يجدها فى «الميثودية» وفى التردد على الكنيسة . وهو أيضا يستمر على النضال فى سبيل النقابة التى ينتمى إليها إلى الحد الذى يرى زملاؤه فيها أنه ضرورى . وهو يقبل بعض آراء «داروين» عن التغير العضوى والانتخاب دون أن ينسب تلك الآراء إلى «داروين» . وهو يؤمن بأنه عاون فى إنقاذ المسيحية كجندى فى الحرب العالمية الثانية . ويثابر على لعب «البوكر» . كما أنه يثابر على الانتماء إلى ثقافات فرعية شائعة فى عدد كبير من جماعات أخرى لم تذكر هنا . فإذا أصبح تناقض ما واضحا ومزعجا له ، فإنه يحس بمشاعر من الإثم إزاء ذلك التناقض أن يتمكن من أن يكبح هذه المشاعر باستعادة بعض العبارات التى درجت إلى إحدى الجماعات التى ينتمى إليها على تناقلها مثل : «ما من فائدة فى أن أظل من صبية الكشافة (أى مثاليا كالصبية) مثابرا على هذا التفكير طيلة حياتى ، أو «أن القسيس قد يكون شخصا عاديا مع زملائه فى الاجتماعات العادية حتى لو وضع فى بيته واجهة من أدوات الكنيسة لكى يحتفظ بسمات عمله فيها .

وهذا التصوير لا يختلف اختلافا هاما عن غير ذلك من الأمثلة التى يمكن اعطاؤها عن أفراد يختارون على نطاق واسع من جماعات دينية أخرى . فهو تصوير

لا يعدو الايحاء بالوسائل التى تتبعها الجماعات لفصم الشخصية ، ولكن يشير أيضا إلى الغشاء المعقد تقيدا كبيرا الذى يطوى الثقافة الرئيسية والثقافات الفرعية والنظام الاجتماعى والذى يجب على الأفراد أن يتوافقوا معه .

كما يجب على الأشخاص أن يمارسوا عملهم فى المجتمع الحديث طبقا لأوضاعه .

ولنحاول أن نختار أنماط الثقافة المؤثرة فى المثل السابق . فهذه الأنماط بحسب الظاهر أربعة كما يلى :

١ - نمط مجتمعى : الآراء الدينية العامة للجمهور وغيرها من التقاليد والقيم الخلقية وشعاراتها التى تنتشر بواسطة تلك القطاعات المجتمعية الكبيرة كالمنتمين إلى طائفة عامة فى النظام المجتمعى (مذهب دينى مثلا) .

٢ - نمط جماعى : الآراء الدينية للجمهور والسير الشعبية وأساليب الحياة المألوفة فى محتلف الجماعات التى ينتى إليها ذلك الفرد العادى المقيد فى سجلات الطائفة «الميثودية» .

٣ - نمط شخصى : الآراء الدينية الشخصية وغيرها من الممارسات والعواطف الشخصية التى يبديها فى حياته العائلية وفى الكنيسة وفى أى مكان . وقد تنحرف أو لا تنحرف عن النماذج المجتمعية والجماعية إلا أنها تعد معبرة عنه وممثلة له هو ذاته .

٤ - نمط ذاتى : المواقف الواعية والمكبوتة . أو غير الواعية الى يتمسك بها بشأن المسائل الدينية وما يتصل بالدين .

والنماذج الخاصة بقطاع معين ذى أهمية كالقطاع الدينى تتضمن على هذه المستويات من الثقافة علاقات ثابتة - فى نوع من النسبية المجتمعية - بالنماذج على كل المستويات الأخرى فى نفس القطاع وبتلك النماذج فى القطاعات الأخرى ذات الأهمية . والنماذج المجتمعية - وخاصة النماذج الخلقية - ذات تأثير إلزامى على الآخرين من نوع أصولى ذى شعائر طقسية ، فالجماعات والأشخاص ملزمون بأن يسوغوا ما يمارسونه من الاتجاهات الشعبية وأساليب الحياة والآراء الشخصية وغيرها من الممارسات ، بل حتى المواقف والعواطف تسويغا عقليا منسجما مع التقاليد المجتمعية وخاصة الخلقية منها . وعندما

يصبح هذا التسويغ العقلى - ولو أنه يستند إلى التقاليد والثقافة - رقيقا هشا فإن شعارات القيم الخلقية قد تبقى على ما هي عليه ، ولكن هذه القيم الخلقية كقاعدة تفكير وعمل يحتمل أن تخضع لإعادة تحديدها لكى تتأقلم مع الوضع الجديد . وتصبح نصوص القواعد المذكورة فى خدمة الأسانيد والقيم الجدية أو المعدلة . وتاريخ الكنيسة حافل بالأمثلة الكثيرة على هذا النوع من التأقلم المجتمعى التلقائى .

ويبدو من بعض الكتاب أن الثقافة تنشأ بنوع ما من عناصر طليقة طافية ينتقى منها أعضاء المجتمع كمجموع ما يقع عليه اختيارهم من تلك العناصر . وواقعة تنوع تلك العناصر مسلم بها ، ولكن إلى أى حد يتيح ذلك التنوع فى عوامل الثقافة للفرد مجالا فعليا لاختيار النماذج التى يمارسها ؟

فأساليب الحياة المنافية للقيم الخلقية والقيم الخلقية المتعارضة مع أساليب الحياة تبدو فى الثقافة التى تنطوى على رقع ورتوق مختلفة والتى تبنى شخصياتنا المنقسمة بناء واهيا . ولكن الرأى القائل بأن الأشخاص يختارون عناصر الثقافة اختيارا مستندا - بدرجة كبيرة - إلى التعليل العقلى فى أثناء تفاعل نضوجهم ليس له إلا سند ضعيف فى وثائق تاريخ الحياة . فبمجرد تألق نماذج الثقافة الفرعية كظواهر لجماعات يبدأ فى الاظلام احتمال «بديل ثقافى» بأى معنى تدركه الاختيارات العقلية الحرة المألوفة .

ولكن قبل أن نستطرد فى تحديد خصائص الثقافة على المستويات المجتمعية والجماعية للنظام الاجتماعى وصلتها بالنماذج الشخصية والذاتية يجب أن نناقش فى إيجاز التعبير بكلمة «جماعة» والتعبيرين المتصلين به وهما «طبقة» و«طائفة» .

ويجب أن نلاحظ أن «الجماعة» لا ينظر إليها على أنها فكرة باتة مبتورة الأطراف ، كما يحتمل أن يمحى استخدام هذا التعبير فى هذه النقطة . فالجماعة هى كل مجموع من شخصين أو أكثر من الناس لهم نوع من مصلحة أومصالح متشابهة ، والذين لذلك - وفى نطاق هذا المظهر من حياتهم الذى وصف بهذا التعريف الضيق نوعا ما - يشتركون معا فى تفاعل اجتماعى بالتساوى وديا فيما بينهم ، وإلا فبنسب مفهومة . وبصفة عامة . فلأن المصالح التى يعملون لتحقيقها أضعف صلة بوظائف أعضاء الجسم الإنسانى (أقل انخراطا فى المشكلات الرئيسية لحفظ الجنس والتناسل) أو لأن أعضاء الجماعة أقل فرصا للاشتراك فى

العمل مواجهة فإن طابع التفاعل الاجتماعى يصبح أضعف كما يصبح تحديد السير الشعبية وأساليب الحياة المألوفة الجماعة أقل وضوحا . ففى الجماعات الصغيرة تكون السير الشعبية وأساليب الحياة أوثق صلة بآراء الأفراد الذين تضمهم الجماعة وممارستهم الأخرى . وفى الجماعات الكبيرة تكون خصائصها مشابهة للتقاليد والأخلاق أو تحمل طابعها . وفى مثل تلك الجماعات الكبيرة كالطبقات الاجتماعية والطوائف والقطاعات التى تمثلها المذاهب الدينية الرئيسية تتخذ نماذج الجماعة - كما رأينا - طابع الطبقة أو الطائفة وشعارات التقاليد والأخلاق المجتمعية .

ومن الضرورى إضافة بعض التعليقات على الطبقات والطوائف الاجتماعية . إذ يعرف و. لويد وارنر وبول س . لنت فى كتابهما (الحياة الاجتماعية فى جماعة عصرية) الطبقات الاجتماعية بأنها « فصيلة أو أكبر من الناس يتجه الاعتقاد إلى أنهم من مرتبة اجتماعية تتفاوت علوا وانخفاضا . وطبقا لذلك يضعهم أعضاء الجماعة فى تلك المرتبة . وأعضاء طبقة ما يميلون إلى التزاوج فيما بينهم ، ولكن قيم المجتمع تسمح بأن يكون هذا الزواج بين مستويات متفاوتة . والنظام الطبقى يشترط أيضا أن يكون للطفل المولود نفس الوضع الاجتماعى الذى لوالديه . كما أن النظام الطبقى يوزع الحقوق والمزايا والواجبات والالتزامات بغير مساواة بين المنتمين إلى مراتبه الدنيا والعليا وقد وجدوا نحو ست طبقات اجتماعية كأمثلة على ذلك فى «مدينة أمريكية» .

والطوائف أكثر حرصا على الدقة فى تعيين الحدود من الطبقات . فهى تحرم الزواج من خارج الطائفة . وأعضاؤها يتمسكون بنماذج أخرى بالتبادل مع أعضاء طائفة أو طوائف أخرى ، وهى بوجه عام نماذج أشد دعوة إلى الالتزام بها وأكثر دفعا إلى الالتئام والتماسك من نماذج الطبقة . وتعرف حدود الطائفة فى الولايات المتحدة بمقاييس التحقق من طوائف البيض والزنوج التى تهتم بما تتضمنه رقعة عنوان الشخص أو بطاقته أو اللوحة التى تحمل اسمه على ضوء تلك المقاييس أكثر بمراحل من اهتمامها بالخصائص المتصلة فعلا باللون أو بالخصائص العريقة الأخرى .

ومن وظائف الطبقات والطوائف والقطاعات الرئيسية المنظمة وضع الاتجاه المألوف لتقاليد المجتمع وقيمه الخلقية . وبعض الجماعات الأكثر إدراكا لوضعها الطبقى (كالشيوعيين وغلاة الجمهوريين اليمينين المتعصبين مثلا) لهم اتجاهات

شعبية وأساليب حياة يقرنونها بـ«أهداف الطبقة» ، ولكنها أكثر تمثيلا للجماعات التى ينتمون إليها منهم لطبقاتهم .

إن لاهتمامات المهن المحلية والجماعات المجاورة للكنيسة ذات النفوذ فى المنطقة أنماطًا تطبق على «المستوى الجماعى» بوضوح كبير ، وهى أنماط تتعارض مع «المستوى المجتمعى» و«المستوى الشخصى» . ومن المسلم به ويقع عليه التأكيد أن التمييز بين الظواهر الشخصية وظواهر الجماعات الصغيرة كما تظهر جهرا لا يكون إلا تمييزا تعسفيا فحسب . كما لا يكون إلا كذلك بين ظواهر الجماعات الكبيرة والجماعات المجتمعية . وكما فعلنا فى وصف وتصوير المعالم الاجتماعية والمجتمعية الأخرى فإننا نعنى هنا بالظواهر التى قد تكون مستمرة مترابطة والتى قد تختار لها أنماط تمثلها تمثيلا مجزيا ، أنماط مسلم بصلاتها بذلك الاستمرار المترابط أو بغيره من البيانات الجوهرية للنظام بأجمعه . وقد يرى البعض أن هذا النوع من التحليل غليظ رغم دنوه الوثيق من الملاحظات المحسوسة ، ولكن التحليلات الباتة إذا استخدمت تصبح أكثر دقة لتحديد الصلات الهامة التى أشرنا إليها .

ومن هذا الإدراك للجماعات دعنا نلتفت إلى النماذج التى تبسطها المجتمعات والجماعات كأجزاء من ثقافتها – مثل التقاليد والقيم الخلقية والسير الشعبية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا – التى يبرز الرأى العام منها .

١ - المستوى المجتمعى

إن الملامح الثقافية التى توجد متميزة على هذا المستوى أى التقاليد هى نماذج مألوفة (يعبر عنها بالكلام أو بغيره) مسلم بها فى مجتمع على أنها الاشكال السليمة لسلوك الفرد كما يجب أن يكون ، تقابلها تقاليد معترض عليها خاصة بسلوك الرجل كما لا يجب أن يكون ، وهى تتضمن الأنماط المجتمعية للرأى العام أو آراء الجمهور .

والتقاليد هى أنماط مثالية للتفكير والسلوك نشأت عقب فترات طويلة من الزمن خلال عمليات التعميم والتسويغ العقلى من النماذج التى تحترمها الجماعات والطبقات والطوائف وغيرها من قطاعات المجتمع الأخرى وتعدها مثالية . وهذه التقاليد تبدو فى أسلوب يزعم أنه قاطع جازم ، ولكنها تتميز بأنها عامة وبراقة ، سواء من جهة الشعار أو التصور . وبأنها مطلقة غير محددة إشارة إلى إمكان

السماح بإلغاء ما يقضى التسويغ العقلى بإلغائه منها فى نطاق الحدود العريضة لما يظهر من معارضة لها أو تناقض معها .

والتقاليد تهيئ نماذج للسير الشعبية للجماعة وللممارسات الشخصية ولمواقف الفرد تجاه ذاته . واللغة العامة لبلد ما - أى «لغة القاموس» التى يضمها قاموس موجز صغير - والتى لا يشتمل على التعبيرات الدارجة وغيرها من الكلمات الخاصة بهذه الجماعات والصيغ والمعانى وطرق الإلقاء - جزء كبير من تقاليد مجتمع ما . فأعضاء أية جماعة أخرى لا يتكلمون تماما بنفس الطريقة .

ولكن جمهور كل الجماعات يستخدمون الكلمات بطرق تشبه تقريبا «لغة القاموس» وتشبهها شبها يكفى للتسليم بأنها «نفس اللغة» .

والقيم الخلقية تقاليد استقر الحكم على أنها تحقق خير المجتمع فى التقاليد المركزية المتكاملة التى تهيئ درجة من تنظيم مثالى للثقافة على المستوى المجتمعى . وبتعبير آخر إنها القيم العامة المألوفة بشأن الصحيح والباطل والواجبات والحقوق . والمحرمات الخاصة بالمسائل التى تهم المجتمع التى توارثتها أجيال عديدة ، وسنت عادة فى شكل مجموعة من الوصايا والقوانين الخلقية والقواعد الدينية الخاصة بالمبادئ الخلقية . وهى تحتوى عناصر ضخمة من مبادئ التقشف والمبادىء الإنسانية ومن الالتزام بالشكليات أو الشعائر الطقسية . وهى تسيطر على تعاليم ممثلى المجتمع - كالأهل والقسس والمعلمين والمتحدثين باسم الحكومة - حتى ولو أنها عادة على طرفى نقيض مع أساليب الحياة المألوفة التى يمارسها أولئك الممثلون والتى تمارسها الجماعات التى يعملون فى خدمتها : وكأن لسان الحال : «اعملوا ما أقوله لكم لا ما أعمله أنا !» فالقيم الخلقية تمثل تبلورًا لتطلعات المجتمع التقليدية» .

وتبدو أهمية القيم الخلقية الرئيسية : (١) فى صياغة المثل الذاتية العليا للشباب ، وعلى هذا النمط صياغة نواة المثل الذاتية العليا التى تمارس فى الحياة طبقا للأصول المقررة . (٢) وفى وصف الواجهات المجتمعية للأوضاع والجمعيات (الأوضاع المحلية التى تتميز كأمثلة على هذا النوع من الأوضاع) وواجبات من يعملون فى نطاق هذه الأوضاع كالأطباء والأمهات والآباء وزعماء العمال والعلماء ورجال الأعمال وكبار موظفى الحكومة و(٣) تزويد الدعاة باللوازم الرئيسية لعملهم - كالفضائل البراقة والعموميات الخاصة بالإساءة إلى الغير .

والمبررات الحقة والإدانات التى تفسر تفسيرا مناسبا ومتنوعا لكى تشجع أو تعوق الأشخاص والهيئات وخطط العمل . والقيم الخلقية لا يتحتم أن تطابق أساليب الحياة المألوفة التى تمارسها الجماعات الرئيسية فى مجتمع ما أو العواطف التى يتمسك بها الناس أنفسهم . فموضوعات مثل الدين والأخلاق والاقتصاديات و«العلوم الاجتماعية» - لا العلوم البحتة - تهتم إلى حد كبير بايجاد مسوغات عقلية للعلاقات بين القيم الخلقية وأساليب الحياة المألوفة والعواطف .

إن دور القيم الخلقية وتعريف الوضع الاجتماعى هما الشعاران لما يجب أن تكون عليه تلك الأدوار والأوضاع . انها الواجهات البراقة للآمال المجتمعية التى تغطى بصفة عامة المنظمات البشرية والعاملين الذين يمارسون مختلف الأعمال . وعلى أساس هذه الواجهات يجذب الشباب نحو المهن وغيرها من الدعوات المختلفة . وإذا لم يتم انتقالهم من إدراك القيم الخلقية إلى إدراك أساليب الحياة المألوفة بالتدريج وبحكمة فقد يترتب على ذلك أن تخيب آمالهم أو حتى أن تدفعه ثورة الغضب إلى التحول عنها . وكما سوف نرى فإن الناس يعيشون فى مجتمعاتهم وهم يسايرون ما تقضى به أساليب الحياة المألوفة أكثر من مسايرتهم لما تقضى به القيم الخلقية رغم أن هذه القيم الخلقية تحتل مكانا عظيما فى النظام الاجتماعى عن طريق دورها فيما يمارسه الناس من تعليلات عقلية وتبريرات وتخيلات مسرحية للسلوك . وأحيانا يستدعى الأمر قدرا من الجهد الدءوب الواعى للعثور على فتوى أو - وهو جهد أكثر فاعلية وتلقائية - اثارة بعض التشكيك فى الفوارق الاجتماعية لكى نعطى أساليب الحياة المألوفة فى الجماعة والتسويغات العقلية والمجتمعية «المناسبة» وعلاقاتها «المناسبة» بالقيم الخلقية فى المجتمع . وبتعبير آخر - فى حدود الاهتمام بالفوارق الاجتماعية - فإن ما لا يعرفه الجمهور عن أساليب الحياة التى يعيشها محررو الصحف أو الأطباء أو الطهاة المحترفين من المفروض أنه «لا يؤذى شعورهم» . ومن المؤكد أنه «لا شأن لهم به» . فالجمهور يعرف عادة عن الواجهات المجتمعية وعن معاطف أولئك الوجهاء أكثر مما يعرف عن سلوكهم الفعلى .

إن الفارق الاجتماعى - وهو عامل كبير فى الابقاء على هذه التناقضات - ينتج من اقتصار الجماعة وانطوائها ، ومن الافتقار إلى إدراك أشياء كثيرة تتخلف عن الأنماط المستقرة . إنه الجهل الاجتماعى . انه ما دفع مثل ذلك المواطن

الصريح الدقيق لنكولن ستيفنس إلى أن يقول بعد أن راقب ما يحدث فى مجتمعه . «لقد رأيت أن الهيئة التشريعية ليست هى ما كان يفكر فيه أبى وأساتذتى ومن يكبروننى سنا . بل انها ليست حتى ما قررته كتب التاريخ التى قرأتها وكتبى الأخرى . . . لم تحقق شيئًا مما كان مفروضًا أن تحققه . إن أشد ما يزعجنى مع ذلك أن أحدا من أعضاء هذه الهيئة ليس لديه أى شعور قوى عن النزاع بين الصورتين» ولما جوبه «ماكس بيربوهم بالأدلة على الفارق الاجتماعى تحدث عن الهواء المتعفن الخفيف فى جامعة أكسفورد ، وذكر كيف أنه إذ «يطوى الواحد ويوهنه يبقيه غير مكترث للحقائق الحادة الفظة التى تدعو إلى العمل الفورى فى العالم الخارجى» . ولقد حذر «وليم نيكولز» – وكان إذ ذاك مديرا لتحرير صحيفة «هذا الأسبوع» الكتاب بقوله «كلما صعدتم درجات الرقى فى عملكم خلفتم وراءكم وابتعدتم عن الناس الذين تتوقف عليهم كل عوامل السلطة والنفوذ والنجاح . . إذا لم تتنبهوا فإنكم ستنسون أولئك الناس البسطاء الصادقين . . وستفقدون الموجة الطويلة التى كانت تتردد بينكم وبين حياتهم وأفكارهم ، وإذا حدث هذا فإن كل الحيل وكل التحقيقات الخاصة بتبين ميول القارىء وكل الابتكارات الطباعية فى العالم سوف تكون بلا جدوى» .

إن القيم الخلقية – وهى الآراء المركزية أو التقاليد المتكاملة على المستوى المجتمعى للثقافة – يتطلع إليها أعضاء مجتمع ما على أنها المقدمات أو الفروض المنطقية الرئيسية العريضة للمناقشات والأعمال على مستوى مجتمعى . والمتحدثون فى هذا الموضوع يحاولون أن يروجوا لشروح تدهش أكبر عدد ممكن من الناس باعتبار أن كلا منهم سيردد أن هذه الشروح تدهش أكبر عدد ممكن من الناس باعتبار أن كلا منهم سيردد أن هذه الشروح هى «نفس ما كنت أفكر فيه» . ومثل ذلك الفرض الخلقى الرئيسى فى مجتمعنا الذى ينهى كلا منا عن أن يقتل يصبح فى وقت السلم مركزا لشكل متناسق كامل من أشكال المثل الخلقية العليا وغيرها من التقاليد . ولكن فى وقت الحرب يسمح غموض القيمة الخلقية كما تسمح الاعتبارات المناسبة – التى تتخذ ذريعة والراسخة فى أساليب الحياة المألوفة لدى الجماعات القوية – لكثير من الأخلاقيين المحترفين بأن يقروا ضرورة القتل . وهذا – مع ذلك – لا يمنع الشعور بالمثل الذاتية العليا لدى من يشتركون فى الحرب من المغالاة فى عرض حالات كثيرة على المحللين

النفسين . وهناك أمثلة كثيرة مشابهة فى مجالات العلاقات العنصرية ، والتربية ، والديموقراطية ، والعلاقات الدولية ، وغيرها من مجالات القيم الخلقية لمجتمعنا .

٢ - المستوى الجماعى

إن السير الشعبية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا- على هذا المستوى - هى التعبيرات التى تقابل التقاليد والقيم الخلقية على المستوى المجتمعى . والسير الشعبية تتضمن آراء «جمهور معين» كما تتضمن التقاليد آراء «الجمهور» . إن السيرة الشعبية هى نمط مميز لمعالم سلوك عام وتقليدى فى جماعة ما . إنها تجريد يتولى عملية الايجاز والحذف . إنها تصوير لبناء اجتماعى ذى نموذج معين ، مشتق من السلوك المتشابة نسبيا (سواء عبر عنه بالكلام أو بغيره) الذى يمارسه أعضاء جماعة ما إزاء نفس البواعث المثيرة . وقد يشبه - أو لا يشبه - السير الشعبية فى جماعات أخرى يضمها نفس المجتمع . ويرجح أن يختلف رئيسيا فى التفاصيل عن التقاليد المجتمعية كما هى حالة الصفات المميزة فى لغة جماعة ما (العامية أو التعبيرات الخاصة أو اللهجات) . فرأى جمهور ما هو سيرة شعبية يعبر عنها بالكلام واتجاه بشأن موقف أو مسألة أو شخص أو خطة عمل يكون التعبير عنه بصورة خاصة .

وترسخ سير شعبية معينة تحت ستار الاعتقاد بأن ممارستها مواتية للخير العام . وهذه السير الشعبية أسماها وليم جراهام سمنر فى كتابه «السير الشعبية» (١٩٠٧) «أساليب الحياة المألوفة اجتماعيا» . وبتعبير آخر فإن السير الشعبية تصبح أساليب حياة مألوفة اجتماعيا «عندما تتضمن حكما بأنها مؤدية إلى الخير العام للمجتمع ، وعندئذ تجبر الفرد على التزامها ولو أنها لم تنسقها أية سلطة» . ولكى يؤكد «سمنر» الطبيعة الالزامية لأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا ، فإنه يضيف أن «أساليب الحياة المألوفة اجتماعيا هى الطقس الاجتماعى الذى نشترك فيه جميعا دون أن نشعر . . وتكفى القاعدة التى تقضى بالقيام بالعمل كما يقوم به الجميع للانطباق على جماهير الجنس البشرى الكبيرة بالنسبة لجميع الأمور . ولجميعنا بالنسبة لكثير جدا من الامور» . أو - كما يقرر «روربرت بارك» و«بيرجيس» فى كتابهما «مقدمة لعلم الاجتماع» - أن الناس تحت تأثير أساليب

الحياة المألوفة اجتماعيا يتصرفون طبقا لصورة معينة ، وبذلك لا يمثلون أنفسهم كأفراد ، وإنما كأعضاء فى جماعة ما . وهذا يعيد إلى الذاكرة ما سبق ان ناقشناه بشأن كيفية انفصام الشخصيات انفصاما قد يجعل شخصا معينا يتصرف مرة طبقا لنموذج مجتمعى ، وأخرى طبقا لنموذج جماعى ، وثالثة طبقا لنموذج شخصى .

وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا عملية ومناسبة للظروف وملزمة . فإذا تناقضت مع قيم المجتمع الخلقية فإن هذه التناقضات تعد بطريقة يألفها عامة الناس مقاييس لما يسمى النفاق الجماعى . وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا وغيرها من السير الشعبيه من الشمول إلى حد أن العضو الراشد فى عدة جماعات يجد نفسه مهيأ لمعالجة معظم المشاكل التى تتضمن العلاقات الاجتماعية طبقا لنماذج الجماعات التى ينتمى اليها قبلما يلجأ إلى معالجتها بواسطة مزيد من الاجراءات العقلية . وعملية «التحول إلى النضج» فى مجتمع ما تتكون - نوعا ما - من شخص يلائم بين مثله الخلقية الذاتية العليا ، واحتياجات الصرح الذى تشيده الجماعة لأساليب الحياة المألوفة لديها ، والرغبات والحاجات الشخصية . وفى أوقات الفوضى - فقط التى تعم المجتمع تخيب السير الشعبية فى أن تهدى الأشخاص الذين ضمتهم قوالب السير الشعبية الخانقة هداية تلقائية إلى العلاقات الاجتماعية ، وإلى تحديد الأشياء التى يدركها «الذوق العام» والتى على الفرد المثالى أن يعملها . وفى أوقات الأزمات تؤكد الحيرة المترتبة عليها الطابع الشامل لمثل تلك الهداية التقليدية رغم التناقضات بين أساليب الحياة المألوفة جماعيا والقيم الخلقية المجتمعية ، والاصابات التى تتخلف عن قهر الفرد على أن يواجه مشكلات اجتماعية شاقة دون قواعد سبق إدراكها كما سبقت تجربتها اجتماعيا .

وعلى نسق الأشكال النظامية والدور الذى تقوم به هذه الأشكال التى تقدم بها الثقافة نفسها إلى الأفراد فى غلبة وسيطرة - على هذا النسق تتولى نماذج أساليب الحياة المألوفة فى السير الشعبية تحديد الخصائص «الباطنية» لمثل تلك المجموعات . فخلف الواجهة الثقافية التى أعدتها الآمال المجتمعية ، توجهها القيم الخلقية ، عن الخصائص الملائمة اللائقة أو «الضرورية» لنظام معين ، وما يشترك معه من عناصر - تتولى نماذج أساليب الحياة المألوفة فى السير الشعبية تحديد القواعد التى يعمل حقا على أساسها ذلك النظام والعناصر التى تشترك معه . وهذه النماذج - التى تتنازع نزاعا حادا على الصعيد المهنى مع المثل العليا

المنهجية التى تمليها الآمال المجتمعية (كالتقاليد والقيم الخلقية) - هى المفاهيم والصيغ المسبوكة العلمية الملائمة ، والوسائل المألوفة لمزاولة السلطة واختصار الطريق إلى القيم الخلقية ، ومعالجة التحديات ، واستغلال الإذعان والاستسلام ، والانتفاع إلى أقصى حد بالعلاقات العامة وبالعاملين فى الصناعة وأوضاع العمل الاجتماعى الأخرى .

والسير الشعبية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا ليست - إلى حد كبير - مدونة إلا فى القصص وفى الكتب غير الخيالية التى توضع عن الشعوب والجماعات التى لا توجه إليها هذه القصص والكتب أو تصدر فيها . ويلاحظ ماكس ليرنر فى أثناء مناقشة كتابى «الأمير» و«المحاضرات» لنيكلولو ماكيافيللى أن المؤلف الفلورنسى قد وفق تماما فى «تظليل وسائل الطغاة الخيرين بوصف السير الشعبيةوأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا لديهم . وكل جريرته أنه رفع القناع عنهم وكشف للعالم نظم الحكم التى كانت تعمل آليا متسترة خلف سلطة الحاكم» . وهذا - وفى معظم السير الشعبية - هو الذى يعمل على المغالاة فى وصف الوضع ولكنه يعطى بعض الإلماع إلى السبب الذى من أجله يتولى الأفراد جمع السير الشعبية ويقومون بذلك - إلى حد كبير - كنتيجة «تجربة عملية لا من بطون الكتب» . والسير الشعبية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا أشكال تبرز دوريا ، وهى متناسقة فى دقة كبيرة لتؤدى دورها لمدة معينة وفى مكان معين ، وبالأحرى فى صلابة عظيمة . وقد يسائل باحث متوافر على العلوم الطبيعية أو محام نفسه صاخبا عما «يجب عليه أن يفعل» إزاء تلك الأوضاع ولكنه عادة يجب أن يتلاءم معها إذا أراد «أن يتقدم» فى مهنته .

إن السير الشعبية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا تحدد أيضا العلاقات بين العاملين فى نظام معين أو هيئة معينة و«العالم الخارجى» ، وبين وجهات النظر العملية والاجراءات والمزاعم الخلقية التى يدعيها ذلك النظام أو تلك الهيئة كما حددها لهما المجتمع . فمثل تلك المصادمات التى تنشب بين «رجال الأعمال العمليين» و«الأساتذة النظريين» يمكن تفسيرها جزئيا بأن الأول أطبقت عليهم قوالب أساليب الحياة المألوفة اجتماعيا الخانقة . أما الآخرون فقد صاغت القيم الخلقية ممارستهم لتلك الأدوار الى يؤدونها . وفى المدارس الفنية التى تحت السيطرة الصناعية أو المهنية كمدارس الهندسة وإدارة الأعمال والقانون والصحافة

والطب – فى هذه المدارس فقط التى يمكن الجهر فيها بالحقائق تذعن التطلعات المجتمعية المثالية (القيم الخلقية) للأساتذة المتخصصين فى أساليب الحياة المألوفة لدى الجماعة فتسمح لهم بالجهر بآرائهم أثناء إجراءات التدريب الرسمى . ويلاحظ أساتذة الطب – مع استثناءات قليلة – أن حديثى السن من طلبتهم هم – فحسب – الذين يهتمون بالتحليلات النقدية البناءة الخاصة بممارسة الطب ممارسة فردية كخدمة اجتماعية . وأساتذة اللغة الانجليزية وعلم الاجتاع الذين وجهتهم القيم الخلقية وجهة معينة يكملهم ، ويلحق بهم أساتذة الصحافة والخدمة الاجتاعية الذين توجههم أساليب الحياة المألوفة اجتماعيا وجهة أخرى . وبذلك يمكن للجامعات أن تخرج مخبرين صحفيين ومحققين عن مشكلات الخدمة الاجتماعية أو فى تأهيلا «عمليا» – وأكثر إدراكا للمهنة وإن كانوا أضيق إدراكا للمجتمع .

وبالاختصار فإن مستوى الثقافة الجماعى تمثله السير الشعبية التى تتضمن آراء الجمهور . إن السير الشعبية هى أشكال سلوك الفرد كما يجب أن يكون على ضوء المقاييس المعمول بها فى الجماعة . أنها الملامح المميزة المشتركة والتقليدية للجماعة . أما أساليب الحياة المألوفة اجتماعيا فهى السير الشعبية المركزية المتكاملة . السير الشعبية التى اقترن بها حكم بأنها محققة للخير الاجتماعى بأن الضرورة تحتمها . وتتلاءم السير الشعبية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا نسبة ثقافية لمجتمع ما بتشابهها مع التقليد والقيم الخلقية وبتسويغها عقليا تسويغا يقرنها بتلك التقاليد والقيم الخلقية أو يحجبها عن النظر الفاحص الدقيق بواسطة عمليات الفارق الاجتماعى (كالتعصب الطائفى أو الحذر المهنى أو السرية أو الافتقار إلى الاتصال بالغير أو الجهل أو أمراض الوهم الخاص بمكانة الطبقة وهيبتها أو حجب الأبصار – اجتماعيا – بالآراء المبتسرة المتحيزة وبالخضوع لنمط معين) . وإذا تأملنا مثل هذه الصلات فإن المستويات المجتمعية والجماعية والشخصية يمكن أن تعد كثلاثة مستويات للتعميمات الثقافية من واقع أمثلة منفصلة للسلوك . مع حساب عامل الزمن الذى يطيل الغموض المتزايد فى مرحلة انتقال الفرد من المستوى الشخصى إلى المستوى المجتمعى . وبينما تحدد التقاليد والقيم الخلقية ما يجب أن تكون عليه النظم أو الهيئات (كواجهات ثقافية) ، فإن السير الشعبية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا تحدد ما يجب أن

تلتزم به تلك النظم والهيئات وهى تمارس عملها . فهى تهيئ القواعد لأنماط تلك النظم والهيئات وسياق عملها وسياساتها مما يعد العاملون فيها أنه حق وملائم وضرورى .

٣- المستوى الشخصى

يقصد بمستوى الثقافة الشخصى الإشارة إلى الأدلة الخارجية التى يقدمها شخص ما عن خصائص شخصيته وممارسته المعتادة وعواطفه . وهذه الممارسات التى تتضمن الآراء الشخصية تحسب فى عداد أدوار الناس كما يبدون للغير وبالمظاهر الخارجية المتصلة بها . وفيما عدا بعض مظاهر التكلف المسموح بها كالطرق الشخصية المختلفة مثلا فى الإلقاء فإن الصيغ الشخصية للمعالم والأوضاع التى يلتزمها الأفراد تشبه شبها وثيقا أنماط المعالم والأوضاع السائدة فى الجماعة والمجتمع اللذين يفترض أن الشخص يتوقع أن يخاطب جمهورهما المفترض . وإن عدد القصص القصيرة والطويلة التى كتبت عن موضوع تحكم الأدوار الاجتماعية وخاصة التى وضعها كتاب لا يصلحون لوصف مثل تلك الفترات المتدفقة الأحداث كتلك الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى - هذا العدد من القصص يشهد بحقيقة لا تثير الانزعاج عادة ، بل إنها حتى لا يعترف بها - وهى تحكم الأوضاع الاجتماعية فى سلوكنا الشخصى . واكتشاف هذا التحكم يكون عن طريق شخص سيء التلاؤم مع المجتمع أو غير متلائم معه اطلاقا . فغالبا ما تبرر الانحرافات فى سلوك شخص ما أو تغتفر بدقة تامة على ضوء انتماء هذا الشخص فى الماضى أو فى الحاضر إلى جماعة معينة عرفت عنها مثل تلك الخصائص التى تبرر تلك الانحرافات أو تغتفرها . وبعض النماذج الجماعية تتدخل أيضا لتلعب أدوارا مركزية فى تكامل شخصية ما . وهذه النماذج تميل إلى تلوين سلوك الشخص فى قطاعات اجتماعية أخرى . ويبدو هذا بطريقة مسرحية فى سلوك شخص ممن يعملون فى المصارف أو ممن يعملون فى بيع أراضى البناء ، ومع ذلك فهو تقى ورع فى نشاطه كأمين على مصالح إحدى الكنائس .

وعن طريق الممارسات تعتمد نماذج السلوك التى يثبت اجتماعيا التمثل بها عن طريق الأشخاص الذين استمدوها بصفة رئيسية من الأنماط الاجتماعية للتقاليد والسير الشعبية بعد أن عدلتها أو أضافت إليها التجارب الفردية والنتائج المستخلصة . وقد تدعى ممارسات معينة «آراء خاصة» بسبب أن التعبير عنها يتم بواسطة الكلام ولأنها تنطبق على حالات من نوع معين . وكما تتوحد المعالم على المستويين المجتمعى والجماعى بشأن بعض النماذج المركزية المؤكدة كالقيم الخلقية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا فإن الممارسات تنظم أيضا ما يقابل تلك النماذج من نماذج مركزية وهى «العواطف» . ولما كان الطابع السلوكى للعواطف غامضا ، وكان علمنا بها عن آخرين اشتقوه إلى حد كبير بالاستنتاج من ممارسات شخصية عن طريق المقارنة والتحليل فإن تعريفهم لها أكثر ملاءمة للانخراط فى مناقشة المستوى الذاتى . وفى هذه النقطة قد يجدر مجرد الإشارة بادئ ذى بدء إلى أن العواطف هى بواطن القيم الخلقية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا . وبعضها يتم الشعور به عن طريق الإدراك الواعى ، والبعض الآخر عن طريق العقل الباطن . وأتباع «فرويد» يجمعونها جملة واحدة ويسمونها «الذات العليا» وهى تنطوى على عنصر انفعالى قوى .

وكما انتهى «ليو و . سيمونز» فى كتابه «الرئيس الشمس» فإن شخصا مثل «هوبى» – فى ذلك الكتاب – ليس مخلوقا فحسب ، وخالقا عرضيا ، وحاملا (أو ناقلا) للثقافة ، ولكنه أيضا ممارس لها . أى أن «هوبى» «مخلوق مشتق من ثقافته بمعنى أن سلوكه – أعماله وأفكاره واتجاه شعوره أو عواطفه – تشكل إلى حد كبير بقالب هذه الثقافة . وإلى حد ما فإن الشخص أيضا «خالق لثقافته بمعنى أنه لن يستطيع أن يرتفع تماما إلى المستويات المثالية ، وقد يبتدىء – عرضا – بأحداث تغير – عن طريق المصادفة أو الابتكار أو الاستعارة – ويشاهد الآخرين يحاكونه فى هذا التغير الثقافى حتى يصبح سيرة شعبية أو أسلوبا من أساليب الحياة المألوفة اجتماعيا» . وعمل الفرد – يوصف أنه «حامل» ناقص نوعا ما للثقافة إلى الآخرين – عمل واضح وضوحا يغنى عن مزيد من الاهتمام ، وكممارس «للثقافة» – وهو أمر رئيسى فى تكوين الرأى والدعاية – فقد يواتيه التوفيق أو الحذق لكى يستخدم أساليب الحياة المألوفة اجتماعيا (والقيم الخلقية) لصالحه ، وذلك بأن يعدها بنظام يكفل تقوية مركزه ، أو إجبار شركائه ومعاشريه على تحقيق مطالبه ، أو حتى قد

يوحى لأشخاص آخرين بأن يبذلوا تضحيات فى سبيله . فإذا ما تبين أنه فى وضع من أوضاع المواءمة فإنه قد يتباهى فيزدرى السير الشعبية ويتجاهل أساليبه المألوفة اجتماعيا ويلوذ بالمبادىء العليا (القيم الخلقية) ، وبالحجج التى تقتضى الضرورة التذرع بها (ويحتمل أن تستقى من أساليب الحياة المألوفة لدى جماعة مسيطرة) أو بالتأييد الروحى (الذى تقدمه أو توحى به القيم الخلقية الدينية) .

ولقد أسهبنا فى عرض النتائج التى توصل إليها «سيمونز» لتوثيق صلته بمناقشة المستويين الشخصى والذاتى للتنظيم الثقافى . والمشكلة المركزية ومدار البحث فى هذه المناقشة للعوامل الاجتماعية المحددة للرأى هى من عدة نواح : الكيفية التى يمكن بها للأفراد – كمخلوقات لم تستكمل تماما تشكيلها ثقافيا وحملها هذه الثقافة إلى الآخرين – أن يتم تشكيلهم وتهيئتهم بواسطة استخدام العناصر الثقافية على المستويين المجتمعى والجماعى : حينا بواسطة خلق الثقافة ، وحينا بواسطة الإجبار أو التسويغ العقلى المقبول ، وحينا بواسطة المزيد من النقل أو التحويل الثقافى الفعال .

٤- المستوى الذاتى

فى أثناء عمليات الإنضاج التى ينمو خلالها إنسان ولد حديثا ذو انحرافات متعددة الأشكال حتى يصبح تاجرا لامعا . أو حتى تصبح ، إذا كانت أنثى ، ربة بيت ممتازة – تجمع ظاهرة عضوية «فسيولوجية» معينة بالتدريج فى باطنه معالم ثقافة مجتمعية وجماعية تكفى لكى يصبح شخصا اجتماعيا . وسواء كان هذا خيراً أو شرا – كما يلاحظ «جاردنر ولويس ميرفى ونيوكومب» فى كتابهم «علم النفس التجريبى» – فإن الطفل ، على هذا النمط ، يقضى كثيرا من فترة «المواصلة المستمرة» وفترة «القابلية للتغير والتحول» ومعظم فترة «الثبات والاستقرار» ، وأيضا معظم فترة «التقلب والحيرة» وفى خلال هذا التطور للشخصية يشترك التشكل السلوكى للشخص على المستوى الشخصى والذات الباطنية على المستوى الذاتى معا فى النمو ويتلاءمان مع العوامل الخارجية ومع التجارب الباطنية والنزوات .

وقد انتهى «تشارلز هورتون كولى» إلى أن الذات هى دائما ذات اجتماعية ، «ذات مرآة» ، وقد خصها فى كتابه «الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعى» بثلاثة

عناصر رئيسية : تصور مظهرنا فى نظر الشخص الآخر ، وتصور حكمه على هذا المظهر ونوع من الشعور الذاتى كالزهو أو الزهد» . كما انتهى «جورج . هـ . ميد» فى كتابه «العقل والذات والمجتمع» الذى نشر بعد وفاته إلى أن الوعى الذاتى ينشأ من «أداء دور شخص آخر» ونسب تأثير العوامل الاجتماعية الملزمة من خلف القيم الخلقية ، وخاصة من خلف أساليب الحياة المألوفة اجتماعيا إلى العمل النفسى فى تعميم ذلك الآخر أو تصور «الآخر معمما» ، وهى فكرة تشبه ما ذهب إليه «سيجوموند فرويد» عن الذات العليا . وقد أقر كل من «كولى» و«فرويد» بأن الذات تحتوى على عناصر واعية وأخرى مكبوتة أو غير واعية وهى التى أسماها «كولى» : كهف احتشدت فيه كاحتشاد خلية النحل أشكال عجيبة من الحياة معظمها غير واع ومظلم» وقد أسماها «فرويد» : الـ «هى» . وهنا تكمن عناصر الذات العليا ، التجارب السابقة والمخاوف القديمة ، وقد غاصت مؤقتا على الدوام تحت مستوى الوعى ، ولكنها ظلت تعمل كباعث مباشر .

وقد يظن أن الذات تتكون من المواقف التى تنظم لمواجهة مواقف مركزية معينة أوعواطف والتى تحدد عمليات التفكير المعتاد لشخص ما أى لشخص كما هو فعلا . ولكى نوجز هذا التحديد نقرر أن موقفا ما هو حالة أهبة عقلية معتادة مطبوعة إلى حد كبير بطابع التقاليد المجتمعية والسير الشعبية فى الجماعة . وهذا الموقف يضع قاعدة أو خطة لشخص ما للإقدام على عمل أو حثه عليه أو تفاعله معه بشأن طائفة من الأغراض والأوضاع والأهداف . وهذا الموقف يختلف عن نماذج المواقف المجتمعية والجماعية تبعا لمدى أهلية الذات الفردية كمخلوق خلقا ناقصا من الثقافة وحامل لها إلى الآخرين بسبب اختلاف المواهب والتجارب والنزوات .

أما الموقف المركزى أو «العاطفة» فإنهما يمارسان عملا على المستويين الشخصى والذاتى يقابل ذلك العمل الذى تمارسه القيم الخلقية وأساليب الحياة المألوفة اجتماعيا على المستويين المجتمعى والجماعى . والعاطفة هى نتاج – فى الغالب – لتسلل قيمة خلقية أو أسلوب حياة مألوف اجتماعيا إلى باطن الفرد . ويسمى «جوزيف ك . فولسوم» الموقف الناشىء من عاطفة ما موقفا «يتضمن انفعالات قوية مركزة حول غاية معينة» والعاطفة من أكثر مظاهر الشخصية طاقة وتكاملا وملاءمة . والعواطف المعتدلة من اللوازم الجوهرية ولكنها أكثر تعرضا للانفعال وأقل نظاما مما يقابلها من نماذج مجتمعيه وجماعية . والناس لا يحبون أن يكشفوا عن عواطفهم إذا كانت منحرفة أو ضعيفة كما أنهم – إلى حد يثير الملاحظة – لا يعبرون فعلا عن

هذه العواطف بالكلمات ولا حتى يدركون طبيعة تلك الارشادات الرئيسية لفكرهم ومشاعرهم وعملهم . وقد اكتشف الأخصائيون النفسيون أن عواطف الناس تتعارض غالبا فى الظاهر ، ولكن الأفراد الذين تصدر عنهم تلك العواطف لا يلاحظون هذا التعارض . وأن العواطف تتغير فى بطء وأن من العسير كشف ما خفى منها أو تحديد طابعها أو قياسها . كما أن الأخصائيين النفسيين يعلمون أن عواطفنا نحو الآخرين تنطوى عادة على كلا الحب والحقد والعطف والكره .

وإيضاح هذا التكامل بين النظريتين النفسية والاجتماعية ايضاحا كافيا يحتاج إلى حيز واسع جدا . وكل ما يمكن عمله بالإضافة إلى ما فى هذا المقال الموجز ، مع ذلك ، هو مجرد اختصار ما سبق أن جاء به فى شكل جدول على أنه «موجز العوامل الاجتماعية المحددة للرأى العام» . ومن المأمول أن يكون التركيب النظرى لهذا الجدول ، من الوضوح والدقة والقابلية لا ستخدامه فى الإيحاء لأولئك الذين يعملون فى هذا الميدان بشروح أخرى ، كافيا لتحقيق هذا الغرض .

موجز العوامل الاجتماعية المحددة للرأى العام

مستوى النظام الاجتماعى	نماذج أو معالم	نماذج مركزية	أدوار الأنماط	الوظيفة النظامية
مجتمعى	تقاليد متضمنة آراء الجمهور	قيم خلقية	الفرد كما يجب أن يكون (حجاب ثقافى)	النظام كما يجب أن يكون (واجهة ثقافية)
جماعى	سير شعبية متضمنة آراء الجمهور	أساليب حياة مألوفه اجتماعيًا	الفرد كما يطلب منه أن يكون (سير شعبية وأساليب حياة مألوفة اجتماعيا تمارس عملها) .	النظام كما يطلب منه أن يكون (سير شعبية وأساليب حياة مألوفة اجتماعيا تمارس عملها) .
شخصى	ممارسات متضمنة آراء شخصية	(عواطف)	الفرد كما يبدو	مخلوق من الثقافة وحامل وخالق لها وممارس .
ذاتى	مواقف	عواطف	الفرد كما هو	التوفيق مع الاحتياجات الذاتية والمفاهيم والتطلعات

وكل عبارة فى الجدول تحتاج بطبيعة الحال إلى أن تحمل التحديدات والأوصاف المنسوبة إليها فى الشرح المسهب . ويجب ألا يغيب عن الذهن أن كلا من «المستويات» الأربعة ليس منفصلا عن الآخر ، كما أن كلا من أنماط النماذج والنماذج المركزية والأدوار والوظائف النظامية المدرجة فى مقابلها ليس قائما بذاته . فإننا نعنى هنا بأنماط اجتماعية ومواقف نمطية يمكن وصفها ، ولكنها متغيرة بالنسبة لعلاقتها بظواهر السلوك الإنسانى والفكر الإنسانى ، وهى ظواهر متدفقة فياضة لا يمكن أصلا البت فى تبويبها وتصنيفها .

وتطبيق النظريات السابقة على عمليات المسح الخاصة بالرأى العام تلقى على التفسيرات القائمة على استفتاء الجمهور ضوء يختلف اختلافا كبيرا عن الضوء التقليدى . فالأحاديث فى أثناء الاستفتاءات النموذجية تتم - مثلا - فى نطاق واسع يضم أنماطا على وفاق ووئام . فمع أنها من المفروض إجراؤها بغرض التنبؤ بسلوك الأفراد إلا أنها تجرى كأنها طبعات منقولة عن لوح معدنى براق من تلك الألواح التى تستخدم فى الطباعة (القيم الخلقية المجتمعية) . وهذا قد يغير أو لا يغير فائدتها فى التنبؤ بنتيجة الانتخابات ، ولكنها توحى بصفة خاصة بالحاجة الملحة إلى أنماط أخرى من الاستفتاء على ضوء ما يؤمل الاهتداء إليه من نظريات أقرب إلى الصواب . والرأى العام لا يمكن إدراكه إلا على ضوء علاقاته المجتمعية والاجتماعية والنفسية .

(٨)

التفسير النفسى للإشاعة
جوردون أولبورت وليو بوستمان[1]

الإشاعات فى زمن الحرب

أصبحت الإشاعة خلال عام ١٩٤٢ مشكلة قومية تدعو الضرورة الملحة إلى معالجتها . وقد شعر الناس بمظهرها الخطر توا عقب الصدمة الأولى للهجوم على «بيرل هاربر» فإن هذا الحادث الجارح قد عطل الوسائل الخلقية التى تصلنا بالرأى العام بأن أوجد رقابة وإن كانت مخففة على الأخبار ، إلا أنها ليست مألوفة وليست محل ترحيب . كما أنه أملى فى نفس الوقت مصير حياة الملايين من المواطنين الذين أصبح مستقبلهم فجأة رهينة فى يد القدر .

وهذا المزيج من الظروف قد أتاح لنشر الإشاعة أخصب أراض يمكن أن تتاح لهذا الغرض . ونحن نعلم الآن أن الإشاعات بشأن أمر ما ستنتشر بين جماعة ما بنسبة أهمية هذا الأمر لأفراد هذه الجماعة وغموضه فى نظرهم .

إن قضية «بيرل هاربر» كانت مفعمة بكل من الأهمية والغموض بالنسبة لكل مواطن تقريبا ، فالقضية كانت هامة بسبب الخطر المحتمل الذى كانت تمثله لكل منا وبسبب عاقبتها المباشرة أى التعبئة العامة التى أثرت فى حياة كل فرد ، وكانت غامضة بسبب أنه ما من أحد بدا متيقنا تماما من مدى الهجوم أو أسبابه أو عواقبه . ولما كان عنصرا الإشاعة - الأهمية والغموض - قد تحققا إلى أقصى الحدود فقد غمرنا فيضان مما أصبح يعرف باسم «إشاعات بيرل هاربر» . إذ قيل إن أسطولنا قد قضى عليه تماما ، وإن واشنطن لم تجرؤ على أن تعلن مدى الخسارة . وأن «هاواى» فى أيدى اليابانيين ، وقد بلغ من سعة انتشار هذه القصص ومن تحطيمها للروح المعنوية إلى حد أنه فى ٢٣ من فبراير ١٩٤٢ أذاع الرئيس روزفلت خطابا قصره كله على تكذيب الإشاعات الضارة وعلى ترديد التقرير الرسمى عن الخسائر .

---

(١) عن تقرير أكاديمية نيويورك للعلوم سلسلة ٢ ، ١٩٤٥ ، ٨ س ٦١ - ٨١ .

هل أعاد التأكيد الخطير الذى أعلنه القائد العام ثقة الناس واستبعد قصص الريبة والخوف ، ؟ لقد حدث أن أتيح لنا - مصادفة - بعض البيان الموضوعى عن هذه المسألة . ففى العشرين من فبراير - قبل خطاب الرئيس - كنا قد سألنا نحو ٢٠٠ من طلبة إحدى الكليات إذا كانوا يظنون أن خسائرنا فى «بيرل هاربر» كانت «أكبر» أو «أكبر بكثير» مما كان قد سجله تقرير رسمى» فأجاب ٦٨ فى المائة من هؤلاء الطلبة بأنهم يصدقون الإشاعات ويرجحونها على التقرير الرسمى ، وصمموا على أن الخسائر كانت «كبيرة» أو «أكبر بكثير» مما اعترفت به واشنطن ، وفى ٢٥ من فبراير وجه نفس السؤال إلى جماعة مماثلة من طلبة إحدى الكليات وحتى بين أولئك الذين يستمعون إلى الخطاب أو لم يقرأوه ظلت نسبة مصدقى الإشاعات نحو الثلثين ولكن بين أولئك الذين علموا بخطاب الرئيس هبط عدد مصدقى الإشاعات إلى ٢٤ فى المائة . ومما تجدر ملاحظته أنه رغم الجهود القصوى التى بذلتها السلطة العليا لتهدئة القلق فإن ٤٤ فى المائة تقريبا من طلبة الكليات الذين درست أجاباتهم قد بلغ من عمق تأثرهم بالحادث وبالإشاعات الى نتجت عنه أنهم لم يقبلوا ذلك التأكيد المعاد بتكذيب الإشاعة .

وقد تميز عام ١٩٤٢ بفيضان من قصص مشابهة أوحى بها الخوف . فبولغ مبالغة خيالية فى خسائر السفن ، وقد ضرب «كناب» مثلا على ذلك بحادث غرق مركب لنقل الفحم على مقربة من قناة رأس «كود» فقد بلغ من جزع أهل ولاية «نيو إنجلاند» إلى حد أن هذا الحادث قد أصبح قصة خيالية لمركب أمريكية أغرقها «طوربيد» وأن بين الخسائر آلافا من الممرضات كن على ظهر المركب ولقين حتفهن .

وتعزى أمثال هذه القصص الوحشية - كما قلنا - إلى أهمية الموضوع الخطير وإلى غموض الموقف الطارىء بالنسبة للمواطن العادى . وهذا الغموض قد ينتج من فشل الاتصال بالرأى العام أو من الافتقار التام إلى الأخبار الموثوق بها . وهى حالة تسود غالبا فى البلاد الى تمزقها الحروب أو بين فرق منعزلة من جيوش لا يتاح لها إلا قلة من مصادر الأخبار التى يعتمد عليها كما أن الغموض قد يعزى إلى تلقى قصص إخبارية متضاربة ليس بينها ما هو أكثر قابلية للتصديق من الآخر . أو قد يعزى (كما فى حالة إشاعات بيرل هاربر) إلى عدم ثقة كثير من الناس بصدق الحكومة وبإدارة الرقابة فى زمن الحرب ، ولما توالى الزمن على الحرب تحقق بسرعة قدر أكبر من الثقة بادارة الأخبار الخاصة بنا وخمدت الإشاعات وفقا لذلك .

وبالإضافة إلى إشاعات الخوف فى عام ١٩٤٢ التى صمدت حى بدأ تيار النصر ، كان هناك أيضا مزيد من محصول الإشاعات العدائية التى كانت دائما تضرب على نغمة نسبة التقصير فى أداء الواجب والخيانة أو عدم الكفاءة إلى جماعة معينة من المشتركين فى المجهود الحربى . ، وكان الجيش والبحرية والوزارة وحلفاؤنا أو جماعات الأقليات الأمريكية هى كباش الفداء التى حملتها هذه الإشاعات فى أغلب الأحيان معظم الأوزار ، فأخبرتنا الإشاعات أن الجيش أسرف فى استهلاك كميات ضخمة من لحم البقر ، وأن الروس شحموا مدافعهم بالزبد الذى حصلوا عليه عن طريق الإعارة والتأجير ، وأن السود كانوا يحتفظون بالمعاول التى تستخدم فى تحطيم الثلوج استعدادا للثورة ، وأن اليهود كانوا يتجنبون تيار الهواء فى ميدان القتال .

وهذه الإشاعات العدائية كانت أكثر الإشاعات عددا . وكشف تحليل لألف إشاعة جمعت من جميع أنحاء البلاد فى عام ١٩٤٢ عن أنها يمكن أن تصنف توا بوضوح كما يلى :

إشاعات عدائية - ٦٦ فى المائة وقد أطلقوا عليها اسم «دق الإسفين» .

إشاعات الخوف - ٢٥ فى المائة وقد أطلقوا عليها اسم «الغول» .

إشاعات الرغبة - ٢ فى المائة وقد أطلقوا عليها اسم «حلم المزمار» .

إشاعات غير مصنفة - ٧ فى المائة .

وسرعان ما تغيرت نسبة إشاعات الخوف والرغبة طبعا . فعندما دنا النصر وبخاصة فى عشية يوم النصر اهتم إعصار الإشاعات اهتماما كليا بوقف القتال عاكسا ظاهرة ميل تدريجى فى الهدف تبدو فيه الإشاعة تحت ظروف خاصة ، وهى تستحث إتمام الحادث المرغوب ، ولكن ربما صح - أثناء الحرب وما تلاها حتى الآن - أن غالبية الإشاعات ذات طبيعة افترائية نوعا ما معبرة عن عدائها لجماعة أو أخرى .

ويمكن إيجاز الأسباب التى تدعو إلى انتشار الإشاعة . فهى تنتشر لأنها تخدم الممارسة المتلازمة لتفسير التوترات الانفعالية التى يشعر بها الأفراد والتفريج عنها .

فإشاعات «بيرل هاربر» - مثلا - ساعدت على أن تفسر لراويها لماذا شعر بمثل ذلك القلق الشديد . فلو أن الأسطول الذى يحمينا قد حطم فى «بيرل هاربر» أكان ذلك لا يبعث على رضاه ؟ لابد أن هناك شيئًا هاما كان قد حدث لتعليل قلقه

فالأسر التى حرمت من أبنائها وأزواجها أو آبائها تبحث حولها - على غير هدى - عن شخص ما تحمله مسئولية حرمانها . واليهود الذين قيل إنهم يتجنبون تيار الهواء كانوا «قطعا» لا يسهمون بما يجب عليهم فى الحرب ، وهكذا أمكن تفسير العبء الثقيل الملقى على عاتق «المواطنين الصالحين» ، حقا إن هذه التهمة الخاصة بتجنب تيار الهواء لم يطل أمدها نظرا - بلا شك - إلى الدليل الذى لا مهرب منه الذى يشهد بالعدد الكبير من اليهود الذين تطوعوا للخدمة العسكرية وإلى سلوكهم فى الحرب ولكن عندما اتضح العجز فى عدد القوات ركض الشعور التقليدى الخاص بتحميل اليهود مسئولية الأوزار كتفسير ملائم لما كان يعانيه الناس من حرمان ، واستغلال اليهود للسوق السوداء «فسر» تجاربنا المزعجة فى البحث عبثا عن قطعة من اللحم الضأن نشويها فى المساء .

ولوم الآخرين شفاها ليس وسيلة لتفسير ضيق الفرد الانفعالى فحسب ، ولكنه فى نفس الوقت وسيلة للتفريج . وكل منا يعرف هدوء النفس الذى يعقب إفاضة اللسان بتقريع ما . ولا يهم إلا قليلا ما إذا كان من وجه إليه هذا التقريع يستحقه أم لا . إذ أن معاملة شخص ما بعنف سواء مواجهة أم خلف ظهره لها خاصية عجيبة ، هى خفض شعور الحقد نحو هذا الشخص مؤقتا أو - وهو أعجب - التغلب على شعور الحقد نحو هذا الشخص أو الشىء ، وإذا أردت أن تفرغ الهواء من أنبوبة داخلية متضخمة فإنك تستطيع أن تفك الصمام «فالف» أو تستطيع أن تثقب الأنبوبة ، وفك الصمام يقابل توجيه عدائنا إلى النازيين أو اليابانيين الذين كانوا سبب عنائنا . وثقب الأنبوبة يقابل نقل العداء إلى الضحايا الأبرياء أو كباش الفداء . وفى أية حالة يتسلل الهواء إلى الخارج ويعقبه الهدوء . فتوجيه اللوم إلى الزنوج أو الحكومة أو «الخوذ النحاسية» أو مكتب مراقبة الأسعار أو المطبوعات إنما هو التماس لتفريج معين عن إحساسات متراكمة من العداء أيا كان سببها الصحيح . والتفريج - وإن بدا هذا عجيبا - قد يتحقق أيضا من الإشاعات المعروفة باسم «الغول» فإننى إذ أخبر جارى بأن قناة رأس «كود» قد سدتها الجثث إنما هى وسيلة سهلة أعكس بها إلى العالم الخارجى مشاعر القلق الخانقة التى تساورنى بشأن ابنى أو أصدقائى الذين فى ميدان القتال ، وإذا ما أشركت صديقى معى برواية أخبار مغالى فيها عن الخسائر والآثام الفظيعة فإننى لا أشعر بعد بأننى وحيد وبلا معين كما كنت أشعر بذلك من قبل إلى حد كبير . ففى طريق إذاعتى للإشاعات أنذر الآخرين بالخطر وأشعر - لذلك - بأننى مطمئن .

معالجة تجريبية

إذا تركنا الآن التركيب الاجتماعى العريض للمشكلة فإننا نسائل أنفسنا عن عمليات العقل الإنسانى التى تعلل ما يستحق النظر من تشويهات ومبالغات تتدخل فى عملية الإشاعة وتقود إلى إلحاق مثل هذا الضرر البليغ بإدراك الشعب وبوعى الشعب .

ولما كان من العسير جدا أن نقتفى - بالتفصيل - سير إشاعة ما فى الحياة اليومية فقد حاولنا جهدنا بطريقة فنية تجريبية أن ندرس أكبر عدد ممكن من الظواهر الرئيسية تحت ظروف معملية أحكمت رقابتها نسبيًا إحكاما تاما .

وطريقتنا بسيطة . صورة من أصل منزلق slide تعرض على لوحة . وعادة تستخدم صورة تمثل منظرا شبه فاجع يتضمن عددا كبيرا من تفاصيل متصلة بموضوع الصورة . ينتظر ستة أو سبعة أشخاص - ممن لم يروا الصورة - فى غرفة مجاورة . يدخل أحدهم ويقف فى وضع لا يمكنه من مشاهدة اللوحة ، ثم يبدأ واحد من النظارة (أو من يتولى إجراء التجربة) فى شرح الصورة معطيا نحو عشرين نقطة تفصيلية أثناء الشرح ، ويدخل شخص ثان إلى الغرفة ويقف بجانب الأول الذى سبقه لكى يخبره ١٢٩اعش٤ما لديه عن الصورة . وقد طلب من جميع الأشخاص أن يكرروا «ما سمعوه بأدق ما يمكن» . وعندئذ يجلس الأول ويدخل ثالث ليسمع القصة من الثانى . وكل من يتوالى دخوله يسمع ويكرر القصة بنفس الطريقة لمن يتلوه . وهكذا يتمكن النظارة من أن يلاحظوا تشويه الإشاعة بمقارنة الصيغ المتعاقبة بالصورة المثيرة التى تبقى على اللوحة أثناء إجراء التجربة .

وهذا الإجراء قد استخدم مع أكثر من عشرين جماعة من المواطنين منهم خريجوا كليات جامعية ، وأفراد من الجيش يتلقون التدريب ، وأعضاء هيئات تحكيم فى بعض الجماعات ، ومرضى فى مستشفى عسكرى ، ومشتركون فى اجتماع مائدة مستديرة للمعلمين ، وموظفوا شرطة يتلقون برنامجا تدريبيا ، وبالإضافة إلى هؤلاء المواطنين البالغين أجريت التجربة على أطفال فى مدرسة خاصة فى مختلف فصول الدراسة من الرابع إلى التاسع ، وفى بعض التجارب اشترك المواطنون السود مع البيض وهو - كما سوف نرى - أمر ذو نتائج هامة فى حالة عرض صورا اختبارية تعرض مناظر ذات «زاوية عنصرية» .

وقد أجريت كل هذه التجارب أمام نظارة (يتراوح عددهم بين ٢٠ و٣٠٠) . واستخدام أشخاص متطوعين فى هذه التجارب يستبعد خطر الخوف من الظهور على المسرح . ومع ذلك فقد كان هناك تأثير اجتماعى فى مواقف كل النظارة وقد درست جسامة هذا الأثر فى طائفة من التجارب التى تمت تحت الإشراف حيث لم يسمح بالدخول إلى الغرفة إلا للشخص موضوع التجربة ولمن يتولى إجراءها .

ومن الضرورى - بادىء ذى بدء - أن نقر بأن هذا الوضع التجريبى لا يوفق فى خمس حالات إلى أن يصور ظروف انتشار الإشاعة فى الحياة اليومية تصويرا دقيقا : (١) وجود نظارة يؤثر تأثيرا هاما يتجه إل التمسك بالحيطة واختصار التفاصيل . فالأشخاص (موضوع التجربة) أعطوا - بعيدًا عن النظارة - فى المتوسط ضعف التفاصيل التى أعطوها فى حضور النظارة . (٢) تأثير التعليمات (الصادرة ممن يجرون التجربة) يبدو فى تعظيم شأن الدقة فى الأجوبة وحمل المستجيبين على الحيطة . فعند إذاعة الإشاعة فى الحياة العادية ليس هناك من يتولى إجراء تجربة بطريقة نقدية يرى ما إذا كانت القصة قد أعيد تكرارها إعادة صحيحة أم لا . (٣) لا يعطى الأشخاص فرصة لتوجيه أسئلة إلى من يتولى رواية القصة لهم فى التجربة ولكن المستمع - أثناء إذاعة الإشاعة فى الحياة العادية - يستطيع أن يتحدث مع راويته كما يستطيع - إذا شاء - أن يستفسر منه ويستزيده إيضاحا . (٤) أن فترة الوقت - فى الوضع التجريبى - بين الاستماع والرواية قصيرة جدا ولكنها فى حالة إذاعة الإشاعة العادية أطول بمراحل . (٥) وما هو أكثر أهمية من ذلك أن ظروف الباعث تختلف اختلافا تاما . ففى التجربة يجاهد الشخص لكى يلتزم الدقة ولا تستثار مخاوفه وأحقاده ورغباته غالبا تحت الظروف التجريبية وهو - بإيجاز - ليس العميل التلقائى للإشاعة كما هو فى الحياة العادية وإسهامه فى نشر الإشاعة التجريبية ليس شخصيا ، ولا يستند إلى باعث عميق .

وتجدر ملاحظة أن كل هذه الظروف - باستثناء الثالث منها - قد يتوقع منها أن تزيد من دقة الرواية فى الوضع التجريبى ، وأن يتخلف عنها قدر من التشويه والاستنباط أقل بكثير مما يحدث لنشر الإشاعة فى الحياة الحقيقية .

ورغم ما هو ثابت من أن تجربتنا لا تصور الظروف العادية للإشاعة تصويرا كاملا ، فإننا لا نزال نعتقد أن كل التغيرات والتشويهات قد عرضت فى النتائج

التى توصلنا إليها . وقد لا تدب الحياة فى الإشاعات «خلف الأبواب» ولا تروى باللهجة الانفعالية أو المتطرفة بالقدر الذى يحدث للإشاعات « خارج الأبواب» ومع ذلك فإن نفس الظواهر الرئيسية يمكن إيضاحها فى كلتا الحالتين .

إن ما يحدث فى إشاعات كل من الحياة الحقيقة والمعمل إنما هو شوط معقد من التشويه يمكن أن تميز فيه بوضوح ثلاثة اتجاهات ذات صلات متبادلة .

التسوية Levelling

عندما تنتقل الإشاعة تميل إلى أن تصبح أكثر إيجازا وتركيزا وأيسر استيعابا ورواية . وكلما تعاقبت الصيغ ، قلت الكلمات التى تعبر عنها كما قلت التفاصيل التى يشار إليها عند روايتها .

ويبدأ عدد التفاصيل التى تحتجز فى الهبوط هبوطا حادا فى بداية سلسلة توالد الإشاعة ويستمر هذا العدد فى الهبوط بدرجة أكثر بطئا أثناء التجربة . ويوضح الرسم البيانى النسبة المئوية للتفاصيل التى رويت فى أول الأمر والتى احتجزت فى كل توالد متعاقب . ففى المرة الأولى احتجز ٦٥ فى المائة من التفاصيل ، وفى المرة الثانية احتجز ٥٠ فى المائة ، وفى المرة الثالثة احتجز ٣٥ فى المائة ، وفى المرة الرابعة احتجز ٣٥ فى المائة وفى المرة الخامسة احتجز ٣٠ فى المائة . وعدد الفقرات التى تضمنها وصف الصورة نقلا عن اللوحة يقدر أساسا بـ ١٠٠ فى المائة وكل النسب المئوية اللاحقة محسوبة من هذا الأساس ويوضح الخط البيانى على أساس ١١ تجربة أن نحو ٧٠ فى المائة من التفاصيل قد استبعد فى سباق النقل خمس أو ست مرات من فم إلى فم حتى وإن لم تفصل أية فترة زمنية افتراضية بين كل مرة وأخرى .

والخط البيانى هنا يشبه خط «إبنجهاوس» الشهير عن ذاكرة الإنسان الحافظة ولو أن الفترة الفاصلة فى تجاربه بين العلم ابتداء وعمليات التوالد المتعاقبة لم تكن قصيرة كما هى الحال فى ظروف تجاربنا . وبمقارنة الرسم البيانى الحالى برسم «إبنجهاوس» ننتهى إلى أن الذاكرة الاجتماعية تمارس من التسوية خلال بضع دقائق بقدر ما تمارسه ذاكرة الفرد فى أسابيع .

والتسوية (فى تجاربنا) لا تصل قط إلى حد الطمس الكلى ، فثبات الجزء الأخير من الرسم لفترة كشف له بعض الأهمية إذ يدل على : (١) أن رواية موجزة مركزة يمكن - غالبا - تناقلها بأمانة ، (٢) إنه إذا ما أصبحت الرواية موجزة ومركزة فلا ينطوى موضوعها إلا على قليل من تفاصيل يختار منها وتقل بعد إمكانيات التسوية ، (٣) أن العمل يصبح من السهولة بحيث إن ذاكرة ما يفترض أن تحفظ الرواية بمجرد التكرار «الصم» تكفى لحفظ هذه الرواية . وفى جميع الحالات فإن الروايات الختامية وما قبل الختامية أكثر تشابها من أية روايات سابقة .

إن الاعتماد على حفظ الذاكرة بالتكرار «الصم» ربما كان أوضح فى تجاربنا مما هو فى نشر الإشاعة العادى ، حيث لا تكون الدقة هى الهدف وحيث يتدخل الفاصل الزمنى فى الحفظ بالتكرار ، وحيث تعوق المصالح القوية التزام الذاكرة التزاما حرفيا بما روى لها ، ومع ذلك فهناك ظروف تلعب فيها الذاكرة الحافظة بالتكرار دورا فى نشر الإشاعة العادية ، فإذا لم يكن لدى الفرد من باعث إلا الرغبة فى الحوار فقد يجد نفسه يكرر - عبثا - ما سبق أن سمعه أخيرا بالشكل الذى سمعه به . وإذا ما أصبحت الإشاعة ناضجة وموجزة ، واكتسبت طابعا شعاريا بحيث لا تحتاج بعد إلى جهد لحفظها بالشكل الحرفى الذى سمعت به فإن الذاكرة الحافظة بالتكرار تبدو وقد اشتركت فى هذه العملية ، ومثال ذلك :

اليهود يتجنبون تيار الهواء (فى ميدان القتال) .

مجلس الهيئات الصناعية يشرف عليه الشيوعيون :

الروس يؤممون نساءهم .

ونخلص إلى أنه كلما تنقلت مادة شفوية بين جماعة من الناس ، سواء كانت إشاعة أو أسطورة أو رواية تاريخية فإن تغييرها يتجه إلى مزيد من الإيجاز والتركيز ، والتسوية مع ذلك ليست ظاهرة جزافية ، ومضابطنا تظهر المرة تلو المرة أن للفقرات التى تهم الأفراد أهمية خاصة والحقائق الى تدعم توقعاتهم وتعينهم على بناء هيكل القصة هى آخر ، ما تتم تسويته واستبعاده ويحتجز دائما حتى آخر مراحل النقل بالتوالد .

الشحذ Sharpening

قد نعرف الشحذ بأنه الإدراك الاختبارى والحفظ والرواية لعدد محدود من التفاصيل من سياق مجموعة أكبر من تلك التفاصيل . والشحذ - بلا محالة - يتبادل المعونة ويشترك مع التسوية فلا يستطيع أحدهما أن يوجد بدون الآخر . لأن القليل الذى يبقى من الإشاعة بعد إجراء التسوية لا يمكن - بالعكس - تفادى تصويره ووصفه .

ومع أن الشحذ يحدث فى كل مضبطة (من مضابط التجارب) فإن التأكيد لا يقع دائما على نفس الفقرات ، وأحيانا يصبح تفصيل تافه - كلوحة الإعلانات فى قطار من القطارات التى تسير تحت الأرض - بؤرة الاهتمام والرواية وحوله يرتفع بناء الإشاعة كلها ، ولكن هذا التفصيل نفسه - فى معظم التجارب - يسقط فورا ولا يسمع عنه بعد أول نقل بالتوالد .

ومن الوسائل التى يبدو فيها تحديد معالم الشحذ حفظ الكلمات الشاذة أو التى تثير الانتباه التى بعد أن ظهرت فى بداية العرض قد سيطرت على انتباه كل مستمع على التعاقب . وتكرر تناقلها من مستمع إلى آخر بتفضيلها على غيرها من التفاصيل التى تفوقها من الوجهة الجوهرية للقصة ، وقد شوهد مثل على ذلك فى سلسلة مضابط (إحدى التجارب) التى تضمنت تقريرا عن (صبى يسرق وقد أخذ رجل يقرعه) فثبت تناقل هذه الفقرة فى كل حلقات السلسلة ، لأن كلمة «يقرعه» الشاذة (بتشديد الراء) قد سيطرت بشكل ما على انتباه كل مستمع على التعاقب ونقلها إلى من تلاه بدون تغيير .

والشحذ قد يتخذ اتجاها عدديا كما هى الحال فى التجارب التى يتضاعف فيها عدد الفقرات - التى يتأكد الاهتمام بها - أثناء روايتها . مثال ذلك الروايات الخصاة بصورة زنجى يدعو حجمه ومظهره الشاذ إلى تركيز الاهتمام بصفة خاصة نجد أن عدد الزنوج فى الصورة الذين تشير إليهم الرواية يقفز من زنجى واحد إلى «أربعة» زنوج .

وهناك أيضا شحذ زمنى يتضح فى الاتجاه إلى وصف الحوادث كما لو أنها تحدث الآن توا . فما يحدث «هنا» و«الآن» له أكبر الفائدة والأهمية بالنسبة لمن يستمع إلى الرواية ويدركها بحواسه ، ولكى يتأكد الراوى فى معظم الحالات - من الأثر الذى يحدثه الخبر فإنه يبدأه بالمضارع . ولكن حتى عندما تكون بداية الوصف مستندة إلى الماضى ، فإن الوضع يقلب توا ويحدد المستمع الحادث على

أنه معاصر ، ومن الواضح أن هذا الأثر له يمكن أن يحدث للإشاعات الى تتصل خاصة بماض ثابت (أو مستقبل) . فلا يستطيع أحد أن يحدد إشاعة بأن باخرة الملكة ميرى «قد أقلعت هذا الصباح (أو ستقلع باكرا) حاملة ١٠٠٠٠ من الجنود» على أن وقائعها معاصرة ، ومع ذلك فلا يندر أن تكتسب أخبار أهمية ما - عن طريق شحذها - بربطها إلى الظروف الحاضرة - مثال ذلك رواية تقرر أن السيد س اشترى من السوق السوداء فى الأسبوع الماضى رطل الدجاج بدولار ونصف إذ يمكن أن تحور صيغتها (ويحدث هذا غالبا) إلى : «أسمع أنهم يتقاضون فى السوق السوداء دولارا ونصفا ثمنا لرطل الدجاج» فالناس أكثر اهتماما باليوم منهم بالأسبوع الماضى ، ولذلك فهناك ما يغرى على أن يلائم (يماثل) بين وقت الحادث وهذا الاهتمام كلما أمكن ذلك .

ويحدث الشحذ غالبا عندما يكون هناك مضمون «حركى» واضح . فطيران الطائرات وانفجار القنابل يتكرر التأكيد عليها عند الرواية . كما أن سقوط آنية الزهور فى إحدى الصور تعيها الحافظة غالبا وتلقى بنبرة صوت خاصة ، ولاشك أن السقوط الباعث على التفكير قد يمتد إلى أشياء أخرى كالسيجار الذى يرى رجل فى الصورة أثناء تدخينه . ففى إحدى الإشاعات قيل إنه سقط (كآنية الزهور) مع أنه فى الحقيقة ظل آمنا فى مكانه بين أسنان ذلك الرجل .

وأحيانا يمارس الشحذ بنسبة الحركة إلى أشياء ثابتة فعلا ، وهكذا يوصف فى الغالب القطار الذى يسير تحت الأرض - وهو لا يزال واقفا فى إحدى المحطات - بأنه يتحرك .

والحجم « النسبى » من العوامل الموجهة - أيضا - لانتباه المستمع ، فالأجسام أو المرئيات التى اشتهرت بسبب حجمها تنزع إلى أن تعيها الحافظة وتشحذ ، فأول راوية يوجه الانتباه إلى شهرتها ويتأثر كل مستمع على التعاقب بضخامتها فيتطرق إلى شحذ هذا الأثر فى ذكرته . فالزنجى الضخم قد يصبح - فى الرواية - أربعة زنوج ، أو قد يصبح «تمثالا هائلا لأحد الزنوج » .

وهناك عوامل كلامية وعوامل مادية توجه الانتباه ، وهكذا فإن هناك اتجاها محققا إلى الثبات على عناوين أو شعارات تصلح لكى تكون مسرحا لحوادث القصة فإحدى الصور تقدم عادة بهذه العبارة : « هذا منظر ساحة قتال » ويتكرر هذا العنوان فى حلقات النقل بالتوالد خلال السلسلة كلها ، وتفتتح قصة أخرى عادة بعبارة « هذه صورة اضطراب عنصرى » .

ولكى نشرح هذا النمط من الشحذ فإننا قد نستعين برغبة الشخص - موضوع التجربة - فى أن يرسم خطة مكانية وزمنية ما للقصة فى المستقبل ، ولمثل هذا الاتجاه أهمية فى الحياة العادية ويبدو أنه يشكل حاجة قوية يحس بها الفرد حتى عندما يكون الأمر متعلقا بمجرد أمر خيالى .

وهناك عامل إضافى فى تفضيل الحافظة للعناوين والشعارات المكانية والزمنية وهو « أسبقية الأثر » . فالفقرة التى تعرض أولا فى مسلسلة ما يغلب أن تعيها الذاكرة أفضل مما تعى الفقرات التالية . ويقدم « العنوان » الذى يشير إلى المكان والزمان - عادة - فى أول الرواية ولذلك يستفيد من أسبقية الأثر .

ويتصل الشحذ بالشعارات المألوفة . ففى إحدى المسلسلات (التى تتضمن تقارير تجريبية) كان ذكر الكنيسة والصليب من أكثر الفقرات التى تكررت الإشارة اليها مع أنهما - نسبيا - من التفاصيل الفرعية فى الصورة الأصلية . فهذه الشعارات المعروفة جيدًا «تدمج» المعنى وهى مألوفة للجميع . ويشعر الفرد بالاطمئنان إذ يشير إليها لأنها تنطوى على ثبات مقرر تفتقر إليه التفاصيل الأخرى فى الصورة . ووعى الحافظة للشعارات المألوفة يثير عملية التمسك بالتقاليد ومراعاتها التى اشتهرت بأنها مظهر لتثبيت الإشاعة وتدعيمها ، ويظهر فى صورتين من الصور - موضوع التجربة - العصى التى يستخدمها الشرطى و «موسى» من مواسى الحلاقة كرمز لعنف السود وهو من الرموز المصحفة المتكررة بالتواتر . فهذا الشعارات تحتجزها الحافظة دائما وتشحذها .

و « التفسيرات » التى يضيفها الراوى إلى الوصف الذى سبق أن روى له يتضمن شكلا نهائيا للشحذ . فهذه التفسيرات تمثل اتجاها إلى وضع « إطار » للخبر الذى يبدو أنه ناقص بدونها وهى تصور « البحث عن المعنى » الذى يلازم - عادة الشخص الذى يجد نفسه فى وضع غير ثابت . ومثل هذه الحاجة إلى الشحذ بالتفسير تصبح - خصوصا - قوية عندما يكون الخبر قد شوه تشويها شديدا ، وأن روايته تتضمن فقرات غير معقولة وغير لائقة مثال ذلك أحد الأشخاص تلقى وصفا مضطربا اضطرابا شديدًا عن منظرالقطار الذى يسير تحت الأرض استنتج أنه لابد أن يكون قد وقع « حادث ما» . وقد بدا هذا التفسير معقولا بالنسبة للمستمعين المتعاقبين إلى حد أنهم لم يقبلوه فحسب ، بل أنهم شحذوه فى أثناء روايتهم له .

والشحذ بواسطة إدخال تفسيرات رحبة على إشاعات كل يوم واضح جدا . ومن المؤكد - كما قلنا - أن من بين وظائف الإشاعة تفسير التوتر الشخصى . فتقبل

قصص عن إسراف الجيش فى النفقات أو المزايا الخاصة التى تمتع بها . يمكن أن « يفسر» النقص فى الأغذية والشعور بالضيق . ولذلك تلاقى مثل هذه الأخبار تصديقا على نطاق واسع .

وربما كان هذا مجال بحث الفكرة الدارجة التى تذهب إلى أن الإشاعات تميل إلى الامتداد مثل كرات الثلج ، وأنها تصبح - وقد أسرف فى تحسينها وتنميقها - مملة كثيرة الحشو . فالواقع أن سير الإشاعة يتجه إلى الإيجاز ، سواء كان ذلك فى المعمل - أثناء إجراء التجربة - أو فى حياة كل يوم . ومثل هذه المغالاة القائمة هى دائما - على وجه التقريب - شحذ لسمة ماكامنة فى الوضع الدافع أصلا . والتشويه الذى ينجم عن الشحذ هو - بطبيعة الحال - ضخم فى مداه ولكننا لا نجدنا فى حاجة إلى أن نحسب لعامل «التحسين والتنميق» حسابا فى التغيرات التى نلاحظها .

الاستيعاب Assimilation

من الواضح أن كلا من التسوية والشحذ عمليتان اختياريتان ، ولكن ما الذى يقود إلى طمس بعض التفاصيل ، وإبراز البعض الآخر ، وكيف تفسر كل التنقلات والاستيرادات والتمويهات التى تطبع سير الإشاعة ، والجواب على ذلك فى عملية «الاستيعاب» التى تتصل بالقوة المؤثرة لا الجذابة التى تمارسها - على الإشاعة - العادات والمصالح والعواطف التى يضمها عقل المستمع .

استيعاب الموضوع الرئيسى

يحدث - بصفة عامة - أن تشحذ فقرات الإشاعة وتسوى لتلائم الباعث الرئيسى على الخبر وتصبح متماسكة مع هذا الباعث بشكل يجعل الخبر الناشىء عنه أكثر ترابطا وأقرب إلى المعقول وأفضل استواء . وهكذا احتفظ - فى سلسلة واحدة من الإشاعات - بفكرة الحرب وتأكدت هذه الفكرة فى كل الروايات التى تناقلتها . وفى بعض التجارب التى استخدمت نفس الصورة قدمت شخصية أحد القسس ، فروى بالنقل أن قوما (بالجمع) قد قتلوا ، وأصبحت عربة الإسعاف محطة من محطات الصليب الأحمر وتضاعفت - أثناء تواتر النقل - المبانى التى هدمت وبولغ فى مدى التدمير . وكل هذه الروايات - رغم أنها زائفة - تلائم الفكرة الرئيسية وهى وصف حادث من حوادث الحرب . ولو كانت التفاصيل

المنقولة بالرواية قد تضمنتها الصورة لأحاطتها بإطار «أفضل» ولكن الراوى لم يشر إطلاقا إلى الأشياء أو الموضوعات الغريبة تماما عن الفكرة التى يروج الإشاعة عنها . فليس فى روايته ثمة فطائر ولا راقصات « باليه » ولا لاعبو « بيسبول» مما تضمنته الصورة الأصلية التى يروى الإشاعة عنها .

وإلى جانب الاستيرادات نجد تمويهات أخرى يقصد منها دعم الفكرة الرئيسية . فالصورة الأصلية تظهر أن عربة الصليب الأحمر محملة بمفرقعات ، ولكن الرواية اعتادت أن تذكر أنها محملة بمهمات طبية وهى ما كان « يجب » أن تحمله .

وقد وصف الزنجى فى الصورة نفسها على الدوام – تقريبا – بأنه جندى رغم أن ثيابه قد توحى بأنه من المتطوعين المدنيين ، لأن شكل جندى يشترك فى ميدان القتال « أفضل » من شكل مدنى بين جنود نظاميين .

التتابـع الملائم

وتنتج تمويهات أخرى من محاولة تكملة صور ناقصة أو ملء الثغرات فى المجال المثير ويتجه الجهد مرة أخرى – هنا – إلى جعل النتيجة الإجمالية مترابطة وذات معنى . وهكذا تقرأ الكلمات المكتوبة على لوحة دار من دور السينما : «ق . . . لويس» بلا تحوير «قصر لويس» وتروى بالنقل على هذا الشكل ، كما يتم تناقل اسم «لاكى ريكس» على أنه «لاكى سترايكس»[1] .

وكل هذه الأدلة وكثير غيرها مما يشبهها أمثلة على ما سبق تسميته «إطارات» وهى وإن كانت تمويهات صادرة من الإدراك والذاكرة إلا أنها تحدث بقصد التمهيد لشكل يتصوره العقل أكثر ترابطا وتماسكا . وكل تفصيل من التفاصيل يتم استيعابه بحيث يماثل الفكرة الرئيسية مع الحرص على «التتابع الملائم» لكى يستقيم المعنى المقصود حيث يكون السياق مفتقرا إليه أو ناقصا .

الاستيعاب بالتركـيز

يبدو أحيانا كما لو أن الذاكرة تحاول ألا تحمل إلا أقل عبء ممكن مثال ذلك : بدلا من تذكر فقرتين فإن من الأوفر إدماجهما فى فقرة واحدة . وبدلا من الإشارة إلى سلسلة من الإعلانات الموضوعة فى أنفاق قطارات السكك الحديدية التى تسير تحت الأرض وكل منها له دلالته الخاصه فإن الروايات بالنقل تشير أحيانا إلى «لوحة الإعلانات» فحسب أو ربما إلى «كثير من الاعلانات» ، وفى صورة

(١) اسم السجائر الأمريكية المعروفة .

أخرى يتضح أنه من الأوفق الإشارة إلى «كل أنواع الفواكه» دون عد جميع هذه الأنواع المحمولة على عربة البائع ، كما يوصف الذين يركبون العربة بعبارة مختصرة مثل «جملة من الناس جالسين وواقفين فى العربة» فتضيع شخصياتهم فى هذا الوصف المختصر .

مماثلة الاستيعاب مع التوقع

وكماتتغير التفاصيل أو تستورد لكى تدعم الفكرة البسيطة التى يحتفظ بها المستمع فى ذاكرته ، فإن كثيرا من الفقرات تتشكل بحيث تساند عادات العميل فى التفكير فإدراك الأشياء بالحواس وتذكرها إنما يتم بالطريقة التى « اعتادت » عليها ، وهكذا فإن مخزنا للمشروبات الروحية فى إحدى الصور الباعثة على التفكير فى وسط مجموعة من الأبنية . ينتقل – عند الرواية – إلى ناصية الشارعين ويصبح « مخزن المشروبات الروحية » المألوفة لدى الراوى ، وعربة الإسعاف التابعة للصليب الأحمر قد قيل إنها تحمل مهمات طبية لا مفرقعات لأنها «يجب» أن تحمل مهمات طبية ، و «الكيلومترات» على أعمدة علامات الطرق تتحول إلى «أميال» لان الأمريكيين قد اعتادوا على قياس المسافات بالأميال .

وأكثر ما يسترعى الانتباه فى كل التشويهات الاستيعابية هو ماتبين – فى أكثر من نصف تجاربنا – من أن «موسى من مواسى الحلاقة تنتقل (أثناء الرواية) من يد رجل أبيض إلى يد رجل أسود . فهذه النتيجة دليل واضح على اتجاه الاستيعاب إلى المماثلة مع التوقع الذى استقر بالتصحيف المتكرر المتشابه . فالرجال السود «مفروض فيهم» أن يحملوا مواسى حلاقة . أما البيض فلا .

مماثلة الاستيعاب مع العادات اللغوية

ويغلب أن يكون التوقع مجرد ملاءمة موضوع تم إدراكه بالحواس وتذكره مع شعارات مطبوعة من قبل فى ذهن الفرد مثل «الكليشيهات» تمارس تأثيرا قويا فى إخضاع الإشاعات للعادات المرعية . والكلمات تبعث – غالبا – فى ذهن المستمع صورا مألوفة لا يستطيع مقاومتها وتحدد له الأنماط التى يجب أن يحصر داخل نطاقها تفكيره فى الحادث وفى القيمة التى يجب أن يقدرها له ، وتروى الإشاعات – غاليا – فى كلمات مصحفة تكرر ترددها تنطوى على قرار مبتسر متحيز مثل « الهارب من تيار الهواء » و « الجاسوس اليابانى » و « القبعة النحاسية» و «السويدى الأبكم» و «الأستاذ ذو الشعر الطويل» وهكذا .

الاستيعاب الذى يشتد الباعث عليه

مع أن ظروف تجاربنا لا تعنى عناية كاملة بالاتجاهات الانفعالية التى تشمل القيل والقال والإشاعة والفضيحة . فإن هذه الاتجاهات ذات أهمية ملحة إلى حد أنها تعبر عن نفسها حتى تحت الظروف المعملية .

مماثلة الاستيعاب مع المصلحة

يحدث أحيانا أن صورة تتضمن ثيابا نسائية - كأحد التفاصيل التافهة فى المسرح الأصلى للموضوع - تصبح عند تناقلها بالرواية خبرا مقصورا على الثياب دون غيرها . ويحدث هذا النوع من الشحذ عندما تروى الإشاعة جماعات من النساء ، ولكنها لاتحدث قط عندما يرويها الرجال .

وقد استخدمت صورة تتضمن شيئًا عن الشرطة لإجراء تجربة على جماعة من ضباط الشرطة . فتركز النقل بالتوالد كله طبقا للمضبطة المثبتة لنتيجة التجربة - حول ضابط الشرطة الذى شعر الأشخاص الذين أجريت عليهم التجربة نحوه دون شك بعطف شديد أو «مماثلة» . وبالإضافة إلى ذلك فإن العصى التى يستخدمها الشرطى أثناء النوبة الليلية - رمز نفوذه - قد شحذت شحذا شديدا وأصبحت الموضوع الرئيسى للجدل . وتحولت الرواية فى مجموعها إلى مادة عن موضوع خاص بالشرطى متحيز له .

مماثلة الاستيعاب مع الرأى المبتسر المتحيز

ولو أنه من العسير فى وضع تجريبى أن نحصل على التشويهات الناتجة من الحقد ، إلا أن المادة التى لدينا تنطوى على فرصة معينة لتعقب التعقيد العدائى للمواقف العنصرية .

لقد سبق أن تحدثنا عن الصورة التى احتوت على رجل أبيض يمسك بموسى حلاقة أثناء مناقشته مع زنجى ، وأن الرواية الأخيرة فى أكثر من نصف التجارب التى أجريت على هذه الصورة قد أشارت إلى أن الزنجى (بدلا من الرجل الأبيض) أمسك بالموسى فى يده «وروى عدة مرات أنه كان يلوح به فى الهواء» أو أنه كان يهدد «الرجل الأبيض» .

ولا نستطيع أن نقطع بما إذا كان هذا التشويه المشئوم يعكس الحقد على السود أو الخوف منهم . ففى بعض الحالات قد تكون هذه الانفعالات الأكثر عمقا هى العامل الاستيعابى فى أثناء ممارسته لعمله ، ومع ذلك فإن التشويه قد يحدث

من أشخاص لا يشعرون بتحيز خاص ضد السود . فهو تصحيف ثقافى بلا تفكير أرسى بالتكرار أن الزنجى شديد الولع باستخدام المواسى كأسلحة . والإشاعة - رغم أنها خبيثة - قد تعكس بصفة رئيسية استيعابا للخبر بالمماثلة مع الشعارات الكلامية التى أصبحت «كليشيهات» ، ومع التوقع الملتزم بالتقاليد والعادات المرعية . والتشويه فى هذه الحالة قد لا يعنى استيعابا للعداوة . فكثير مما يسمى رأيا مبتسرا متحيزا لا يعدو أن يكون مجرد مسايرة العادات الشعبية الدراجة بقبول المعتقدات السائدة عن جماعة خارجية .

وسواء عكس هذا التغيير لوضع الموسى كراهية عميقة وخوفا من جانب الأشخاص البيض أم لا ، فمن المؤكد أن روايات الأشخاص السود الذين أجريت عليهم تجربتنا قد كشفت عن نمط من التشويه يحركه باعث معين . وقد تفادى الأشخاص السود الذين أجريت عليهم التجربة باستمرار - تقريبا - أية إشارة إلى اللون لأن مصلحتهم كمنتمين إلى جنس معين أن يقللوا من أثر الصورة العرقية الهزلية «الكاريكاتورية» ، وقد سمع أحدهم إشاعة تتضمن هذه الجملة «هناك زنجى يرتدى ثوبا يلفت النظر» فرواها هناك « رجل يرتدى ثوبا يلفت النظر . ربما كان زنجيا» .

وفى إحدى الصور روى زنجى أن الرجل الملون الذى يتوسط الصورة «تساء معاملته» ورغم أن هذا التفسير قد يكون صحيحا ، فإن من الجائز أن يكون ذلك الملون قد اشترك فى اضطرابات وجاءت الشرطة للقبض عليه . فالأشخاص الذين أجريت عليهم التجربة - من البيض والسود - يغلب أن يدركوا بالحواس ويتذكروا ويفسروا هذا الوضع الخاص بطرق متناقضة تمام التناقض .

وهكذا - حتى تحت الظروف المعملية - نجد الاستيعاب بالشكل الذى يناسب الميول الانفعالية المتحيزة عميقة الجذور ، وإشاعاتنا - كإشاعات حياة كل يوم - تميل إلى أن تلائم وتدعم المصالح المهنية والانتماء إلى الجماعات الطبقية أو العنصرية أو الآراء المبتسرة المتحيزة التى يعتنقها الراوى .

خاتمة : عملية «الترقيد» Embedding

إن التسوية والشحذ والاستيعاب ليست حركات آلية منفصلة . فهى تمارس عملها فى نفس الوقت وتعكس عملية فريدة تبرز شخصية الفرد تنتهى بالتمويه الذى يعد من أكثر الخصائص تمييزا للإشاعة . وإذا أردنا أن نلخص ما يحدث

فى كلمات قليلة لجاز لنا أن نقول :

كلما كان لمجال مثير للتفكير أهمية لدى فرد ما ، ولكنه فى نفس الوقت غامض ومعرض لتفسيرات متشعبة تبدأ عملية تركيب شخصية فى ذهن هذا الفرد . ومع أن هذه العملية معقدة «تتضمن التسوية والشحذ والاستيعاب » فإن طبيعتها الجوهرية يمكن تمييزها كجهد للهبوط بالاثارة إلى تركيب بسيط ذى معنى له مدلول ملائم للفرد طبقا لمصالحه وخبرته الخاصة . وتبدأ العملية فى اللحظة التى يدرك فيها الفرد بإحساسه الوضع الغامض ، ولكن الآثار تصل إلى أقصى شدتها إذا تدخلت الذاكرة . وكلما طال الوقت الذى ينقضى على الإحساس بالإثارة اشتد - غالبا - التغير الثلاثى ، كما أنه كلما كثر عدد الناس الذين تنتقل الرواية بالتسلسل فيما بينهم اشتد - غالبا - التغير حتى تصل الإشاعة إلى خلاصة موجزة ثم تكرر من الحافظة الواعية « الصماء »

والآن تصبح هذه العملية ذات الشعب الثلاث خاصية مميزة لا للإشاعة فحسب . بل لممارسة ذاكرة الفرد أيضا ، فقد كشفت ووصفت فى التجارب على حافظة الفرد التى أجراها «وولف» و «جيبسون» و «وأولبورت» وفى تجارب «بارتيليت» على الذاكرة التى أجراها على الأفراد وعلى الجماعات .

ومع ذلك فإنه لم يتفق بعد - حتى الآن - على صيغة فنية تعبر بدقة عن هذه النتيجة ولا على كفاية العمليات الثلاث التى وصفناها هنا (التسوية والشحذ والاستيعاب) . ونعتقد أن تصورنا لشوط التغير الثلاثى ونهايته لا يكفى لتفسير اكتشافاتنا التجريبية واكتشافات الآخرين فى هذا المجال فحسب ، بل لتفسير التشويهات التى تتعرض لها إشاعات كل يوم .

ولما كنا نفتقر إلى تعريف أفضل فإننا نتحدث عن التغير الثلاثى على أنها العملية التى تقوم بـ « الترقيد» فيحدث فى كل تجاربنا وفى كل الدراسات المتصلة بها أن كل شخص أجريت عليه التجربة يتبين أن العالم الخارجى المثير من العسير جدا أن يدركه ، وأن يبقى على طابعه الموضوعى . فهذا العالم - فى سبيل منافعه الشخصية - يجب أن يعاد سبكه لا لكى يلائم سعة إدراكه وسعة احتجاز حافظته فحسب ، ولكن لكى يلائم أيضا حاجاته ومصالحه الشخصية ، فما كان خارجيا يصبح داخليا ، وما كان موضوعيا يصبح شخصيا . وفى رواية إشاعة تكون نواة الإعلام الموضوعى الذى تلقاه عنها قد «رقدت» مطمورة فى

حياته العقلية « الديناميكية » إلى حد أن أثر ذلك بصفة رئيسية - انما هو أثر انعكاسى فيعكس على الإشاعة تصور العمليات الخاصة باحتجاز حافظته لتفاصيل تلك الإشاعة ، كما يعكس جهده الخاص فى أن يوجد معنى لموضوع غامض ونتاج ذلك يكشف الكثير من حاجاته الانفعالية التى تتضمن قلقه وأحقاده ورغباته ، وعندما يتعدد عملاء الإشاعات الذين يشتركون فى عملية «الترقيد» هذه . فان النتيجة الصافية لتجربة النقل بالتسلسل تعكس أحط دلالة عامة على الاهتمام الثقافى وسعة الذاكرة وعلى عاطفة الجماعة وآرائها المبتسرة المتحيزة .

وقد يسأل أحدهم عماإذا كا يتحتم - دائما - أن تكون الإشاعة زائفة ، ونجيب على هذا السؤال بأنه فى كل حالة تقريبا يبدو أن عملية «الترقيد» من الامتداد والتشعب بحيث لا يجب أن يعزى - إطلاقا - إلى النتيجة إمكان تصديقها ، وإذا اتضح أن رواية قد أصبحت جديرة بالثقة فإننا نجد دائما أنه قد أتيحت مستويات مأمونة للتدليل يمكن للعملاء المتعاقبين أن يشيروا إليها بغرض إثبات صحة ما يروونه ، فربما تكون صحيفة الصباح اليومية أو الإذاعةقد تحققت من وضع الإشاعة ، ولكن عندما تتاح مثل هذه المستويات المأمونة للتثبت ، فإن مما يدعو للتساؤل ما إذا كان علينا أن نتحدث بعد عن الإشاعة إطلاقا .

وهناك - طبعا - حالات على حد فاصل لا يتسنى لنا إزاءها أن نقرر ما إذا كانت مضغة فى فم ما يجب أن تسمى إشاعة أم لا . ولكن إذا عرفنا الإشاعة (وهنا نرى أننا يجب أن نعرفها) بأنها «إيعاز باعتناق عقيدة تؤمن بأهمية معينة دون أن تتاح لها مستويات مأمونة للتدليل عليها » فعندئذ يترتب على الحقائق التى قدمناها أن الإشاعة ستعانى مثل ذلك التشويه الشديد خلال عملية « الترقيد » التى لا ترشد قط - تحت أى ظرف من الظروف - إرشادا صحيحا عن العقيدة أو السلوك .

الجـــزء الثالث

الإعلام والرأى العام

(٩)

الكتب والمكتبات ووسائل الإعلام الأخرى
انجس كامبل وتشارلز أ. ميتزنر[1]

إن أكثر من نصف عدد الراشدين من الشعب يعيش على بعد ميل واحد من مكتبة عامة . ومع ذلك فلم يزر إلاخمسهم فقط مكتبة عامة خلال السنة السابقةعلى هذا الإحصاء ـ ولم تزد نسبةالذين ترددوا مرة واحدة فى الشهر عن عشرهم . ومعظم الراشدين وخاصة فى المدن الكبرى قد استفاد من المكتبات العامة أحيانا فى حياته ، وتثير هذه الحقيقة الخاصة بإهمال ذلك العدد الكبير من الناس مزايا المكتبات العامة رغم قربها منهم هذه الأسئلة :

إلى أى حد يقرأ البالغون سن الرشد من الأمريكيين؟ ومن أين يحصلون على ما يقرأون؟

جمهور قراء الكتب
معظم قراء الكتب أقلية ضئيلة من الجمهور

إن نصف عدد الراشدين من أفراد الشعب تقريبا لا يقرأ كتبا على الإطلاق خلال السنة السابقة على الإحصاء ، وكثير غيرهم لايقرأ إلا القليل . ونسبة ضئيلة تقرأ عددا كبيرا جدامن الكتب . والواقع أن عشرة فى المائة من السكان الذين هم أكثر الناس قراءة يقدرون بأكثرمن ثلثى عدد قراء الكتب خلال السنة . وعندما سئل الناس «هل قرأت كتبا فى السنة الماضية بما فى ذلك الكتب الصغيرة التى تباع بخمسة وعشرين سنتًا؟» ثم سئل بعد ذلك «ما عدد الكتب التى قرأتها؟» كانت أجوبتهم كما يلى :

---

(١) عن بحث أجراه «مركز البحث الاستقصائى» بجامعة «ميتشجان» آن أربر ١٩٥٠ عنوانه «انتفاع الجمهور بالمكتبة» ص ١ ـ ١٤ .

الجدول ١
عدد الكتب التى قرر أصحاب الأجوبة أنهم قرأوها فى السنة السابقة

	القراء جميعا من الراشدين
لم يقرأوا كتاب قط	٤٨٪
قرأوا من كتاب إلى ٤ كتب	١٨٪
قرأوا من ٥ إلى ٩ كتب	٧ ٪
قرأوا من ١٠ كتب إلى ٤٩ كتابا	١٨٪
قرأوا ٥٠ كتابا أو أكثر	٧ ٪
عدد من القراء لم يثبت	٢ ٪
	١٠٠٪

وبالإيجاز فإن قراءة الكتب نشاط مركز تركيزا شديدًا . فقليل من الناس يقرأ كثيرا جدا ، والبعض يقرأ الكتب باعتدال ، والغالبية الكبيرة منهم تقرأ عدد قليلا جدا من الكتب أو لا تقرأ إطلاقا .

وفى المتوسط تقرأ النساء من الكتب أكثر مما يقرأ الرجل . كما يقرأ الشباب أكثر مما يقرأ من يكبرونهم سنا . وكمايمكن أن يكون متوقعا فإن مدى قراءة الكتب يتوقف على كلا التربية والإيراد . وقراءة الكتب أكثر شيوعا ـ إلى حد ما ـ فى الجماعات الكبيرة عنها فى المدن الصغيرة أو المناطق الريفية ولو أن الفروق ليست كبيرة .

وكثير من الناس أبدى عدم تثبته من العدد الدقيق للكتب التى قرأها فى السنة الماضية وبخاصة أولئك الذين قرأوا عددا كبيرا من الكتب . وكانوا أكثر تثبتا من عدد الكتب التى قرأوها فى الشهر الماضى . ومعدل عدد الكتب التى قرر أصحاب الأجوبة أنهم قرأوها فى شهر واحد يوافق ـ مع ذلك ـ العدد الإجمالى للكتب التى قرروا أنهم قرأوها طول العام .

معظم قراء الكتب يفضلون الكتب الخيالية

ثلاثة أرباع الراشدين الذين يقرأون على الأقل كتابا واحدا فى السنة ، إنما يقرأون كتباخيالية ، سواء اقتصرت قراءتهم عليها أو كان معظم ما يقرأونه منها . وتميل النساء إلى التركيز على قراءة الكتب الخيالية أكثر من الرجال . ونحو ثلث الرجال القراء لا يقرأ إلا ما ليس خيالا ، أو يقرأ غالبا ما ليس خيالا ، ولكن هذا النوع من الكتب لا يقرأه إلا واحد من سبعة من النساء القارئات .

هل هى كتب يغلب عليها الخيال أو قصص أو هى ؟[1]

	الرجال القراء	النساء القارئات	جميع القراء
كتب خيالية بحتة	٪٤٦	٪٥٧	٪٥٢
كتب يغلب عليها الخيال	٪١٩	٪٢٤	٪٢٢
كتب يغلب عليها العنصر غير الخيالى	٪١٩	٪ ٨	٪١٣
كتب ليست خيالية إطلاقاً	٪١٢	٪٦٠	٪ ٨
الإنجيل دون غيره	٪ ٣	٪ ٤	٪ ٤
كتب لم يثبت نوعها	٪ ١	٪ ١	٪ ١
	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠

وكما هو متوقع فإن الناس الذين يختلفون فى قدر تعليمهم المدرسى يختلفون فى نوع الكتب التى يقرأونها . وكلما زادت التربية الأصولية ارتفعت نسبة من يتجنبون قراءة الكتب الخيالية . وعدد القراء كذلك متصل بنمط ما يقرأون . فأولئك الذين يجمعون بين قراءة الكتب الخيالية وغير الخيالية يقرأون عدداً إجماليا أكبر بكثير مما يقرأه أولئك الذين تقتصر قراءتهم سواء على الكتب الخيالية أوغير الخيالية .

(١) هذا الجدول مبنى على أولئك الذين قرأوا على الأقل كتابا واحدا خلال السنة السابقة على الاستفتاء ، وأولئك الذين قرروا أن أغلب ما قرأوا كان خيالا إجابة على الأسئلة السابقة قد وجه إليهم أيضا هذا السؤال «هل قرأت أى كتب ليست قصصا أو خيالا» .

استخدام وسائل أخرى للإعلام

وقراءة الكتب ـ طبعا ـ ليست النوع الوحيد من أنواع القراءة . فكثير من الناس الذين لا يلقون نظرة على أى كتاب يحصلون على الإعلام من الصحف والمجلات كما أن القراءة ليست مصدر الإعلام الوحيد المتاح للجمهور . فالوسائل الجماهيرية العامة كالإذاعة والسينما والخطب تصل إلى أعداد ضخمة من أفراد الشعب .

فالكتب ـ وبالتالى خدمات المكتبات العامة ـ ليست إلا جزءاً من العمل المتشابك الذى يقوم به إعلام الجماهير فى العالم الحديث . فما هو عدد وما هو نوع الناس الذين يستخدمون وسائل الإعلام الأخرى هذه ، وكيف يقارنون بأولئك الذين يقرأون أيضاكتبا ويترددون على مكتبات؟

قراء الصحف والمجلات واسعة الذيوع جدا

معظم البالغين سن الرشد من الأمريكيين يقرأ صحيفة كل يوم . ومع أن ٥٠ فى المائة من مجموع الراشدين من الشعب يقررون أنهم لا يقرأون كتبا خلال السنة فإن ٨٠ فى المائة منهم لا ينقطعون عن مطالعة صحفهم اليومية . ونسبة قراء الصحف فى الرجال والنساء متساوية غالبا . والجامعيون ليسوا أكثر ميلا إلى قراءة الصحيفة كل يوم من أولئك الذين اقتصروا على إتمام دراستهم الأولية ، ولكنهم أقدر بمراحل على قراءة أكثر من صحيفة فى اليوم . ومع ذلك فهناك عدد كبير بين الناس الذين لم يتموا دراستهم الأولية (نحو الثلث) ممن لا يقع بصره قط على صحيفة أو من يطالع صحيفة واحدة فقط عرضا .

و«قراءة» صحيفةما أمر لا يسير على وتيرة واحدة طبعا ، فبعض الناس يكتفى بمجرد إلقاء نظرة على العناوين الكبيرة ، وآخرون يكادون يقرأون كل حرف فى الصحيفة . ونحو خمس القراء يطالع الأخبار التى تهمه كالرياضة والأخبار والأخبار المسلية المضحكة .ونحو نفس النسبة ـ أى الخمس ـ يكاد يقرأ كل حرف فى الصحيفة . والذين تلقوا تعليما طيبا ـ بوجه الإجمال ـ يطالعون الصحيفة بمزيد من الدقة والتمعن . وهناك بعض الفوارق بين طريقة مطالعة الرجال للصحيفة وطريقة مطالعة النساء لها . فالرجال بوجه عام يطالعون المقالات الرئيسية والصفحات المالية أكثر من النساء ، بينما النساء ـ على الأرجح ـ يطالعن الباب النسائى وأخبار المجتمع .

ومطالعة المجلات أقل انتشارا من مطالعة الصحف . وقد استخدم الاستفتاء تعريفا حرا جدا لمطالعة المجلات . فقد كان نص الأسئلة التى وجهت فى هذا الشأن «أهناك أية مجلات تطالعها بانتظام؟» .

وإذا كان الرد بالإيجاب «فما هى هذه المجلات؟» . وقد تضمنت الأجوبة كل أنواع المطبوعات الأسبوعية والشهرية - عدا الصحف اليومية - بما فى ذلك المطبوعات الكنسية والصحف الفنية والدوريات الأخرى التى تهم جماعات خاصة . وقد اتضح أن سبعة من كل عشرة بالغين يطالعون مجلة على الأقل بانتظام . وصلة ما تلقاه القارىء من تربية وثيقة بهذا النوع من القراءة . ففى الجماعة الأقل تعلما يزيد عدد من لا يطالعون أية مجلة عن النصف . فى حين أنه من الشائع فى الجماعة التى تضم الذين أنهوا الدراسة الثانوية والجامعية أن يوجد من يطالع عدة مجلات بانتظام .

نشرات الحكومة تقرأ على نطاق واسع

نحو نصف عدد البالغين سن الرشد من أهل البلد قد قرأ على الأقل نشرة حكومية واحدة ذات مرة ، بل إن النسبة أكبر من النصف بين أولئك الذين يعيشون فى المناطق الريفية والمدن الصغيرة . وعدد المتخرجين فى الكليات الجامعية ممن يقرأ هذه النشرات ضعف عدد من هم أقل حصيلة من العلم . كما أن النساء أكثر إقبالا على قراءتها من الرجال . وبعض السبب فى هذا الفرق بين المدن الصغيرة والريف والمدن الأكبر ربما يعود إلى رواج النشرات الزراعية . فأكثر النشرات الحكومية انتشارا بين الرجال هى تلك التى تهتم بالزراعة وإصلاح الأراضى . أما بين النساء فأكثرها رواجا النشرات التى تهتم بالصحة والطهى والعناية بالطفل .

معظم الراشدين يستمعون إلي الإذاعة كل يوم

يستمع نحو ثمانية من كل عشرة إلى الإذاعة ساعة على الأقل يوميا . والبعض - وخاصة بين النساء - يتركون أجهزة الراديو مفتوحة تقريبا بلا انقطاع . والاستماع إلى الإذاعة ذائع جدا بين كل الجماعات المهتمةبالتربية . وأكبر نسبة للمستمعين (أكثر من ست ساعات يوميا) توجد بين الذين أنهوا دراستهم الثانوية .

وهناك ـ طبعا ـ عدة أنماط للاستماع إلى الإذاعة . فبعض الناس يفضل البرامج الترفيهية فحسب ، والبعض يستمع إلى الإذاعات التربوية ، وقد نتساءل ـ بالنسبة لأولئك الذين تظل أجهزتهم مفتوحة من ست إلى اثنتى عشرة ساعة يوميا ـ عما يستمعون إليه حقا طول هذه ذلك الوقت . والبرامج التربوية تلعب ـ مع ذلك ـ دورا هاما فى الاستماع إلى الراديو . وعندما وجه السؤال الآتى «بجانب نشرات الأخبار هل تستمع إلى الأحاديث والمناقشات التى يذيعها الراديو؟» أجاب ٥٥ فى المائة ممن وجه إليهم السؤال بأنهم يستمعون إلى مثل هذه البرامج مرة أوأكثر فى الأسبوع ، وأجاب آخرون بأنهم يستمعون أقل من ذلك . ولم تزد نسبة من لم يستمعوا قط إليها عن ٢٥ فى المائة .

والحقيقة الماثلة هى أن برامج الإذاعة تقدم مادة إعلامية ذات أهمية قصوى لكثير من المستمعين . فعندما سئل الناس عن نوع البرنامج الذين يفتقدونه أكثر من غيره إذا تعطلت أجهزتهم أجاب ٤٢ فى المائة بأنهم يفتقدون المادة الإعلامية أوالأخبار أكثر من افتقادهم لغير ذلك من البرامج ، وأجاب ٤٥ فى المائة بأنهم يفتقدون البرامج الترفيهية ، ٩ فى المائة أجابوا بأنهم يفتقدون الاثنين معا على السواء . ومما يدل على أهمية الراديو فى حياة الجمهور الأمريكى أن واحدا فى المائة فقط قرروا أنهم لا يفتقدون كثيرا أيا من تلك البرامج . وبين الجماعات التربوية اتضح أن المتخرجين فى المدارس الثانوية وهم الذين يستمعون أكثر من غيرهم إلى الراديو هم الذين يفتقدون البرامج الترفيهية أكثر من افتقادهم البرامج التربوية .

عدد قليل من الناس يحضر الخطب العامة

مع أن أكثر من نصف البالغين من أفراد الشعب يستمع إلى الأحاديث التى يذيعها الراديو ، فإن أقل من الخمس هو الذى حضر أى نوع من أنواع الخطب العامة خلال السنة . وهذه الوسيلة من وسائل الإعلام تصل إلى أقل عدد من الناس الذين تصل إليهم كل وسائل إعلام الجماهير التى كانت موضوع الاستفتاء . كما أنها أوثق الوسائل صلة بالمستوى التربوى . فلا تزيد نسبة من حضر خطبا عامة خلال السنة ممن لم يحصلوا على شهادة مدرسية عن السبع حين بلغت هذه النسبة النصف ممن حصلوا على شهادة جامعية . والخطب التى ألقيت فى اجتماعات «جمعية آباء الطلبة والمعلمين» والمنظمات المدنية والأندية النسائية هى التى تضمنت الأجوبة غالبا الإشارة إليها مرارا أكثر من المحاضرات العامة

أوالاجتماعات الجماهيرية . ويبدو أن أثر العضوية فى جماعات محلية عامل هام فى تحديد الجمهور الذى يتم الاتصال به بهذه الوسيلة .

أغلبية تشاهد السينما مرة علي الأقل في الشهر

يتردد نحو ثلثى البالغبين فى هذا البلد على دور السينما مرة على الأقل فى الشهر ، ونصف أولئك البالغين يتردد مرتين على الأقل فى الشهر . وأولئك الذين لا يذهبون إلى دور السينما قط نسبة ضئلة جدا (٢١ فى المائة) أقل بكثير من نسبة الذين يترددون مرة أو أكثر فى الأسبوع (٣١ فى المائة) . والتردد على دور السينما يختلف اختلافا كبيرا تبعا للسن . فالشباب يترددون على السينما غالبا أكثر بمراحل ممن هم أكبر سنا . فأربعون فى المائة ممن تجاوزوا الستين من عمرهم لا يذهبون قط إلى دور السينما بينما خمسون فى المائة ممن تتراوح أعمارهم بين ٢١ و٢٩ عاما يترددون عليها مرة فى الأسبوع على الأقل .

شكل ١

نسبة الراشدين من السكان الذين يستخدمون وسائل الإعلام المختلفة

يطالعون صحفيفة أو أكثر يوميا	٨٢٪
يستمعون إلى الإذاعة ساعة أو أكثر يوميا	٧٩٪
يطالعون مجلة أو أكثر بانتظام	٦٩٪
يترددون مرة أو أكثر على دور السينما شهريا	٦٣٪
يطالعون كتابا أو أكثر فى السنة	٥٠٪
يستمعون إلى خطاب عام مرة أو أكثر فى السنة	٢١٪

وكلما زاد الإيراد وارتفع مستوى التعليم المدرسى زادت نسبة التردد على دورالسينما . فأعلى نسبة فى التردد على هذه الدور بين الجماعات التى تخرجت فى المدارس الثانوية والكليات الجامعية . أى أنها أعلى بكثير منها بين أولئك الذين لم يتموا الدراسة الأولية . أما بين الناس الذين يبلغ إيرادهم السنوى ثلاثة

آلاف دولار أوأكثر فليست هناك فروق ذات قيمة بين من أتموا الدراسة الثانوية ومن لم يتموها . ولكن يلاحظ مع ذلك فرق مدهش بين من يقل إيراده السنوى عن ثلاثة آلاف دولار من هاتين الجماعتين اللتين تلقى أفرادها تربية مدرسية . إذ يبدو أن اجتماع الإيراد المنخفض مع التربية المدرسية الضئيلة نسبيا يحمل - إلى حد قوى - على تجنب التردد على دور السينما . والسن هنا عامل آخر ، لأن كثيرين ممن لم يتلقوا إلا تعليما مدرسيا ضئيلا إنما هم من كبار السن الذين تقدم بهم العمر فى وقت لم يكن التعليم العالى قد انتشر انتشاره الحالى . والناس الذين يقل إيرادهم السنوى عن ألفى دولار يترددون على دور السينما نادرا نسبيا . وقد قرر ٤٢ فى المائة منهم أنهم لا يذهبون اليها قط . ولا ندرى كم هولاء من سكان الريف الذين من ذوى الإيراد النقدى المنخفض والذين يعيشون على مسافات بعيدة من دور السينما ، ولكن طابع التردد على دور السينما يتأثر دون شك بمثل هذه العوامل .

وقد شوهد أن وسائل الإعلام المختلفة - التى ليست قراءة الكتب إلا إحداها - تصل إلى الجمهور الأمريكى بدرجات مختلفة اختلافا كبيرا . وبين كل هذه الوسائل - إذا استثنينا الخطب العامة - تعد الكتب أقلها استخداما شاملا بواسطة الراشدين من أهل هذا البلد (شكل ١) .

هل استسلمت الكتب للراديو؟ لقد شوهد أن الكتب قد هبطت إلى آخر القائمة التى تتضمن ما يتكرر عرضه على الجمهور الأمريكى . وقد نتساءل بحق : هل السينما قد حلت محل القراءة؟ هل الناس الذين «اعتادوا القراءة» يميلون إلى أن تجذبهم الكتب أوالدوريات بحيث يفضلون إحداها على حساب الأخري؟ هل الكتب تتنافس مع وسائل الإعلام الأخرى على الاستئثار بوقت واهتمام الجمهور الأمريكي؟ وقد لا يمكن الإجابة مباشرة على هذه الأسئلة ولكن الاستفتاء يقدم بعض الأدلة على مدى استخدام قراء الكتب لوسائل الإعلام الأخري ، وكيف يقارن نشاط المترددين على المكتبات وغير المترددين يمثل الأنشطة الخاصة بالتردد على دور السينما والاستماع إلى الراديو .

مطالعة الكتب والانتفاع بالمكتبات ووسائل الإعلام الأخرى

قراء الكتب أكثر المنتفعين بوسائل الإعلام الأخرى

إن قراء الكتب لا يقصرون - قطعا - اهتمامهم على وسيلة واحدة من وسائل الإعلام . وقد يظن - من وجهة نظر الوقت - فحسب أن الناس الذين يقرأون الكتب

وبخاصة أولئك الذين يطالعون عددا كبيرا من الكتب خلال السنة لا يخصصون من الوقت للراديو والصحف والسينما ما يخصصه أولئك الذين لا يقضون أى وقت فى قراءة الكتب . ولكن يبدو أن جمهور قراءة الكتب شديد الاهتمام بكل أشكال وطرق الإعلام ـ فهم لا يقتصرون على القراءة أكثر من غيرهم . بل أنهم يستمعون أكثر ويشاهدون أكثر من الغير .

وكيفما كان أثر الراديو على عادات القراءة بين أفراد الشعب ، فإن هذا الأثر لا يظهر فى مقارنة مستمعى الراديو من الناس الذين يطالعون كثيرا من الكتب بأولئك الذين لا يطالعون كتبا . وقد اتضح من جماعة من الناس يطالع كل فرد فيها ١٥ كتابا فى السنة أنها استمعت إلى الراديو بقدر أولئك الذين طالعوا عددا قليلا من الكتب أو لم يطالعوا شيئا منها على الإطلاق ، إن لم تكن قد استمعت أكثر منهم . وبعض الناس قد يطالعون ويستمعون إلى الراديو فى نفس الوقت . ونحو ثلثى البالغين فى هذا البلد قد قرروا أنهم يستمعون إلى الراديو من ساعة إلى ست ساعات يوميا بصرف النظر عما إذا كان يطالعون كتابا أو لا يطالعون[1] .

والناس الذين يقرأون الكتب وبخاصة أولئك الذين يلتهمون الكتب التهاما أكثر ميلا إلى مطالعة الصحف والمجلات معا من أولئك الذين لا يطالعون كتبا . وثمانية من كل عشرة راشدين يطالعون صحيفة يوميا فى الغالب مع أن نسبة من يقرأون كتابا واحد خلال السنة لا تزيد على خمسة من عشرة . وهذا يعنى ـ طبعا ـ أن كثيرا من الناس الذين لا يطالعون كتابا قط يقبلون على مطالعة صحفهم بإخلاص . ومع ذلك فهناك علاقة واضحة بين مطالعة الصحف ومطالعة الكتب .

---

(١) اكتشفت بعض الصلات المتبادلة بين الانتفاع بمختلف وسائل الإعلام عن طريق دراسة قام بها مركز البحث الاستقصائى عنوانها «المصلحة والإعلام والموقف فى حقل الشئون العالمية» ، نوفمبر ١٩٤٩ . وقد ثبت فى هذه الدراسة أنه كلما زاد عدد أوجه نشاط الإعلام التى يهتم بها الناس رجح : (١) ارتفاع إدراكهم للشئون العالمية ، (٢) ازدياد اهتمامه بهذه المنطقة ، (٣) إقبالهم الشديد على السفر ـ وهذه الصلات وغيرها من العلاقات المتبادلة تدعم النظرية القائلة بأن هناك «طابع نشاط» عام ، وأن المستوى الرفيع فى وجه من أوجه النشاط يميل إلى أن يوثق صلته بمستوى رفيع فى وجه آخر داخل حدود ذلك النشاط العام .

فأولئك الذين لا يطالعون صحيفة قط ينتمون غالبا انتماء تاما إلى الجماعة التى لا يطالع أفرادها إلا قليلا من الكتب أو لا يطالعونها اطلاقا . وأولئك الذين يطالعون صحيفتين أو أكثر يوميا يغلب وجودهم غالبا بين من يطالعون أكبر عدد من الكتب . ومطالعة المجلات ـ كمطالعة الصحف ـ أكثر ذيوعا بمراحل من مطالعة الكتب . وبعض الناس الذين يندر أن يطالعوا كتبا أو لا يطالعونها قط يقررون أنهم يطالعون أربع أو خمس مجلات ، أو حتى أكثر من هذا العدد ، بانتظام . ولكن قراء الكتب ـ بوجه عام ـ هم أكثر قراء المجلات عددا . والذين يطالعون أكبر عدد من الكتب ، أولئك الذين يطالعون خمسة عشر كتابا أوأكثر سنويا ، يطالعون أكبر عدد من المجلات بفارق واسع بينهم وبين غيرهم .

والتردد على دور السينما ـ خلاف كثرة الاستماع إلى الراديو ـ يتنافس على الوقت الذى يحتمل أن يخصص للقراءة . فيجب أن نتوقع أن الناس الذين يقرأون كثيرا لا يجدون وقتا للتردد على دور السينما بقدر ما يجد أولئك الذين يقرأون قليلا أو لا يقرأون على الاطلاق . والحقائق التى عبرت عنها هذه الدراسة تدعم إلى حد ماهذا الفرض ولو أن العوامل المتصلة بها عبرت عنها هذه الدراسة تدعم إلى حد ما هذا الفرض ولو أن العوامل المتصلة بها تعقد الصورة . فأولئك الذين لا يطالعون كتبا إطلاقا ـ على سبيل المثال ـ يترددون على دور السينما أقل من أولئك الذين يبلغ متوسط ما يقرأون شهريا أكثر من كتاب . وهذه الحقيقة لا شك مرتبطة بحالتهم المالية المتواضعة . وأكثر الناس ترددا على دور السينمايوجد بين قراء الكتب الذين يطالعونها باعتدال ـ فإن ٨١ فى المائة من البالغين الذين يطالعون بين خمسة كتب وأربعة عشر كتابا سنويا يذهبون إلى السينما مرة على الأقل شهريا . وبين أكثر من الناس مطالعة للكتب (١٥ كتابا أوأكثر سنويا) يلاحظ هبوط فى هذا المتوسط العالى للتردد على السينما وارتفاع فى عدد أولئك الذين يتجنبون فعلا دور السينما خلال الشهر .

جدول ٣
العلاقة بين تكرار استخدام وسائل الإعلام وعدد الكتب التى طولعت خلال السنة

الكتب التى طولعت خلال السنة[1]

الاستماع إلى الراديو	لم يقرأوا كتباً قط	من ١ إلى ٤ كتب	من ٥ إلى ١٤ كتابا	١٥ كتاباً فأكثر
لم يستمعوا قط	٤ ٪	٣ ٪	٤ ٪	٤ ٪
أقل من ساعة يوميا	٦ ٪	١١٪	٤ ٪	٧ ٪
من ساعة إلى ست ساعات	٦٨٪	٦٠٪	٦٦٪	٦٦٪
أكثر من ست ساعات يوميا	١٠٪	١٢٪	٢٢٪	١٨٪
مطالعة الصحف				
لا شىء	١٠٪	٦ ٪	١ ٪	أقل من ١٪
من صحيفة إلى خمس صحف أسبوعيا	١٣٪	١٢٪	٤ ٪	٤ ٪
صحيفة يومياً	٦٧٪	٧١٪	٧٣٪	٦٩٪
مرتان أو أكثر يوميا	٧ ٪	١٠٪	٢١٪	٢٦٪
مطالعة المجلات				
لا شىء	٤٦٪	٢٣٪	١٤٪	١٤٪
من مجلة إلى ثلاث مجلات	٣٤٪	٤٥٪	٣٨٪	٣٦٪
أربع مجلات أو أكثر	١٢٪	٢٣٪	٣٩٪	٤٥٪
التردد على دور السينما				
لا شىء	٢٩٪	١٨٪	٦ ٪	١٤٪
أقل من مرة شهريا	١٤٪	٢١٪	١٣٪	١٥٪
من مرة إلى أربع مرات شهريا	٤٣٪	٥١٪	٦٣٪	٤٨٪
أكثر من أربع مرات شهريا	١٣٪	١٠٪	١٨٪	٢٣٪

(١) الأجوبة التى لم يتثبت أصحابها من عدد الكتب أو أجابوا بأنهم لا يعرفون عددها قد استبعدت من هذا الجدول .

ولا شك أن تلك العوامل ، كالتربية والإيراد والوظيفة ، التى تسهم فى زيادة استخدام وسيلة ما من وسائل الإعلام ، تمارس تأثيرها فى حالة كل أنماط الوسائل الجماهيرية ، ويبدو أنه ليست هناك تفرقة بين الجماعات التى تميل إلى الاقتصار بالأخرى إلى استخدام وسيلة معينة . فالناس الذين يقرأون كثيرا يستخدمون أيضا كل أشكال الإعلام الجماهيرى إلى حد كبير .

الانتفاع بالمكتبات وثيق الصلة بطرق الإعلام الأخرى

إن المكتبة العامة فى المجتمع إنما هى مركز يتاح فيه الإعلام للجمهور . وبذلك فهى جزء من النظام الشامل للوسائل التى يبث الإعلام بواسطتها . وعلاقة المكتبة بتلك الوسائل الأخرى ذات أهمية . فهنا يطرح هذا السؤال : كيف يختلف المترددون على المكتبات عن غير المترددين فى استخدامهم لوسائل الإعلام الجماهيرية الأخرى؟ والمتردد على المكتبة ـ فى نطاق الغرض من هذه الدراسة ـ قد عرف بأنه أى شخص انتفع بالمكتبة العامة مرة على الأقل خلال السنة الماضية .

وجميع الناس الذين يترددون على المكتبات هم ـ فى الواقع ـ من قراء الصحف . وقطاع السكان الذى لا يطالع الصحف مقصور تماما فى الغالب على الجماعة التى لم تزر قط مكتبة عامة . وليس هناك فرق كبير فى مطالعة الصحف بين أولئك الذين يترددون – نسبيا – مرارًا على المكتبة وأولئك الذين لا يزورونها إلا نادرا .

ومطالعة المجلات وثيقة الصلة جدا بالتردد على المكتبة . فبين أولئك الذين يترددون على المكتبة مرارا يقرأ نصفهم تقريبا من أربع إلى ست مجلات أو أكثر بانتظام . وهذا الطابع يشبه جدا الطابع الذى اتضح بالنسبة لقراء الكتب ومن لايقرأونها . فالناس الذين يطالعون كتبا كثيرة يقبلون أيضا على مطالعة أنماط أخرى من المطبوعات إقبالا شديدا . وكما قد يكون متوقعا فإنهم يمثلون نسبة كبيرةجدا من زبائن المكتبة . وأولئك المترددون على المكتبة يطالعون بوجه عام أكثر من غيرهم ، وكلما زاد التردد على المكتبة زادت القراءة . وثلاثة أرباع أولئك الذين لم يزوروا مكتبة قط لم يقرأوا ـ فى الغالب ـ كتابا واحدا فى السنة السابقة .

ويبدو أن الراديو هو أقل وسائل الإعلام صلة ، سواء بمطالعة الكتب أو بالتردد على المكتبة . فيوجد بين أولئك الذين يترددون على المكتبات العامة وأولئك

الذين لا يترددون معا من يستمع باعتدال إلى الراديو ومن يسرف فى الاستماع إليه . ولكن التردد على دور السينما مرتبط ـ من جهة أخرى ـ ارتباطا متبادلا بالتردد على المكتبة . فربع المواظبين على زيارة المكتبة يذهبون إلى دور السينما أكثر من مرة أسبوعيا . ولا تزيد نسبة من لا يذهب قط إلى هذه الدور منهم عن خمسة فى المائة . ولكن ٣٥ فى المائة من أولئك الذين لم يزوروا المكتبة قط لا يذهبون إلى دور السينما إطلاقا . والحقيقة الماثلة فى أن التردد على دور السينما أوثق صلة بالتردد على المكتبة منه بمطالعة الكتب توحى أن التردد على المكتبة ـ بالإضافة إلى بواعث القراءة والتعود عليها ـ نموذج أكثر إيجابية يقتضى عادات خاصة . والمترددون على المكتبات لا يقبلون على القراءة إقبالا شديدا فحسب ولكنهم ـ فيما يبدو ـ جماعة متنقلة نسبيا . ومما يعزز هذه النظرية ما سوف نناقشه بشأن السن والتردد على المكتبة والأسباب الداعية لعدم التردد عليها .

وقراء الكتب والمترددون على المكتبات ـ عموما ـ يبدون طابعا متشابها بالنسبة لمقدار تعرضهم لوسائل الإعلام الجماهيرية الأخرى . فهم قوم يستفيدون إلى أقصى حد من كل وسائل الإعلام . إنهم يقبلون على مطالعة الصحف والدوريات إقبالا شديدا ، ويستمعون إلى الراديو على الأقل بمقدار استماع الآخرين إليه ، ويشاهدون عددا أكبر مما تعرضه دور السينما .

جدول ٤
علاقة التردد على المكتبة العامة بتكرار استخدام وسائل الإعلام الأخرى

(عدد الزيارات للمكتبة خلال السنة)[1]

الاستماع إلى الراديو	لم يزرها اطلاقا	لم يزرها فى السنوات الثلاث الأخيرة	١ ـ ٩ مرات	١٠ مرات أو أكثر
لا شيء	٤٪	٣٪	٦٪	٦٪
أقل من ساعة يوميا	٦٪	٧٪	٨٪	٧٪
من ساعة لست ساعات يوميا	٧٪	١٩٪	١٧٪	١٥٪

(١) كل الحالات التى تضمنت أجوبتها «لا أدرى» أو «لست واثقا» قد استبعدت بقصد التبسيط ولهذا السبب لم يصل إجمالى بعض الأشهر إلى ١٠٠ فى المائة .

مطالعة الصحف	لم يزرها اطلاقا	لم يزرها فى السنوات الثلاث الأخيرة	١ ـ ٩ مرات	١٠ مرات أو أكثر
لا شيء	١٣٪	٢ ٪	أقل من ١٪	أقل من ١٪
من صحيفة إلى خمس صحف أسبوعيا	١٦٪	٥ ٪	١ ٪	٦ ٪
صحيفة يوميا	٦٣٪	٧١٪	٨٢٪	٧٩٪
مرتان أو أكثر يوميا	٥ ٪	٢١٪	١٤٪	١٥٪
مطالعة المجلات				
لا شيء	٤٩٪	٢٠٪	١١٪	١٣٪
من مجلة إلى ثلاث مجلات	٣٣٪	٤٤٪	٣٦٪	٢٨٪
٤ مجلات فأكثر	١٠٪	٢٨٪	٤٥٪	٤٨٪
التردد على دور السينما				
لا شيء	٣٥٪	١٥٪	٨ ٪	٥ ٪
أقل من مرة شهريا	٥ ٪	١٤٪	١٥٪	١٧٪
من مرة إلى أربع مرات شهريا	٤١٪	٥٥٪	٦٠٪	٥١٪
أكثر من ٤ مرات شهريا	٨ ٪	١٦٪	١٧٪	٢٧٪
مطالعة الكتب				
لا شيء	٧٢٪	٤١٪	١٤٪	١٢٪
من كتاب إلى ٤ كتب سنويا	١٨٪	١٩٪	٢٦٪	٢ ٪
من ٥ إلى ٩ كتب سنويا	٢ ٪	١١٪	١٣٪	١١٪
من ١٠ إلى ٤٩ كتاب سنويا	٦ ٪	٢٠٪	٣٨٪	٤٤٪
٥٠ كتاب أو أكثر سنويا	١ ٪	٧ ٪	٨ ٪	٢٩٪
نسبة من مجموع كتب اتخذت كمثال	٣٧٪	٤٤٪	٩ ٪	٩ ٪

وفى الإمكان أن نعد الجماهير التى تصلها الوسائل الرئيسية للإعلام الطباعى كسلاسل من حلقات ذات مركز واحد . فقراء الصحف هم أكبر جماعة ويضمون فعلا كل من تصله أية وسيلة من الوسائل الطباعية . ويليهم قراء المجلات ،

وينطوى تحت هذه الجماعة فى الغالب كل قراء الكتب . وتستمد المكتبة الجزء الأكبر من زبائنها المحدودين من هذه الحلقة الداخلية التى تضم قراء الكتب . والراديو يطوى كل هذه الجماعات التى يستخدمه أفرادها جميعا بدرجات لا تتفاوت تفاوتا كبيرا . كما أن التردد على دور السينما مشترك أيضا بين كل هذه الجماعات ، وإنما يميل إلى التفاوت مع استخدام الوسائل الطباعية ، ولو أن هذه الصلة بين الاثنين ـ التردد على السينما والمطالعة ـ صلة ناقصة .

أين يذهب الناس عندما يلتمسون الإعلام؟

لقد رأينا أن نسبة كبيرة من أفراد الشعب معرضة للإعلام الذى تتضمنه الصحف والمجلات وإذاعات الراديو والنشرات الحكومية وما تعرضه دور السينما . ومع ذلك فإن تكرار التعرض لوسيلة معينة من وسائل الإعلام قد لا تدل على درجة اعتماد الجمهور على هذه الوسيلة للحصول على الإعلام الذى يحتاج إليه . والسؤال الذى يخطر بالبال هو : عندما تنشأ مشكلات معينة وتظهر الحاجة إلى إعلام بشأنها فأين يبحث الناس عن هذا الإعلام؟ إلى أى حد يفكرون توا فى المكتبة العامة كالمكان الوحيد الذى يتجهون إليه ليجدوا فيه ما يرغبون أن يعرفوه؟

أين يذهب الناس للحصول علي إعلام معين؟

من الواضح أن هناك ـ فى الغالب ـ عددا لا حد له من المسائل التى قد يبحث الناس عن إعلام بشأنها . وهذا المسح أوالاستقصاء لم يتسع إلا لأسئلة معينة عن قليل منها فحسب . فقد سئل الناس أين يذهبون للحصول على إعلام بشأن أربع مسائل معينة : (١) تنسيق البيت ، (٢) التغذية ، (٣) البلاد الأجنبية ، و(٤) تربية الأطفال . وبينما لا تعد هذه الأسئلة ـ حتما ـ ممثلة لكل المسائل التى قد يحتاج الناس إلى إعلام بشأنها فإنها اختيرت ليتضمنها الإستقصاء . لأنها تهم أكبر عدد من الناس ولأنها تشمل ـ تقريبا ـ مدى واسعا من الموضوعات . والأسئلة الخاصة باختيار مصادر هذه الأنماط الإعلامية المختلفة ـ بوجه عام ـ قد وجهت فى بداية الاستقصاء قبل أن توجه أية أسئلة معينة بشأن المكتبات والكتب أو أى مصدر معين آخر من مصادر الإعلام .

وبوجه الاجمال تبين من الدراسة اعتماد الناس اعتمادا كبيرا على الخبراء كمصدر للإعلام ، وبخاصة عندماينشد هؤلاء الناس جوابا على سؤال يغلب عليه

الطابع العملى . فعندما وجه هذا السؤال «إفرض أنك أردت أن تعرف شيئاً عن كيفية نقش أو زخرفة جدران بيتك (شقتك) بنفسك فأين تحصل عليه؟» وكانت هذه هى المصادر الرئيسية التى تضمنتها الأجوبة :

٥٦٪	استشارة مصدر مهنى (نقاش ، مزخرف . . الخ)
١٤٪	الاعتماد على الخبرة الخاصة
١٣٪	سؤال الأصدقاء
٩ ٪	الرجوع إلى المجلات
٦ ٪	الرجوع إلى الكتب
٢ ٪	الرجوع إلى المكتبة(١)

والمصادر التى أشير إلى اللجوء إليها للحصول على إعلام بشأن التغذية لم تكن مختلفة اختلافا ذا قيمة ، ولو أن الكتب كانت فى رأس قائمة تلك المصادر . ثم وجه هذا السؤال : «إفرض الآن أنك أردت أن تعرف شيئاً عن الأطعمة الملائمة لشخص ما أى عن» الفيتامينات «التى تحتوى عليها . فأين تحصل على إعلام عن ذلك؟» فكانت الأجوبة التالية هى أكثر الأجوبة ترددا :

٥٦٪	استشارة مصدر مهنى
١٨٪	مطالعة كتاب
٩ ٪	سؤال أحد أعضاء الأسرة أو صديق
٨ ٪	الرجوع إلى مجلة
١ ٪	الرجوع إلى المكتبة

ولاشك أن كثيرا ممن قرروا أنهم سيطالعون كتابا فى الموضوع إنما يحصل على هذه الكتب من المكتبة العامة . ولكنهم لم يوضحوا ذلك إلا بعد أن سئلوا «من أين تحصل على الكتاب؟» أى أن واحدا فى المائة فقط ذكروا المكتبة العامة توا كالمكان الوحيد الذى يتوجهون إليه ليهتدوا إلى شىء عن التغذية .

أما الإعلام عن بلد أجنبى فإن الناس أقل اتجاها إلى التفكير فى البحث عن خبراء بشأنه ، وأميل إلى التفكير فى اللجوء إلى مصادر الهيئات النظامية

(١) استبعدت من هذا الجدول ومن الجداول التالية الحالات التى تضمنت أجوبتها «لست متأكداً» و «لا أدرى» .

الإعلامية . وفى هذا العدد ذكر واحد من عشرة من الناس تقريبا المكتبة توا . ولكن لاشك أن نسبة كبيرة من الكتب التى أشار إليها من تضمنت أجوبتهم الرجوع إليها إنما تستحضر من مكتبة ما . ولقد وجه فى الاستفتاء هذاالسؤال : «إذا كتب إليك صديق أنه كان فى زيارة بلد أجنبى لم يسبق لك أن سمعت عنه قط ، فماذا تفعل لمعرفة شيء عن هذا البلد؟» .

٣١٪	الحصول على كتاب عن الموضوع
١٣٪	سؤال ناد من نوادى الخدمة
١١٪	الرجوع إلى المكتبة
١٠٪	الرجوع إلى خرط
١٠٪	استشارة أصدقاء
٩ ٪	استشارة وكالات الحكومة الاتحادية (الفيدرالية)

وأما مصادر الإعلام التى يمكن الرجوع إليها بشأن المشكلات الخاصة بتربية الأطفال ، فإن الناس يغلب عليهم بوجه عام التفكير فى الأفراد الذين يحترمون آراءهم . وقد تكررت الإشارة غالبا إلى الأطباء ولو أن طوائف أخرى من ذوى الخبرة قد أشير إليها . وبعض الناس (٢٠ فى المائة) يشعر أن خبرته الخاصة تكفى لمواجهة مثل هذه المشكلات كما أن مثل هذا العدد من الناس يشير إلى الكتب كمصدر خاص . وفيما يلى ما تكررت الإشارة إليه غالبا من مصادر الإعلام عندما وجه هذا السؤال إلى من تم استفتاؤهم : «إذا سألك شخص كيف يهتدى إلى شيءما عن تربية الأطفال فكيف توجهه للحصول عليه؟» .

٣١٪	استشارة شخص ممارس للمهنة
٢١٪	الرجوع إلى كتاب
٢٠٪	الاعتماد على خبرتهم الخاصة
١٥٪	استشارة أحد أعضاء الأسرة أو صديق
٤ ٪	الرجوع إلى مجلة
٣ ٪	الرجوع إلى المكتبة العامة

(١٠)

عالم المسلسلة النهارية

رودلف أرنهايم[1]

فى خلال اثنى عشر عاما أصبحت المسلسلات الإذاعية النهارية - وهى إبتكار أميركى - سمة مألوفة فى حياة هذا البلد اليومية . فما هو نوع الطعام العقلى - سواء كان صحيا أومؤذيا - الذى تقدمه؟ ما الذى يجعلها مغرية إلى هذا الحد؟ ما هو وجه الصورة التى تبرزها للحياة الاجتماعية أوالخاصة؟ ما هى جوانبها التى تستحق اللوم ، وما هى تلك الجوانب الجديرة بالثناء؟

وإطلاق إسم «أوبرا الصابون» على هذه المسلسلات لا يدل عل اقتران المسرحية بالصابون فحسب ، ولكنه يشمل أيضا عواقبها على مستوى البرنامج الثقافى . فآثار الإشراف التجارى معروفة مما يقدمه المخرجون السينمائيون والكتاب ذوو المادة الرخيصة إلى عملائهم إذ أنهم يرحبون بكل وسيلة مقبولة لممارسة إثارة قوية . وما دامت أقوى أنواع الإثارة وأوسعها انتشارا بصفة عامة يمكن ضمانها بالوسائل المسرفة فى السخف والركاكة ، فإن الإخراج الفنى التجارى يتجه نحو الهبوط بالمستوى الثقافى .

إن مخرجى المسلسلات الإذاعية لا يتركون فرصة تفوتهم دون إرضاء عملائهم . فالرسائل التى يبدى فيها المستمعون موافقتهم أواعتراضهم تدرس بعناية . والتقصى بواسطة الأحاديث التليفونية يحدد - على وجه التقريب - حجم الجمهور الذى يستمع إلى المسلسلة . وعلى أساس مثل هذا البيان ، ومع الإستعانة بقدر طيب من الإحساس المرهف بما يناسب الغرض من المسلسلات يبدأ العمل فى تصميم «عقد»القصص وشخصياتها ومناظرها .

وهذا يفسر كيف أن مجرد تحليل المسلسلات لا يمكن أن يتوقع منه الحصول على شىء خاص بالبرامج فحسب ، بل شىء خاص بالمستمعين أيضا . فقصص

---

(١) عن كتاب ب . ف لازار سفيلد Lazarsfeld وف . ن . ستانتون Stanton «البحث الاذاعى» ، ١٩٤٢ - ٤٣ (نيويورك : ديول سلون وبيرس Sloan and Pearce ١٩٤٤) ص ٤٣ - ٨١ .

هذه المسلسلات - على الأرجح - تقدم صورة للعالم كما ترغب هيئة اجتماعية معينة أن تكون عليها هذه الصورة .

إن الطرق «الإنسيابية» المتبعة فى إخراج المسلسلة الإذاعية تبرر معالجة الموضوع على أساس إحصائى . ولنقل مثلا إن محاولة وصف القصة الأوروبية فى القرن التاسع عشر بالبحث عن عدد المرات التى عمد المؤلفون فيها إلى رسم شخصيات بسيطة يسهل تحديد سماتها فى «عينة» من خمسين قصة كتبت فى ذلك العهد - هذه المحاولة لا تفى بالغرض . فهذه السمات - حتى عندما تنسب إلى الشخصيات الرئيسية فى القصة الواحدة - تضلل الباحث إذا عزلت عن متن القصة ، وطابعها الخاص ، ومع ذلك فإن المسلسلات الإذاعية تتولى اخراجها جماعة من وكالات الإعلان تخصصت فى هذا الحقل . فما تشترك فيه البرامج جميعا يرجح الخصائص الفردية إلى حد أنه حينما يحاول مؤلف من مؤلفى المسلسلات أن يمارس عمله بطريقة خاصة به ، فإن النتيجة تبرز كاستثناء واضح للقاعدة .

ولكى نتفادى سوء الفهم يجب أن نضيف أنه كلما تحدثنا فى هذه الدراسة عن «اتجاهات» مؤلفى أومخرجى المسلسلات فإننا لا نقصد أن نبتسر الحكم فى موضوع إلى أى مدى يتبع هؤلاء المؤلفون والمخرجون - عن عمد - اتجاهات معينة وإلى أى مدى يحققون عن طريق هذه القصص ما اعتنقوه من ميول اجتماعية أونفسية . ولاشك أن هناك عددا كبيرا من «الحسابات التقريبية» قد تعمدنا استخدامها . ولكن - بوجه الاجمال - فإن المحلل الذى يرغب فى أن يكون تحليله وافيا ، هنا ، فى وضع شبيه تقريبا بالمحلل النفسى الذى يكتشف تركيب ومعنى الاندفاعات التى لا ينتبه المريض إلى وجودها ، أوالتى يصر على إنكارها ، وذلك عن طريق تفسير أحلام هذا المريض .

البيــان

ولكى تحصل على بيان خاص بتحليل واف يمكن استخدام الإذاعات الحالية أوالأشرطة التى سجلت عليها إذاعات سابقة أوالنصوص الأصلية للمسلسلات . والأشرطة والنصوص الأصلية معا تعد أساسا مثاليا لدراسة شاملة . ومع ذلك فإنه لما كانت هذه الدراسة قد قصد من وضعها أصلا جمع بعض البيان المبدئى وأتباع الطرق المناسبة للتفسير ، فقد دعا الأمر إلى تطبيق إجراء أكثر ملاءمة ، ولذلك كلف سبعة

وأربعون طالبا ، تسع وثلاثون أنثى وثمانية ذكور بأن يستمع كل منهم إلى مسلسلة إذاعة لمدة ثلاثة أسابيع فى المدة من ١٧ من مارس إلى ٧ من إبريل ١٩٤١ . كما أعد لكل حلقة يومية يتم الاستماع إليها تقرير يتضمن خانات يقتضى ملؤها .

وقد اختيرت المسلسلات اعتباطا بين المسلسلات المتاحة للمستمعين إلى إذاعات نيويورك بين الساعة الثامنة صباحا والساعة السادسة مساء . ورُوعى فى الاختيار أن يكون متسقا مع وقت الطلبة . وكانت النتيجة أن بعضًا من أشهر المسلسلات لم يشملها التقصى فى حين وصلت أكثر من نسخة من تقارير عن ثلاثة مسلسلات أخرى . وقد شمل التقصى ثلاثا وأربعين مسلسلة .

وتذاع المسلسلات عادة على الهواء لمدة خمس عشرة دقيقة فى وقت معين كل يوم من أيام الأسبوع ما عدا يوم السبت . وقد أمكن الاستماع - فى نطاق مدة التجربة التى أجريناها - إلى ست عشرة حلقة من كل مسلسلة . وكيفما كان فإنه لأسباب مختلفة تحقق هذا الغرض من التجربة على وجه التقريب فقط . فتم الإستماع فى المتوسط إلى ١٢,٧ حلقة . وبلغ مجموع الحلقات التى شملها التقصى ٥٩٦ حلقة .

ومعظم التقارير التى حصلنا عليها أثبتت أنها كافية تماما للتحليل المقصود . فأمكن أن نستخلص منها (١) كل الإشارات إلى مواقف الصراع الفريدة أو«المشكلات» التى تكون «عقد» المسلسلات . (٢) كل الإشارات إلى تصرفات وانفعالات الشخصيات الفريدة فى المسلسلة وكل التقويمات للشخصيات التى قدمها البرنامج أوتضمنها . (٣) كل الإشارات إلى الموضوعات المعينة بصفة خاصة كالموضوعات السياسية والتعليم والصحف اليومية ووظيفة النساء . . الخ .

البيئة الاجماعية

المكان

هل يقع اختيار المسلسلات الإذاعية على المراكز الكبيرة فى الحياة العصرية كـ«مسارح» لمغامرات شخصيات تلك المسلسلات ، أم أنها تفضل المدن الصغيرة أوالقرى؟ هل تتطلب من أبطالها أن يهربوا من المجتمعات المدنية الآهلة إلى العزلة والأماكن المقفرة؟ لقد تضمن الجدول رقم ١ تصنيفا تقريبيا لـ«مسارح» حوادث هذه

المسلسلات . ولما كان هناك طرازان من تلك «المسارح»تضمنتها خمس «عينات» كانت موضوع التجربة ، فإننا نقدم النتائج من واقع عدد المسلسلات و(المسارح) .

جدول رقم ١
مكان المسلسلات

المـــكان	عدد المسلات	عدد «المسارح»
مدن كبيرة	٨	١٣
مدن متوسطة أو صغيرة	١٦	٢٠
مجتمعات ريفية	٤	٥
مزيج من الحضر والريف	٥	—
أماكن مشكوك فيما إذا كانت مدنا كبيرة أو متوسطة	٥	٥
حالات أخرى	٥	٥
المجموع	٤٨	٤٨

فالمدن المتوسطة والصغيرة ترجح المدن الكبيرة كنيويورك أوشيكاجو ، وفى ١٠ فى المائة فقط من جميع الحالات دارت حوادث المسلسلة فى مجتمع ريفى . وقد يعكس تفضيل المدن المتوسطة الرغبة فى إرضاء المستمعين الذين ينتمون إلى ذلك الإطار الاجتماعى . وفى هذه الحالة علينا أن نلاحظ أنه يعتقد أن هؤلاء المستمعين يفضلون المسرحيات التى تقدم ـ على الأقل فى الظاهر ـ إطار حياتهم الخاصة عل تلك التى تسمح لهم بالاندماج فى المستوى العالى لحياة العاصمة .

ولكن سواء وقع الاختيار على مكان كبير أوصغير كـ«مسرح» لحوادث المسلسلة ، فإنه لا يوجد بالتأكيد ثمة اتجاه إلى الهروب من تصوير الحياة العادية فى مجتمع ما . وحتى الأمثلة الخمسة الأخرى المشار إليها فى الجدول رقم ١ تستند إلى قطاعات من هذه الحياة العادية أكثر من استنادها إلى الصور الخلفية الدخيلة أوالغريبة . وقد جرت حوادث هذه الأمثلة فى «أغلى مصحات المدينة تكلفة» ، وفى إحدى المدارس الريفية ، وفى مثالين فى مزارع يملكها أثرياء

القوم ، وفى يخت للنزهة قرب هاڤانا ، أى أن جميع الحلقات - باستثناء المثل الأخير - جرت حوادثها فى الولايات المتحدة وهذا - مرة أخرى - يدل على أنه يعتقد أن المستمعين يستمتعون بجو مألوف أكثر من استمتاعهم بما يسمح لهم أويتطلب منهم أن يتخيلوا ما عساه يحدث فى مكان آخر .

الحالات الاجتماعية للشخصيات الرئيسية

ما هى الصور الخلفية الاجتماعية للناس الذين تقدمهم المسلسلات الإذاعية؟ أهم أثرياء أم فقراء؟ أهم أفراد تميزوا بمقام ونفوذ إجتماعيين أم أنهم يمثلون الشعب العادى؟ إن الجدول رقم ٢ يوضح المراكز التى تشغلها مجموعة الشخصيات الرئيسية التى تدعم «عقد» المسلسلات الإذاعية . ومعظم الطرز التى يتضمنها هذا الجدول تفسر نفسها بنفسها . فهى تضم تلك الشخصيات التى اقتصر وصفها على انتمائها إلى «أهل المجتمع الراقى» (ربات البيوت الثريات أوابن أحد أصحاب الملايين) .

الجدول رقم ٢
المراكز التى تشغلها الشخصيات الرئيسية
(أساس النسبة ٤٨ «مسرح» من مسارح حوادث المسلسلات التى تظهر فيها هذه المراكز المختلفة)

المراكز التى تشغلها الشخصيات	عدد «مسارح» الحوادث	النسبة المئوية من مجموع «المسارح»
أهل المجتمع الراقى	٩	١٩
كبار الموظفين	١٠	٢١
كبار رجال الأعمال	١٦	٣٣
المهنيون	٣٥	٧٣
ربات البيت	٣١	٦٥
صغار رجال الأعمال	١٥	٣١
أصحاب المرتبات	٩	١٩
المعوزون	٣	٦

وإذا قبلنا ترتيب هذه الطرز من الناس كمقياس تقريبى لتدرج السلم الاجتماعى ، لوجدنا أن حالات الشخصيات الرئيسية تتجمع غالبا كالعنقود عند نحو منتصف السلم ، متمثلة فى المهنيين وربات البيوت ، وتكرر ظهور ربات البيوت يمكن تفسيره بأنهن غالبية بين المستعمين . ولكن تفضيل المهنيين قد يصعب تفسيره . فالأطباء والقانونيون ومعلمو المدارس والفنانون . . الخ ، الذين ينخرطون فى هذه الجماعة قد يكون مستواهم الاجتماعى أعلى من مستوى متوسط المستمعين ، ولكنهم لا ينتمون إلى أعلى طبقة يمكن تقديمها إلى من «يحلمون أحلام الأمانى» ، و«أهل المجتمع الراقى» وكبار الموظفين وكبار رجال الأعمال لايظهرون غالبا كما يظهر صغار رجال الأعمال والموظفون الذين يفترض أن تكون حالتهم أكثر تناسبا مع حالة متوسط المستمعين . وقد يخطر للبعض أن الأطباء والقانونيين لا غنى عنهم فى المشاكل التى تتسم بها «عقد» القصص . ولكن الواقع أن المسلسلات الإذاعية لا تدع وقتا يجنح فيه القانونيون - فى قصصها - إلى الراحة - فهذه القصص لا تتضمن حوادثها من الأمراض ما يبرر العدد الكبير من الأطباء الذين يظهرون فيها . وكثيرا ما يظهر القانونيون ، والأطباء على الأخص ، فى شخصيات المسلسلة كأزواج أوأصدقاء . . الخ ، لا كممارسين لمهنهم فهل يمكن تفسير هذه الظاهرة بموقف الطبقة المتوسطةالدنيا من باقى الطبقات الاجتماعية؟ هل يعدون طبقة المتعلمين أوالفنانين الموهوبين الذين يقدمون للناس العون والنصيحة ، أويرفهون عنهم ، والذين يعيشون فى مستوى اقتصادى أعلى - هدفا للإعجاب والتطلع . وهل الامتعاض يتحكم فى موقفهم من الطبقات الاجتماعية الأكثر وجاهة؟

إن اختفاء الطبقة العاملة يثير الدهشة . فشخصيات المسلسلات تضم صغار أصحاب الحوانيت والموظفين فى الأعمال التجارية وسائق سيارة أجرة ، وحتى أحد الميكانيكيين فى حظيرة سيارات . ثم هناك قفزة من هذه الطبقة إلى جماعة صغيرة من المعوزين المشردين : مجرم سبق الحكم عليه بالأشغال الشاقة ، وأسرة متعطلين من العمال المهاجرين ، وعضو بمجلس الشيوخ فقد الذاكرة فأصبح متشردا . وليس هناك مثل واحد عن عامل فى مصنع أو فى منجم أو عامل من العمال المهرة أوغير المهرة عهد إليه بدور هام فى أية قصة من المسلسلات الثلاث والأربعين التى اتخذت كـ«عينات» . وهنا أيضا قد تفسر ذلك مواقف المستمعين الاجتماعية وسياسة المعلنين .

وإلى جانب المقياس الخاص بالتدرج الاجتماعى بحثنا كم مرة ظهرت الشخصيات التى تملك ثروات ضخمة والتى تحوز بيوتا كبيرة وتحت إمرتها خدم والتى تتردد على الملاهى الليلية وتستأجر طائرات خاصة وتبرق بتقديم باقات «الأوركيد» إلى أصدقائها فى المناسبات الاجتماعية . . الخ ، فاتضح أنها ظهرت فى ٢٤ «مسرحا» من مجموع ٤٨ «مسرحا» من «مسارح» الحوادث فى القصص الاذاعية . أى فى خمسين فى المائة من ذلك المجموع وعلى الأخص فى ٨٥ فى المائة من «المسارح» التى فى المدن الكبيرة و٣٠ فى المائة من المدن المتوسطة والصغيرة و٢٠ فى المائة من المناطق الريفية ، والجماعة التى اشتركت فى هذه الحوادث هى «أهل المجتمع الراقى» ورجال الأعمال وكبار الموظفين ، وبصفة رئيسية أعضاء مجلس الشيوخ ، ولكن - أيضا - بعض الأطباء والقانونيين والفنانين .

وأما بشأن العلاقة بين أهل المجتمع الراقى وأهل الطبقة الدنيا فيمكن أن يقال إنه بينما يغلب أن يقوم القصص الشعبى فى التقليد الأوروبى بادماج القارىء فى صحبة النبلاء الأثرياء فإن المسلسلات الإذاعية التى تنتجها أمريكا تقدم أبطالها وكأنهم انبهروا بالطبقة العليا ولكن دون أن يندمجوا فيها حتما . بل العكس ففى كثير من الحالات التى يظهر فيها قوم ممن ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية الراقية يتعمد المخرجون أن يظهروهم ، وهم مغرمون باستمالة أهل الطبقة المتوسطة أو باطراء قدرتهم أو بالأمرين معا ، وقد تكون هذه محاولة لتعويض المستمع عن افتقاره إلى الهيبة الاجتماعية وإلى النفوذ فى حياته الحقيقية ، والصفات الشخصية التى لا شأن لها بتوزيع المنافع فى المجتمع والتى لذلك يمكن أن يتساوى الجميع فى التحلى بها تضفى على أهل الطبقة الدنيا لكى تعيق تأثير الفوارق الاجتماعية التى لا تحقق المساواة .

ومما يعنى بالتأكيد عليه فى القصص التعاون المتبادل بين من ينتمون إلى نفس المستوى ، ومثال ذلك حالة ممثل شهير فى «برودواى» يستنفد وقته وطاقته العصبية فى مساعدة الأسرة المتواضعة التى تنتمى إلى الطبقة المتوسطة والتى تقطن فى البيت المجاور له ، والزواج ممن ينتمى إلى الطبقة الأعلى يضفى شرفا على الناس الذين يتصفون بالإنصاف والصراحة ، فهناك مثلا تلك الحياة

الحافلة التى عاشتها «الفتاة اليتيمة التى تولى اثنان من عمال المناجم ترتيبيتها والتى تزوجت فى مستهل حياتها أغنى رجل فى انجلترا وأكثر لورداتها وسامة» وهناك ربة البيت المتقدمة فى السن ومالكة «شادر» الأخشاب فى الريف قد استطاعت أن تزوج ابنتها شابا لامعاً من أعضاء «الكونجرس» فى واشنتجون ، و«مسز دالاس» وهى إمرأة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة الدنيا وترغب فى أن تحتفظ ببيئتها قد تزوجت من ملحق دبلوماسى فى العاصمة ، كما أن ابنتها ـ التى لم تعد متأثرة بحياة أمها السابقة قد تزوجت من رجل شهير فى مجتمع واشنتجون ، وفى نفس الوقت يغلب التعبير بوضوح عن الثقة بالنفس المزهوة وعن بعض الامتعاض من الناس الذين يستمدون مقامهم العالى من الثروة أوالمركز المهنى ، فيرفض طلب زواج يتقدم به أحد رجال الأعمال الأثرياء ، ويشهر إفلاس أحد العاملين فى تجارة الأراضى الفضاء ، ومع ذلك هو يعارض رغبة ابنته فى الزواج من شاب وسيم من أصحاب الملايين ، والطبيب الرشيق الثرى يغازل فتاة بسيطة تعمل فى أحد المكاتب الحكومية لكى يلهو بها بعض الوقت فيستحق أن تقتله فتاة ثرية مثله من «الغوانى الفاتنات» ، وسائق سيارة أجرة كتب «سيمفونية» تساوى ٢٥٠٠ دولار يستقبل مديرا ثريا مستهترا وزوجته الرشيقة ، ولكنه لا يعنى بعروضهما ومجاملاتهما .

القـادة

تعزى أهمية كبيرة إلى صفة «القيادة» فى المسلسلات الإذاعية . ففى ٣٠ مسلسلة من مجموع ٤٨ من المسلسلات أى فى ٦٢,٥ فى المائة من ذلك المجموع يوجد مثل أولئك «القادة» بين الشخصيات الرئيسية .

والجدول رقم ٣ يظهر عدد القادة فى المجتمعات ذات الأحجام المختلفة ، وقد اختير القادة من أولئك الذين تميزوا بسبب مركزهم المهنى وأولئك الذين تميزوا بسبب صفاتهم الشخصية ، كالذكاء ومساعدة الغير والابتكار ، وهؤلاء «القادة بأشخاصهم» قد قسموا أيضا تبعا لقيادتهم فى المجتمع كله أو فى الجماعة الخاصة التى ينتمون إليها (الأسرة أومجموعة الأصدقاء . . إلخ) .

وتوجد القيادة التى تعزى إلى صفات الشخصية بنفس النسبة تقريبا التى توجد فيها القيادة التى تعزى إلى المركز المهنى ، والقادة الذين يستندون إلى مواهبهم الذاتية يمارسون نفوذهم داخل الجماعة الخاصة التى ينتمون إليها بما يوازى ضعف النفوذ الذى يمارسونه فى المجتمع كله ، ويسود نفوذ القادة المهنيين فى المدن الكبيرة . فمعظمهم ممن يتمتعون بشهرة واسعة تعم البلاد كلها . ومثال ذلك رئيس الولايات المتحدة وأعضاء مجلس الشيوخ والفنانون المشهورون والممثلة التى تؤدى أدوار البطولة للمرة الأولى ، أما فى المدن المتوسطة والصغيرة فإن هذا الطراز من القادة لا يزال يتأهب للتألق : كأن يكون ناظر مدارس أومدير مجلس مدينة أوقسيسا أوصحفيا ذا نفوذ فى الصحيفة المحلية . . إلخ ، وفى «المسرح» الريفى لحوادث المسلسلة تمكن الشخصية والرغبة فى معاونة الآخرين الأفراد العاديين من أن يصبوا قادة فى مجتمعهم حتى ولو كان الواحد منهم حلاقا أوميكانيكيا فى حظيرة سيارات أوصاحب متجر صغير . . إلخ .

ويظهر بحث «عقد» القصص أن الأفراد الذين ينتمون إلى طبقة اجتماعية دنيا ، وإنما يمتازون بمواهب شخصية ، غالبا ما يوصفون فى هذه القصص بأنهم أقدر على الاضطلاع بالمناصب القيادية من أولئك الذين أضفى عليهم المجتمع هيبة المناصب القيادية الرسمية .

ومثال ذلك : «ديفيد هيوم» الذى يملك متجرا صغيرا ولكنه قبل كل شيء «فيلسوف ريفي» يظهر وقد انهمك فى مشروع من مشروعات البساتين الريفية ، و«لورينزو جونز» وهو ميكانيكى فى حظيرة سيارات يتولى تنظيم حفلة راقصة يخصص إيرادها لأعمال البر ، و«سكاتارجود بينز» العامل بأحد المتاجر الذى أطلقوا عليه اسم رجل «اتركها لي» يقنع رئيسا محترما لمدرسة محلية بخطأ مهنى خطير ، و«مابيركنز» المرأة الريفية ـ التى سبقت الإشارة إليها ـ تقدم إلى إحدى لجان مجلس الشيوخ الأدلة القاطعة التى تكشف عن فضيحة كبيرة ، وصاحب حانوت صغير من حوانيت بيع الكتب «نصف العمر» فى الجانب الغربى الأسفل من نيويورك يعطى نصيحة فلسفية لطبيب شهير ولابنه وللممثلة التى تولت أدوار البطولة للمرة الأولى فى العام الماضى الذين لفرط اضطرابهم من متاعبهم جاءوا ببلاهة يئزون بين أرفف الكتب .

المشـــكلات

دور المشـــكلات

إن المضمون القصصى لـ«العينات» التى استخدمناها يتكون فى الغالب من مشكلات خلقتها شخصيات القصص والتمست لها هذه الشخصيات حلولا ، وهذه المشكلات تنبت من الاضطرابات الناشئة عن الحياة الراكدة لا من العقبات التى تعترض تحقيق أهداف الحياة ، ويمكن لنا أن نتخيل مسرحيات عكفت شخصياتها على تحقيق أغراض إيجابية معينة كتربية الأطفال ، والكفاح فى سبيل اصلاح اجتماعى ، وحل مشكلة علمية ، وعندئذ تنحصر «المشكلات» فى قهر القوى المعارضة لتحقيق الهدف ، ولكن موقف المسلسلة الاذاعية النمطية - بدلا من ذلك - لا يمكن مقارنته بمجرى ماء يعترضه سد بل أنه أشبه ببحيرة راكدة عكر ماءها الخامد حجر ألقى فيه ، أى أن موقف الشخصيات فى المسلسلات موقف يبدو - بصفة أصلية - سلبيا ومحافظا ، وقد يكون هذا انعكاسا للدور الذى يلعبه متوسط المستمعين إلى هذه المسلسلات فى المجتمع .

وفى هذه المسلسلات يصور الوجود الإنسانى وقد هددته الكوارث باستمرار ، وليست هناك مشكلة واحدة يتعين أن تواجهها إحدى شخصياتها أومجموعة من هذه الشخصيات ، وإنما هناك سلسلة لا تنقطع من الاضطرابات القاسية ، وقد تتبعنا ١٤٢ مشكلة فى ١٩٦حلقة وبلغ متوسط عدد المشكلات فى كل مسلسلة ٣,٣ خلال فترة التجربة التى تضمنت متوسطا قدره ١٢,٧ من حلقات استغرق عرض كل منها خمس عشرة دقيقه . أى أنه كانت هناك - تقريبا - مشكلة فى كل أربع حلقات .

ويبدو أن الأدب قد يتضمن شيئاً شبيها بذلك فى السير الكبرى للأبطال كالأدويسة أو فى قصة الإنجيل عن النبى أيوب ، ولكن فى هذه السير البطولية تتعاقب الحلقات فى نظام صارم ، كما لو كانت رسما دائريا متكررا لزخرفة معمارية ، فالتكوين النموذجى والمضمون غير الواقعى هما السببان اللذان يظهران تعاقب الحلقات الحاشدة بالكوارث لا كصورة الحياة الواقعية وإنما كرمز لدرجة عالية من العذاب ، وقد أضفى عليها التكرار هالة من الشدة والحدة ، أما المسلسلات الإذاعية فإنها - بدلا من ذلك - تبذل قصارى جهدها لكى تخلق الإحساس بأنها تعرض «الحياة الواقعية» .

الجدول رقم ٣
القادة فى المجتمعات من مختلف الأحجام

طراز القيادة	مدن كبيرة	مدن متوسطة أو صغيرة	مجتمعات ريفية	مجتمعات أخرى	العدد الإجمالى
مهنية	٦	٩	١	٣	١٩
شخصية	١	٥	٦	٣	١٨
(فى المجتمع)	–	(١)	(٥)		(٦)
(فى جماعة خاصة)	(١)	(٤)	(١)	(٦)	(١٢)
الإجمالى	٧	١٤	٧	٩	٣٧[١]

فهى تجدل الحلقات بطريقة غير منتظمة لكى تبدو «أشبه بالحياة» ، وفى نطاق مثل هذه الواقعية لا تستطيع الحملات التى تتوالى إلى موجة ضد الشر إلا أن تترك ـ عن غير قصد ـ أثرًا هزليا فى المستمع الأكثر حصافة ، فالمستمع الساذج الطيب الذى يسلم بهذه البرامج على أنها مقنعة وصادقة ينتهى به الأمر إلى أن يتصور أن الحياة البشرية سلسلة من الهجمات يردها الضحايا ومساعدوهم .

ونظرا لضيق الوقت المحدد لإجراء التجربة لم يتسن التمييز بين المشكلات الكبيرة أوالصغيرة . فلكى نحصل على فكرة عن الكيان العام للمسلسلات يجب أن يتاح لنا وقت أطول لدراستها ، وقد أمكن التمييز ـ تقريبا ـ بين نوعين من «تركيب» المسلسلة فى إحداهما يمارس من يتولى عملا قياديا بفضل صفاته الشخصية قيادة بقية الشخصيات خلال متاعبهم الشخصية ، وما يمكن تسميته «حملة المنازعات» من شخصيات القصة قد تتغير من حلقة إلى أخرى . كما قد يتغير طراز المنازعة الذى تضمنته ، فإذا كانت الأسرة كبيرة ولها موارد مالية وأصدقاء فإن الضحايا لا تعوزهم قط متاعب جديدة ، وفى بعض الحالات يساعد الاستمرار على اتخاذ «مسرح» ثابت لحوادث القصة على دعم وحدة المسلسة .

---

(١) ذكرت ٣٧ حالة بدلا من ٣٠ حالة أشير إليها فى صلب البحث لأنه فى سبعة «مسارح» من «مسارح» الحوادث كان اثنان من طراز القيادة الثلاثة حاضرين أثناء إجراء التقصى .

مضمون المشكلات

ما هى أنواع المشكلات التى تثير متاعب شخصيات المسلسلة؟

لقد تبين من دراسة البيان أن هناك تسع طوائف لذلك المضمون أدرجت فى الجدول رقم ٤ ، فهذا الجدول يوضح عدد المرات التى حدث فيها كل نوع من أنواع المشكلات فى مجموع المسلسلات الثلاث والأربعين ، كما أنه يوضح كيفية توزيع العدد الإجمالى للمشكلات التى تم تعقبها فى فترة التجربة على الطوائف التسع للمشكلات .

الجدول رقم٤
توزيع أنواع المشكلات
(نسبة المسلسلات التى حدث فيها كل نمط والنسبة المئوية لتوزيع أنماط المشكلات)

نوع المشكلة	النسبة المئوية فى ٤٣ مسلسلة	النسبة المئوية فى جميع الـ١٥٩ مشكلة
العلاقات الشخصية	٩١	٤٧
(المغـازلة)	(٤٩)	(١٦)
(الـــزواج)	(٤٤)	(١٨)
(الأســـرة)	(٣٣)	(١٠)
(الأصدقاء)	(١٢)	(٣)
اقتصادية ومهنية	٤٧	٢٢
جنائية	٣٠	٩
مرض أو حوادث	٢٩	٩
شئون عامة	٢٦	١٠
أنواع أخرى	٩	٣

وفى ٩١ فى المائة من مجموع ٤٣ مسلسلة تمت دراستها نشبت مشكلة بسبب

العلاقات الشخصية ، ومع ذلك فلأن المسلسلة الواحدة قد تتضمن أنماطا مختلفة من المشكلات بسبب العلاقات الشخصية زادت الأنماط الفرعية لـ«العلاقات الشخصية» عن ٩١ فى المائة ، والنسبة المئوية فى النهر الثانى للجدول تزيد على ١٠٠ لأن الأساس هنا ليس العدد الكلى للمسلسلات وإنما العدد الكلى للمشكلات .

وأما زيادة المشكلات ـ فى النهر الثالث من ١٤٢ مشكلة ـ التى سبق أن أشرنا إليها كانت موضوع الدراسة ـ إلى ١٥٩ مشكلة فيفسرها أن بعض المشكلات قد أدرجت هى نفسها فى أكثر من طائفة .

والمشكلات فى نطاق «العلاقات الشخصية» أى المشكلات التى تنشب بين العشاق والأزواج أو بين أعضاء الأسرة الواحدة أو بين الأصدقاء تبلغ ٤٧ فى المائة من مجموع المشكلات ، وقد نشبت مشكلة أو أكثر منها فى ٩١ فى المائة

من مجموع ٤٣ مسلسلة تمت دراستها خلال فترة ثلاثة أسابيع ومعظم الحالات التى أدرجت على أنها مشكلات اقتصادية أومهنية أوجنائية أومرضية وحتى بعض مشكلات الشئون العامة يمكن إدراجها تحت أسم طائفة رئيسية أخرى أعنى «مشكلات تهدد الفرد» وهو واضح فى حالة المرض والحوادث ، ولكن التهديدات الاقتصادية والجنائية قد تعنى المجتمع ككل ، وفى نطاق الشئون العامة يتوقع الواحد أن تكون التهديدات موجهة حتما إلى المجتمع ، ولكن المشكلات الاقتصادية والمهنية ـ بدلا من ذلك ـ تخلق المصاعب فى وجه عمل الأفراد ومالهم ، والجرائم ترتكب ضد الأفراد وحتى الموظفون المنحرفون الذين يتحكمون فى طائفة الشئون العامة يظهرون فى المسلسلات غالبا وهم يصيبون الأفراد بالأذى والضرر ـ كوكيل نيابة طموح فى أحد المراكز يحاول لصق التهم بالأبرياء أوعضو بمجلس الشيوخ يود التعريض بزميل له وفضحه ، وهذه الطائفة الرئيسية الثانية من طوائف المشكلات التى تتصل بالمواقف الاقتصادية أوالمهنية وبسلامة جسم الفرد وسمعته تكادتكون مساويةفى حجمها لحجم الطائفة المخصصة لـ«العلاقات الشخصية» ، وكلتا هاتين الطائفتين معا تضمان تقريبا كل المشكلات التى تم تعقبها خلال فترة البحث ، وهكذا يتضح تماما أن عالم المسلسلات عالم «خاص» لا يعنى بمصالح المجتمع فتذوى فيه هذه المصالح .

ما هى أسباب المشكلات؟

هل الناس يخلقون المتاعب لأنفسهم أو أن اللوم عن خلقها يقع على قوم آخرين؟ ما هو الدور الذى تلعبه القوى غير البشرية كالقوى الطبيعية أوالعوامل الاقتصادية والسياسية؟ أن توزيع مختلف الأسباب موضح فى الجدول رقم ٥ .

الجدول رقم ٥
أسباب مختلف أنواع المشكلات
المتسبب فيها

نوع المشكلة	الناس أنفسهم	آخرون	قوى غير بشرية	أسباب مشكوك فيها	العدد الإجمالى
العلاقات الشخصية	٥٢	١٩	١	٣	٧٥
المغازلة	(١٩)	(٥)	(١)	(١)	(٢٦)
الزواج	(٢٤)	(٣)	–	(١)	(٢٨)
الأسرة	(٨)	(٧)	–	(١)	(١٦)
اقتصادية ومهنية	٨	١٦	٧	٤	٣٥
جنائية	٢	١٠	–	٣	١٥
مرضية وحوادث	١	–	١٣	–	١٤
شئون عامة	٢	١١	٢	١	١٦
أنواع أخرى	٢	١	١	–	٤
المجموع	٦٧	٥٧	٢٤	١١	١٥٩

والمتاعب ـ بنوع ما ـ يغلب أن يخلقها نفس الناس الذين عليهم أن يعانوها ، ويتعذبوا منها . أى أن المتسبب فيها هم هؤلاء «المعذبون» أكثر من الأشخاص الآخرين ، ففى ٢٤ حالة فقط من ١٥٩ حالة (١٥ فى المائة) وجد أن قوى غير بشرية هى التى تسبب المشكلة دون الأفراد أنفسهم .

والاضطرابات الناشئة عن «علاقة شخصية» يتسبب فيها أفراد الجماعةالتى نشأت فيها هذه الاضطرابات ثلاث مرات مقابل مرة واحدة يتسبب فيها قوم من خارج الجماعة ، فى حين أن الوضع ينعكس فى حالة تهديد الفرد بخطر جنائى أومشكلة مهنية أومشكلة شئون عامة ، وفى حالتى المرض والحوادث فإن القوى غير البشرية هى السبب الحاسم . أما بالنسبة لبقية أنواع المشكلات فإن هذه القوى غير البشرية لها بعض الأهمية فقط فى طائفة المشكلات الاقتصادية .

إن مشكلات الحياة تقدمها المسلسلات - فى إسهاب - على أنها من عمل الأفراد بسبب تقصيرهم فى أداء واجباتهم أوفسادهم لا بسبب أية عوامل اجتماعية أواقتصادية أوسياسية .

وتدل دراسة «عقد» القصص على أن أكثر من نصف مشكلات «العثور على عمل» - مثلا - قد عولجت على أساس أن الشخص قد عرض عليه عمل لم يعن بأن يقبله لا على أساس مصاعب الحصول على عمل ، والأبناء فى هذه المسلسلات لم يقبلوا أن يلتحقوا بالأعمال التى يزاولها آباؤهم ، وأستاذ فى احدى المدارس الريفية رفض عملا فى نيويورك لأنه فضل الحياة فى الريف ، وكيد النساء يتسبب أيضاً فى خلق المصاعب أمام الرغبين فى الحصول على عمل ، أمابشأن «فقد الوظيفة» فقد تبين أن هناك شخصين رغبا فى التخلص من عملهما الحالى . كما تبين أن التقصير الشخصى فى أداء الواجب والحسد والتنافس المهنى وابتزاز الأموال عن طريق اثارة الفضائح السياسية كانت أسباباً لتهديد الناس فى أرزاقهم من أعمالهم ، وهناك بعض الأمثلة على خيانة السلوك المهنى ، ومثال ذلك مالك مستغل من ملاك الأراضى ، ورجل منحرف من رجال الأعمال حاول أن يستغل بيع سيمفونية مسيئا إلى مؤلفها الفقير ، ورجل استدرج فيها إلى شراء منجم «منجنيز» فى جريمة نصب ، وأحد وكلاء إيجارات العقارات من المنحرفين تآمر لإحباط تعيين مدير للمنشأة خشية أن يكشف تزويره ، وفى حالتين فقط كانت أسباب اقتصادية لمشكلات خاصة بالعمل : رجل بحث عن عمل لأنه كان فى حاجة إلى المال وآخر لم يحصل على العمل الذى وعد به لأن «حالة ذلك العمل كانت سيئة ، كما تبين أن «قوى غير بشرية» قد تدخلت فى العمل عن طريق فيضان ومرض وحادث . . الخ .

والمتاعب فى الإدارة العامة كانت هى الأخرى معزوة إلى تخاذل الأفراد فى أداء واجباتهم ، فقد حاول أعضاء فى مجلس الشيوخ أن يبيعوا للحكومة أرضا غير صالحة لكى تبنى عليها ثكنات للجيش ، ووكلاء فى نيابات المراكز استهدفوا مصالحهم الخاصة لامصلحة العدالة ، وكبار موظفى إحدى البلديات اشتركوا فى

الغش وفى ابتزاز الأموال عن طريق التهديد باثارة الفضائح وفى التزوير ، ورئيس إحدى الحدائق العامة فى أحد المجتمعات ثبت اغواؤه على الغش ، واتخذ الدفاع الوطنى كذريعة لتقديم المشكلات الخاصة بطريقة ملتوية مقترنة بالمسائل العامة ، وأحد الجنود افتعل عن طريق الإهمال حادثة اتهمت فيها صديقة له ، وجندى آخر زار فى أثناء أجازته فتاة كانت مريضة بالحصبة فمنع بواسطة الحجر الصحى من العودة إلى الثكنة فى الموعد المحدد .

أما الجرائم فكان ارتكابها نادراً . وإذا ارتكبت فبواسطة أحط الناس فقط ، ففى ١٢ من مجموع ١٥ حالة جنائية اتهم أفراد من الأبرياء والأفاضل بارتكاب جرائم القتل ، أوالزنا ، واختلاس أموال شركة من شركات سيارات النقل الكبيرة وسرقة سيارة . . إلخ . وهذه السمة قد صممت بلطف لترضى شعور المستمع وذلك بإظهار أنه كثيراً مايكون ضحية اتهامات هو منها براء .

التقـــــويم الخلــــقى

ثلاثة أنماط من الشخصيات

ان ثمة علاقة هامة تبدو بين«المشكلة» التى تقدمها القصة والتقويم الخلقى للشخصيات التى تضمها هذه القصة .

ولايحتاج الأمر إلى جهد كبير بالنسبة لكثير من الشخصيات الرئيسية لتبين ما إذاكان قد قصد أن يكون أصحابها قوماً ذوى خلق طيب أوسىء ، فالمذيع الذى يعتمد على تعليقاته كثيراً ما ينسب إليهم سمات دقيقة تشتمل أيضا على تقويم خلقى دقيق ، فمن ذلك أن يتحدث عن «الرجل الطيب الذى يهبط الدرج» أوأن يشير إلى «نصف اللص» ذلك الذى يحاول أن يحظى بعطف البطلة ، كما أن أشخاص القصة أنفسهم يتحدثون بنفس الصراحة عن زملائهم أشخاص القصة الآخرين وبخاصة الأشخاص «موضع الثقة» (الذين يظهرون فى كل مسلسلة تقريباً كإطار خلقى يتسنى الحكم به على حوادثها) فإنهم يعبرون عن رأى المؤلفين ، وإلى جانب ذلك فإن الممثلين أنفسهم يبذلون أقصى جهدهم بواسطة نبرات أصواتهم لتمييز الوغد القاسى أوالدساس الذى يتظاهر باللطف من الصديق العاقل أوالضحية الذى ينتحب بحرارة من صدمة العاطفة أوالقدر أوالدناءة .

وبالإضافة إلى الناس ذوى الخلق «السيء» و«الطيب» نجد طائفة ثالثة من الشخصيات موصوفة بوضوح كالطائفتين السابقتين ، وهذه الشخصيات تتفوق فى الرذائل كالحسد والثأر وعدم الاتزان والغش والأنانية ، ولكن المسلسلات تقرر بوضوح أن هذه النقائص لا تصدر عن طبيعة شريرة ، وإنما هى نواحى ضعف ناتجة من تجارب سيئة ، أو من الافتقار إلى السيطرة على النفس ، ويتجه التفكير فى المسلسلات إلى أنها قد يحتمل أن تعود إلى ما كانت عليه من طيبة النفس ، ورغبة فى الإيجاز سنسمى هذا النمط الثالث «ضعاف النفوس» .

وقد يتوقع البعض من المسلسلات الإذاعية طريقة قاطعة حاسمة تميز الأبيض من الأسود فى التقويم الخلقى ، ولكن بدلا من ذلك فإن «ضعاف النفوس» ـ كما يبدو من الجدول رقم ٦ ـ يكثر وجودهم بين المتسببين فى المتاعب . كما أن هناك ظاهرة أخرى تلفت النظر فى نتيجة البحث هى النسبة الكبيرة من الناس «الطيبين» بين صانعى المتاعب .

الجدول رقم ٦
التقويم الخلقى للشخصيات التى تخلق المتاعب

ضحايا المتاعب	طيبو الخلق	سيئو الخلق	ضعاف النفوس	مشكوك فيهم	العدد الإجمالى
خالقو المتاعب أنفسهم	١٨	٨	٣٤	٢	٦٢
آخـــرون	٥	٣٠	١٢	٦	٥٣
المجمـوع	٢٣	٣٨	٤٦	٨	١١٥

وقد أضيف إلى الـ١١٥ مشكلة التى تسبب الناس فيها ٢٠مشكلة تسببت فيها قوى غير بشرية و ٩ مشكلات لم يحدد السبب فيها ، ويترتب على ذلك أن يصل المجموع الإجمالى إلى ١٤٤ مشكلة ، وارتفاع رقم المشكلات من ١٤٢ إلى ١٤٤ يفسره أن البحث قدتعقب ـ فى حالتين ـ خالقى المشكلة من ذوى الخلق الطيب وذوى الخلق السيء وضعاف النفوس .

وطيبو الخلق يخلقون المشكلات مثلا بإيهام الآخرين بتحقيق ما يصبون إليه ، فثمة زوجة «تعطى الأمل» لزوجها الضرير بأن تدعه يعتقد أنها تنتظر مولودا ، وممثل يلعب دور شقيق فتاة ضريرة لكى ينقذها من معرفة أن هذا الشقيق سجين

بتهمة القتل ، وممثل آخر يعرض خدماته لكى يثير غيرة زوج يهمل زوجته ،وقد يقع رجل «طيب» فى حب زوجة رجل آخر أو فى حب إمرأة أخرى غير زوجته ، ولكن مثل هذه العلاقة الغرامية لا يمكن أن «تكمل» وبصفة عامة يبرر خطأ الشخص الثالث ـ الزوج فى الحالة الأولى والزوجة فى الحالة الثانية ـ زلة الرجل الطيب ، وطيبو الخلق يلصقون ـ أيضاً ـ بأنفسهم تهما ليتستروا على آخرين .

وهناك فرق واضح بين التقويم الخلقى لأولئك الذين يخلقون المتاعب لأنفسهم وأولئك الذين يخلقونها للآخرين . فذوو النفوس الضعيفة يكثرون فى الطائفة الأولى كما يكثر وجود ذوى الخلق الطيب فيها . أما الذين يخلقون المشكلات للآخرين فهم فى الغالب من ذوى الخلق السىء وأحياناً من ذوى النفوس الضعيفة . وأما ذو الخلق الطيب فلا يظهرون إلا فى حالتين فقط .

وأمابشأن «ضحايا» هذه المشكلات أو «المعذبين» بسببها فإن الجدول رقم ٦ يقتصر على بيان أولئك الذين يخلقون المتاعب لأنفسهم ، وإذا تأملنا فى كل «المعذبين» ـ أولئك الذين يخلقون المتاعب لأنفهسم وأولئك الذين يعانونها من الآخرين ـ فإن ذوى الخلق الطيب يظهرون فى الجدول رقم ٧ على أنهم معظم المعذبين . فذوو الخلق السىء يندر أن يكونوا ضحايا المتاعب ، ويجب إضافة ست حالات إلى الـ١٦٦ حالة التى تضمنها الجدول رقم ٧ يوصف فيها المجتمع بأنه ضحية المتاعب مما يظهر مرة ثانية أن عالم المسلسلات النهارية عالم خاص .

الجدول رقم٧

التقويم الخلقى لكل «المعذبين» من المتاعب

التقويم الخلقى	عدد المعذبين
طيبو الخلق	١٠٣
سيئو الخلق	٨
ضعاف النفوس	٤٦
مشكوك فيهم	٩
الإجمالى	١٦٦

ومرة أخرى تفسر زيادة عدد المعذبين من ١٤٢ إلى ١٦٦ بسبب عدد الحالات التى أدرجت تحت أكثر من طائفة .

التمييز بين الرجال والنساء

لما كانت المسلسلات تعنى غالباً بجمهور النساء ، لذلك يبدو من الأوفق أن ننظر إلى الفروق فى تقديم شخصيات الرجال والنساء

والجدول رقم ٨ يوضح أن الرجال يظهرون بشكل بين على أنهم صانعو المتاعب أكثر مما يظهر النساء ، وهذا يبدو بوجه خاص فى الحالات التى تخلق المتاعب لإيذاء الآخرين (طبقاً لأنواع المتاعب التى تضمنها الجدول رقم ٤ يبدو التردى فى زيادة عدد الرجال عن عدد النساء فى إيذاء الآخرين وخاصة فى نطاق مشكلات الشئون العامة والمشكلات الجنائية والاقتصادية) وصانعو المتاعب من الذكور يغلب أن يكونوا إما من ذوى الخلق السىء أوضعاف النفوس ويندر تماماً أن يكونوا من ذوى الخلق الطيب . أما بين النساء فإن عدد ضعيفات النفوس ضعف عدد ذوات الخلق الطيب أوالسىء ، وهكذا فإن الفرق فى التوزيع الجنسى يثير الدهشة بالنسبة لذوى الخلق الطيب : فصانعو المتاعب من ذوى الخلق السىء من الرجال أكثر من ضعف عدد هذه الطائفة من النساء .

الجدول رقم ٨

التقويم الخلقي للرجال والنساء من صانعى المتاعب

التقويم الخلقى	صانعو المتاعب أنفسهم		آخـــــرون		العدد الإجمالى	
	رجال	نساء	رجال	نساء	رجال	نساء
طيبو الخلق	١١	٩	٤	٣	١٥	١٢
سيئو الخلق	٤	٤	٢٣	٨	٢٧	١٢
ضعاف النفوس	٢٠	١٧	٩	٣	٢٩	٢٠
مشكوك فيهم	١	٢	٣	٣	٤	٥
الإجمالى	٣٦	٣٢	٣٩	١٧	٧٥	٤٩

ويفسر الزيادة فى الإجمالى من ١١٥ فى الجدول رقم ٦ إلى ١٢٤ (٧٥ رجل

و٤٩ امرأة) فى الجدول رقم ٨ المثل التالى : فصانع المتاعب سيء الخلق فى مشكلة ما قد يكون فعلا أكثر من شخص واحد . وأحياناً يكون رجلا وامرأة ، ونفس هذا التفسير ينطبق على إحصاء المعذبين فى الجدول رقم ٩ .

وتوزيع الرجال والنساء بين كل المعذبين وتقويمهم الخلقى يوضحه الجدول رقم ٩ ، فمنه يتبين أن عدد الرجال ضحايا المواقف المتعبة هو تقريباً نفس عدد النساء من هذه الطائفة فى معظم الحالات ، ولكن عنصر الرجال يتفوق بين المعذبين من ضعاف النفوس .

الجدول رقم ٩
التقويم الخلقى لكل الرجال والنساء ضحايا المشكلات

التقويم الخلقى	رجال	نساء
طيبو الخلق	٥٩	٦٥
سيئو الخلق	٥	٤
ضعاف النفوس	٣٣	١٩
مشكوك فيهم	٣	٦
الإجمالى [١]	١٠٠	٩٤

وهناك بعض أمثلة على مشكلات الزواج قد تظهر كيف يبين هذا الاتجاه فى «عقد» القصص ، ويندر أن تقدم اضطرابات الحياة الزوجية بسبب الخيانات وهى تعالج بحذر ، ويتجه تقديمها إلى الانتصار للزوجة ، وما من حالة واحدة تخون فيها الزوجة زوجها مع رجل آخر ، فى حين أنه فى ثلاث حالات تثبت خيانة الأزواج مع فتاة أخرى وما فى حالة من تثبت خيانة الأزواج مع فتاة أخرى . وقد وصف اثنان من هؤلاء الأزواج بأن أحدهما «أنانى ومتشكك وغيور» والآخر «مزعزع وغير متزن» والثالث بأنه استسلم إلى إمرأة «حقيرة» أنانية مشاغبة وغيور ، وكلما كان الزواج مهدداً بسبب تقصير أحد الزوجين فى أداء واجباته كان هناك دائماً شيء ما يعيب الزوج . فإما أنه كان مستبداً أو أنه أهمل زوجته أو أنه أثار اشمئزازها بسبب كسله أو أنه اتهم بالاشتراك فى مؤامرات سياسية . . إلخ ، وليست هناك إلا حالتان

(١) تراجع الملاحظة على الجدول رقم ٨ .

من حالات الزوجات سيئات الخلق إحداهما شهّرت بأحد زملاء زوجها بسبب منافسة مهنية ، والأخرى - وهى زوجة جراح أخصائى فى جراحة «التجميل» - رفضت عقب حادثة أن تستعيد «جمال وجهها الشرير الذى استخدمته طيلة حياتها لارتكاب كل موبقة» ، وهذا المثل الأخير هى الحالة الوحيدة التى أراد فيها رجل أن يتخلص من زوجة ليست محل عطف ، وقد بدا واضحاً أن وزرها قد أبرز على أنه يعود إلى أقصى ما تطمع فيه امرأة من رأس مال الجمال .

حلول المشكلات

لقد لوحظ غالباً فى فن القصص الشعبى (القصص الطويلة المعدة للقراءة والمسرحيات والقصص السينمية) أن المواقف الناشئة عن المشكلات تحل طبقاً لمستويات خلقية تقليدية ، فالقصص تحكمها العدالة الكاملة . ولذلك تعيد تأكيد هذا المعنى لدى النظارة وتغذيهم بشعور مريح من التعويض النفسى ، وهذه القاعدة منطبقة فى المسلسلات الاذاعية .

والخطط الكفيلة بخلق المشكلات لقوم آخرين أو لصانعى المشكلات أنفسهم يجوز أن تتدرج فى القصة وتنضج ولكن يندر أن تصل إلى غايتها ، ففى «عينة» من ٧٣ حلا للمشكلات لم تصل إلى الغاية من تلك الخطط إلا ١٢ فى المائة منها فقط ، وأكبر قدر من النجاح ناله صانعو المشكلات من ذوى الخلق «الطيب» .

وقد يثير الاهتمام أنه بينما كانت كل الدوافع المعزوة إلى ذوى الخلق الطيب تعد مغتفرة أو حتى موضع إطراء ، فإن البحث قد أثبت أن هناك تفريقاً - ربما على أساس التقويم الخلقى - خاصا بما إذا كان يسمح للخطط أن تنجح ، فأنها لم يسمح لها بذلك فى حالات التدخل فى نظام كالزواج أوالأسرة أوتحقيق العدل ، وقد سمح لذوى الخلق «الطيب» بأن يهجروا إمرأة لمدة ما بسبب الوفاء لزوجة مختلة القوى العقلية ، وأن يرفضوا عملا أفضل بسبب تفضيل الحياة الريفية ، وألا يقبلوا الزواج من كلا اثنين طلبا هذا الزواج ، وأن يساعدوا زوجا ضريراً فى أثناء محنة بإيهامه بأنه سوف يرزق بمولود ، ولكنهم منعوا من أمور مثل الاحتفاظ بطفل متبنى وحرمان أمه الحقيقية منه ومغازلة زوج لفتاة شريفة رغم أن زوجته كريهة ، أوإغواء زوجة شريفة أهملها زوجها ، أوتحمل عقوبة عن جريمة قتل ارتكبها آخر .

وقد سبق أن تقرر فى هذا الفصل أن ذوى الخلق الطيب يغلب وجودهم بين المعذبين ، وأن ذوى الخلق السىء يندر أن يكونوا ضحايا المشكلة ، ولكن بينما

يلاحظ هذا الطابع فى التصميم الأولى للمشكلات ، فإن الحلول توضح أن العدالة التامة هى التى تتحقق ، فما من أذى نهائى يلحق الضحايا ، وكثير منهم يعوض تعويضاً ملائماً عن العذاب الذى عاناه ، ولا يعاقب صانعو المتاعب من ذوى الخلق الطيب ، فقد صدروا عن دوافع فاضلة ، ولكن العقاب يوقع على كل صانعى المتاعب من ذوى الخلق السىء ، ولما كان صانعو المتاعب من ضعاف النفوس قد أخطأوا ولكنهم مرشحون للإصلاح فإن نحو نصفهم يعاقب والباقى لا يناله أى عقاب .

وقد يضاف إلى ذلك أن العدالة التامة التى تحكم المسلسلات عدالة من نمط عجيب ، وهناك سبب لوجودها ولكن ليس ثم ما يكفى لتبريرها ، فسواء عوقب الشخص أوكوفىء ، فأن ذلك يفسره نوع التقويم الخلقى لأعماله أولأعمالهاالتى يمكن أن تتوقع من متوسط المستمعين . إلا أن المسلسلات لاتتضمن دلالة على مبدأ ما يعبر عن العدالة . فالأشخاص الأفاضل والأكفاء يظهرون ليساعدوا المعذبين الأبرياء ، وليحاربوا الأشرار ، ولكن من الذى يجهز هؤلاء الذين يهبون للنجدة ومن الذى يعينهم على النجاح ، ومن الذى ينعم بالشفاء على المرضى الشرفاء ، ومن الذى يصيب الشرير بالفالج؟ أن الله قد يكون هذا المبدأ ، ولكنه تعالى يندر أن يشار إليه . وليس هناك من تفسير مسبب لهذا الارتباط الشديد بين ما يستحقه الناس وما يحصلون عليه ، والمسلسلات الإذاعية تدرك إرضاء الناس بتحقيق قاعدة عدالة مثالية ، ولكنها لا تعنى بإيضاح من ندين له بمثل هذا الوضع الكامل للأمور .

قاعدة نفسية لأوبرا الصابون

إن تقويم المستمعة لـ«عقدة» القصة وللشخصيات التى اشتملت عليها يتوقف كثيراً على الشخصية التى تماثل شخصيتها . فإذا قدمت القصة إمرأة تخدع خير أصدقائها فإن كل شىء يتوقف على ما إذا كان المحور الذى يثير الانتباه هى الشخصية الشريرة أوالظروف التى قادت المرأة لكى تقترف ما كان يجب عليها ألا تقترفه وربما ما كانت ترغب فى ألا تقترفه ، وصراعها مع ضميرها وندمها وهكذا ، وما إذا كانت العقدة «قد أبرزت تلك المرأة كضحية ، ففى الحالة الأولى تذكر القصة المستمعين بنقص الطبيعة البشرية وإذا وضحت المماثلة مع الخاطئة . فإن

ذلك ينذر بأن كل الناس مخطئون وهذا يخلق نحو القصة إحساساً من الكآبة والضعة ولكنه - فى نفس الوقت - موقف مثير ما يحققه من إيضاح القوة الآلية التى تدفع الناس إلى الإثم ، وفى الحالة الثانية تستهوى القصة ناحية الرياء فى الرجل فهى تظهر أن أفاضل الناس تساء معاملتهم حتى بواسطة أولئك الذين كانت هناك كل الأسباب التى تبرر الثقة بهم وتستعين بإثارة شعور الرضى بأن يكون الإنسان طيباً ، بينما الآخرون - لسوء الحظ - سيئون ، وبدلا من فتح الطريق نحو معرفة المرء المتواضعة لقدر نفسه فإنها تغذى فيه المتعة الرخيصة بالرضى عن نفسه ، وتشجع المماثلة بين المستمعين وشخصيات المسلسلات الإذاعية بطرق مختلفة معظمها يندرج فى الصياغة المألوفة للفن القصصى - قصة طويلة معدة للقراءة أومسرحية أوقصة سينميه - والمركز الرئيسى للشخصية يدعو المستمع إلى أن يحس بوضع «العقدة» من وجهة نظر هذه الشخصية وأن يقوِّم هذا الوضع ، ويساعد على المماثلة مجرد طول الوقت المخصص فى القصة لشخصية ما ومقدار ما تضمنته القصة من فراسة عما يفكر فيه المستمع وما يحسه ، والكمال الجسدى والذهنى والخلقى والنفوذ الاجتماعى والهيبة يجب أن تدعم التماثل بين أشخاص القصة والمستمعين فى قوة فائقة ، وبالإضافة إلى ذلك فهناك عامل التشابه : فالزوجة متوسطة العمر أكثر استعدادا لعقد المماثلة بينها وبين زوجة متوسطة العمر فى القصة وهكذا . .

وقد بحثت بواعث المماثلة على أساس هذه المقاييس ، وجعلت الصياغة الفجة المسرفة فى التبسيط لرسم الشخصيات التى استهدفها مؤلف المسلسلة الإذاعية هذا العمل أيسر بكثير . كما أتاحت له أن يصبح أكثر قابلية للاعتماد عليه فى التطبيق العملى مما يلوح فى البحث النظرى ، ففى ١١٨ حالة من ١٢١ حالة توافرت التفاصيل الكافية عنها لم يكن هناك شك عن باعث المماثلة المقصودة ، وقد استبعدت إحدى وعشرون حالة بسبب تفاهة التقارير .

والمماثلة تتجه نحو نمط يثير الدهشة بتكراره وتطابقه ، فالكمال الخلقى أكثر السمات تكراراً بين طائفة الأغراض التى استخدمت لتكون «باعثا على المماثلة» وبلا استثناء فإن هؤلاء الأشخاص ذوو خلق فاضل لاغبار عليه طيبو القلب ميالون إلى مساعدة الغير ، كما أنهم أذكياء ويغلب أن يمتازوا بالوسامةورشاقة القوام ، إنهم «القادة بالصفات الشخصية» الذين ناقشنا سابقاً تكرر ظهورهم فى المسلسلات ،

وفى ١٠١ حالة من ١١٨ حالة كان باعث المماثلة امرأة ، وأما بشأن دورها الرئيسى فى «العقدة» فإن «المرأة المثالية» قد صورت على أنها :

مرشحة للانتخابات	فى ٢٣ حالة
زوجة	فى ٢١ حالة
أم	فى ١٦ حالة
امرأة مهنية	فى ١٤ حالة
صديقة	فى ١٣ حالة
ابنة	فى ٢ حالة
غير واضحة	فى ١٢ حالة
المجموع	١٠١ حالة

البناء النفسى للمسلسلات الإذاعية

لدينا الآن من المقومات ما يمكننا من أن نضع قاعدة نفسية قد تضم فى الظاهر مختلف «عقد» المسلسلات الإذاعية وهى التى تتضح من تلقاء نفسها خلال كثير من السمات التى سبقت مناقشتها والتى تتميز بها المسلسلات ، وهناك ثلاثة أنماط لهذه الشخصيات تختلف أدوارها اختلافا واضحاً تدعم هذا البناء النفسى ، وهى مستوحاة من الأنماط الثلاثة للتقويم الخلقى التى استطعنا أن نميز بينها كما أنها مرتبطة بها ، ويمكن وصف عمل هذه الأنماط الثلاثة على الوجه الآتى :

١ ـ الأشخاص «الضعفاء» يشتركون بنصيب كبير فى مسئولية الحلقات المتصلة من الكوارث التى تصيب ـ طبقاً للمسلسلات الإذاعية ـ الحياة البشرية ، ولكن هؤلاء الأشخاص ليسوا سيئى الخلق بطبيعتهم ، فالمتاعب التى يثيرونها ولو أنها توجه غالباً إلى الآخرين تجعلهم يتعذبون هم أنفسهم لأنها تعكر صفو الجماعة الخاصة التى ينتمون إليها ، وهى شخصيات أنانية حاسدة . حاقدة . خادعة . وفى حاجة إلى أن يساعدها الآخرون على التخلص من مواقف الصراع التى من عملها ، وهذا النمط هو ما قد يتوقع أن يرسم لوحة بلا بريق للمستمعة العادية نفسها ، والدوى المنبعث من رجع الصدى هو رد الفعل المحتمل الذى

تثيره الشخصية الضعيفة التى تعكس بأمانة إحساسات المستمعة الخاصة وتجاربها . ووجود هذاالنمط هو الذى نتوقع أن يجذب المستمعة إلى المسلسلة باعتبار أنه أمر يعنيهابذاتها .

التقويم الخلقى	الدور فى «العقدة»	موقف المستمعة
ضعيف	لا حول له فى صنع المتاعب يستحق العذاب وقابل للاصلاح	رجع الصدى للصورة
طيب	لا حول له كقائد لا يستحق العذاب	مطابقة للمثل الأعلى
سيىء	سبب خارجى للمتاعب وتجسيد للقوى المعادية وغير قابل للإصلاح	حقد على العدو

٢ ـ ومع ذلك فالصورة التى تبدو من هؤلاء الأشخاص «الضعفاء» صورة كئيبة ، ولذلك فإن المستمعة إذا استهواها رجع الصدى الذى تثيره فيها فيجب أن تتاح لها الوسائل التى يمكنها من أن تنزع نفسها ، والنمط الثانى الذى يمثله ذوو الخلق الطيب يحقق هذا الغرض إذ يبعد المماثلة عن النمط الضعيف ، ويتيح منصة آمنة تشاهد عليها من عل مغامرات الشخصية الضعيفة التعسة فى جو من الترفع والرضى . وتضيف الاشتمال على مثل أعلى لتصوير لوحة الحياة الواقعية ، وتسمح للمستمعة بأن تماثل نفسها بإمرأة تحتفظ دائماً بطيبتها واستقامتها تتميز بالفضيلة والنشاط والنجدة والصفات القيادية وبالمركز الممتاز المهيأ لها فى بناء المسرحية وبزملائها فيها ، وهى تظهر غالبا كإمرأة يتمنى رضاها عدد من طالبى الزواج الذين تتمنى الأخريات رضاهم أوكزوجة ، ولكنها تظهر فى كثير من القصص أيضاً كأم وكصديقة أوكإمرأة تحترف مهنة ما ـ والضعف الخلقى هو باعث نشاطها المتسم بالنجدة ، وباعث المماثلة يقوِّم الدور السلبى والتبعى الذى تلعبه المستمعة فى الحياة الواقعية كزوجة تنتمى إلى الطبقات الاجتماعية المحرومة من المزايا ، ويدل بحث «العقد» على أن هذه الشخصية توجه أقدار المنكوبين كلما كانت هى نفسها بمنأى عن الصراع ، ولكن إذا أقحمت فى هذا الصراع فعندئذ تبدو متحكمة فى الموقف على أنها الضحية البريئة المعذبة بسبب خيبة الآخرين ، وهكذا نتيح للمستمعة الفرصة لكى ترثى لحالها هى نفسها ، فإذا تسببت فى خلق المتاعب لنفسها فإنما تفعل ذلك كشخص جدير بالثناء لأسباب جديرة بالثناء .

٣ ـ والنمط الثالث يتكون من ذوى الخلق السيىء الذين يتسللون من الخارج ليهددوا أمن الأشخاص الذين يربطهم بالمستمعة رجع الصدى كما تربطهم بها المماثلة ، وبينما يعد الشخص الضعيف بالنسبة للمرأة الطيبة باعثاً على النجدة فإن الشخص السيىء عدو عليها أن تدافع ضده عن الآخرين وعن نفسها ، ويجب ألا يغيب عن الذاكرة أن أغلب ذوى الخلق السيىء من الرجال وأنه فى عالم الواقع لا يقتصر الشر على الخصوم الشخصيين كفتاة تنافس أخرى على حب رجل فحسب ، ولكنه يشمل القوى المجهولة المصدر للسياسة والاقتصاد التى تنكب كيان المستمع على الدوام فى الحياة الواقعية ، ولا يسمح بقيام رابطة بين ذوى الخلق السيىء والمستمعة ، ولا إدراك لبواعثهم يمكن وجوده أويسمح بالرغبة فيه فإنهم شر فى جانب واحد وهم لا يثيرون إلا السخط والخوف ويهاجمون الضحية البريئة ـ كما ترمز إليها كثير من حلقات المحاكمة الجنائية فى المسلسلات ، وعن طريق إقحام العنصر الإنسانى فى القوى الخارجية التى تثير الاضطرابات ورسم المتسببين فيها داخل إطار حالك السواد تدعم المسلسلات موقف المستمعة ممن تعدهم أعداءها ، ولا يعترف بالقوى غير الشخصية كما لا يسمح لها بأن تنخرط فى سلك الأعداء إلا فى حالة المرض أوالحوادث .

ويمكن أن تقرر قاعدتنا النفسية فى العبارات التالية : المسلسلات الإذاعية تجتذب المستمعة بتقديم صورة لتقصيرها فى أداء واجباتها الخاصة مما يقود إلى المتاعب الدائمة ولعجزها عن مساعدة نفسها ، ورغما عن كآبة هذه الصورة فإنه يمكن الاستمتاع برجع صداها ، لأن المماثلة تنحى بعيداً عنها وتنتقل إلى نمط مثالى للمرأة الكاملة القادرة التى تمتاز بالقوة والهيبة والتى يقضى عليها بأن تتعذب ، لا بسبب خطئها هى ، بل بسبب خطأ الآخرين ، وهذا يمكن المستمعة من أن تستعرض (وتنقد) قصورها الذاتى عن أداء واجباتها الذى يقود إلى المتاعب كما لو كان هذا قد حدث لـ«غيرها» من المخلوقات التى دونها كمالا ، ومع ذلك فإن هذا القصور عن أداء الواجب ـ لأنه يعيبها هى نفسها رغم كل شيء ـ يقدم فى القصة على أنه نابع من مجرد ضعف الشخصية ، وأن إصلاحه جائز ، بل إن هذا الإصلاح يتحقق غالباً ، وسخط المستمعة على هذه الشخصيات يؤكده ويغذيه تقديم النمط الشرير الذى يجسد ويتحمل أيضاً أية آثار مؤذية للقوى غير البشرية (التى تهتم المستمعة بها لما تستشعره وراءها من حصانة) كمنظمات المجتمع .

إن النهج النفسى الذى قدمناه هنا هو فرض مبنى على الأدلة المستقاة من مضمون التحليل الذى أجريناه ومن المرغوب فيه أن نمتحنه ببحث ردود الفعل لدى المستمعين .

مواجهة المسألة

هل تعرض المشكلات عرضا مناسبا؟

إذا كانت للمسلسلات الإذاعية أية قيمة ثقافية فإن عملها لا يمكن أن يثمر الثمرة المرجوة بتقديم ترفيه شائق عن طريق إثارة الانفعالات والإحساس بالتعويض النفسى عن مضايقات الحياة ، ولقد أظهرت الأحاديث مع المستمعين أن كثيرات من النساء يستمعن إلى المسلسلات ليلتمسن النصح بشأن السلوك المناسب أو المواقف المناسبة فى مختلف المسائل ، ولذلك تبدو ضرورة دراسة ما إذا كانت المسلسلات تعالج المشكلات معالجة مناسبة ، ويتضح من المقارنة بين المسلسلات والحياة الواقعية أنه يندر تجاوز مجرد الحقائق الأولية الاجتماعية والنفسية ، ولكن قد يكون أكثر أهمية أن نكتشف ما إذا كان تصميم المشكلات ونضوجها مما يسمح بالتبصر السليم .

إن الفن القصصى أنما هو وصف أوضاع الحياة النمطية خلال حالات فريدة ، وواقع أن ما تقدمه القصة ليس «هذه الحالة بالذات» وإنما «مثل هذه الحالة» يخلق أساساً لاهتمام عام محتمل بالقصة ، والتعميم من واقع التجربة طريقة مألوفة لدراسة أنماط الأشياء والحوادث فى الحياة ، وهذا يستتبع أنه إذا قدمت مسلسلة إذاعية متاعب زواج «هنري» و«ايديث سميث» ، فإن الناس سيستقبلون التمثيل على أنه بعض البيان عن الزواج بصفة عامة وأن المقصود هو أن يستقبلوه على هذا الوجه ، فهل الصورة مناسبة؟ هل هناك محاولات لعرض المشكلات التى تتضمنها وحلولها الممكنة عرضاً ملائماً؟ فإذا كان الجواب بالنفى . فما هو نوع الانحراف عن العرض الملائم وتحريفه؟ هل يصدر عن الاتجاهات إلى تقديم أوضاع الحياة بطريقة معينة وإلى إغفال مظاهر معينة وإلى التستر على بعض الأمور وإبراز البعض الآخر؟ ما هى هذه الاتجاهات وما هى الوسائل التى تستخدم لممارستها؟ .

أسباب نمطية

هناك أسباب نمطية يتكرر استخدامها فى مشكلات العمل ، ومتاعب العمل أوالمتاعب المهنية يغلب أن يكون المتسبب فيها أناس آخرون يرغبون فى تحطيم «المعذب» لأسباب شخصية لا شأن لها بوضع العمل ، ويتكرر ذلك فى حالات عديدة أكثر من الحالات التى تكون الظروف الاقتصادية فيها هى سبب المتاعب ، ومثال ذلك : «آرلين» تطلب من والدها وهو مصرفى أن يفصل محاميته «بورتيابليك» لأن زوج «آرلين» أغرم بالمحامية . وفتاة ترغب فى أن تحول دون أن تصبح «بيس جونسون» عميدة لإحدى الكليات لأن هذه المرأة أحبطت محاولة تلك الفتاة الزواج رغم رغبة أبيها فى عدم إتمام هذا الزواج وفى الحالتين تبدو الصلة بين وضع العمل والوضع الفردى الخاص مجرد صلة عارضة ، وقد تعطل «جوردون» عن العمل ـ لماذا؟ هل عزت الأعمال فيما أهل له؟ لا . إنه فنان أصبح ضريراً ولذلك اضطر إلى أن يتوقف عن عمله ، وقد اختيرت هذه الحالة الفردية التى كان فيها المرض ـ دون الوضع الاقتصادى ـ هو سبب المتاعب .

والتعميم على أساس مثل هذه الحالات يجب أن يقود إلى صورة مضللة عن العالم . فلماذا يؤثر مثل هذا الاتجاه ـ قصداً أوبغير قصد ـ هذا التأثير على مؤلفى المسلسلات؟ إن المبادىء السياسية المحافظة تتجه إلى صرف الانتباه عن أية عيوب فى الوضع الاقتصادى العام ، وإلى إلقاء اللوم على عوامل أخرى ، ومن المحتمل أن يلائم مثل هذا التصوير ما ينتظره متوسط المستمعين إلى المسلسلة ملاءمة تامة ، فالأسباب الشخصية كغيرة إمرأة والكوارث الطبيعية كالمرض تثير استجابة انفعالية مباشرة أكثر مما يثيره مجرد فعل آلى اقتصادى .

وعلى هذا النسق تستخدم أسباب نمطية لإظهار مشكلات الزواج دون إلقاء الظلال على نظام الزواج نفسه لأن وضع الزواج ذلك الموضع لا يرحب المستمع بقبوله ، وهناك مثلا خطر الخيانة الزوجية : فلكى يمكن تفادى التبصر الكئيب يرتب نمط معين لحالة يسمح فيها بوجود الشخص الثالث (أى صديق الزوجة أوصديقة الزوج) ولكن بحيث يعدل الوضع «النظامى» تعديلا مناسباً : كأن يمنع الحنين إلى غائب أومختل القوى العقلية أو متوفى ـ زوجا كان أوزوجة أوخطيبة ـ من إتمام زواج جديد ، وفى هذه الحالات لاتتجاوز القوة محدثة الاضطراب ـ التى تلتصق غريزيا بشخص يقدم كمثل ـ إلى علاقة زنا ، وإنما على العكس تصور على

أنهانابعة من وفاء لعلاقة زواج فصمها القدر ، ولذلك لم تعد التزاما خلقياً ، كما أن العاطفة محدثة الاضطراب لاتهدد بتحطيم زواج قائم ، ولكنها تحبط فحسب إتمام زواج لم يكن قد تم بعد .

الباعث الغامض

إن الجمع بين صراعين يمنع التبصر فى العلاقة بين السبب والأثر . مثلا «جوناثان هوبسون» يود الحصول على عمل طول الوقت ، ولو أن ذلك سيضطره إلى هجر أحلامه عن نظم الشعر ، وهو يظن أن العمل فى (برنامج الدفاع) واجب وهام . فهذا الصراع النبيل بين مساعدة المجتمع وممارسة موهبة شخصية ـ مع ذلك ـ يشوبه أن «جوناثان» عضو فى أسرة من العمال المهاجرين المعوزين تماماً . وقد أرسل والده إلى المستشفى بسبب مرض خطير وهو فى حاجة إلى المال . وهكذا لا يمكن تقرير كيف يتصرف الشاب إذا ووجه بإحدى المشكلتين فقط لا كلتيهما ، وفى مسلسلة أخرى : ولو أن «ايديث أدامز» مخطوبة إلى محام محترم فإنها لا تزال تشعر بنفسها مرتبطة بزوجها الشرير السابق الذى يمرض فتشعر بأنها يجب أن تساعده ، فالعطف على هذا الزوج السابق والرغبة فى مساعدته يتراكمان على عاطفة التعلق به فتتعقد المسألة .

الأشرار يحلون محل المشكلات العامة

إن ذوى الخلق «السيىء» يجب ألا يقدموا فى وضع كفيل بذاته بإثارة الصراع لأن شخصياتهم قد جبلت على أن تتسبب وحدها فى المتاعب ، ومع ذلك فإن مؤلفى المسلسلات الإذاعية يفضلون الخروج على هذه القاعدة إذ يستخدمون شخصاً سيىء الخلق لتبرئة أنماط معينة من الأوضاع الكفيلة بإثارة المتاعب وتحويل وزر المسئولية من الوضع إلى الشخص ، وأكثر من ذلك فإن النمط السيىء يتسم بأنه لا يمسه أى صراع داخلى ، فهو لا يعدو أن يكون آلة فى يد الرغبة محدثة الاضطراب والصراع ينشب فى الخارج لا داخله ، ولكن بقوى خارجية تتصل عرضاً بحملة المتاعب ، ورد الفعل على صانع المتاعب السيىء هذا يغلب أن يعتمد على موقف المستمع من طراز الناس الذين تمثلهم الشخصية المعروضة

فى القصة ، والحماة «الأنانية» المسيطرة قد تبدو كاستثناء لا يثبت شيئاً قط أوحتى قد يقود إلى نتيجة ـ لاتتبع ما سبق من سياق القصة ـ تتلخص فى أن كل شىء على مايرام ، وإذا لم يوافق المستمع بالتالى على طراز الناس موضوع البحث فقد يسارع إلى قبول الشخص ذى الخلق السيىء بمفرده كنمط لذلك الطراز ، وبهذه الطريقة تتم تغذية فكرة «الشر الجماعى» طبقاً لرأى المستمع فى أن طائفة معينة من الناس متصفة بسوء الخلق : كالحموات أوالأزواج أوالقانونيين أوغيرهم ، ويفضل المؤلفون أن يقدموا بهذه الطريقة السياسيين المنحرفين والموظفين المتسترين على الجرائم وأعضاء النيابة الوصوليين ، وما من محاولة تبذل لشرح الوضع الذى يقود إلى الأعمال السيئة والذى يقبل الإصلاح فعلا أو قد يكون مستعداً لقبوله .

«مستر بريل» وهو أحد أصحاب المزارع ذوى الخلق السيىء يستغل أزمة الإسكان التى نشأت عن أعمال الدفاع ليثرى من بعض أكواخ خالية يملكها ، و«مستر كارلتون» يعرض ٣٠٠٠ دولار على مؤلف موسيقى فقير فى مقابل «سيمفونية» لأنه يطمع فى أن يبيعها بمبلغ خرافى قدره ٢٥٠٠٠ دولار ، وكل محاولةلربط هاتين الحالتين بمشكلة الربح يعترضها الواقع الماثل فى أن «مستر كارلتون» قد وصف بأنه «شرير» وان «مستر بريل» قد أشير إليه على أنه «شيطان يحمل مذراة حنطة» و«الشر الفردى» لهذين الشخصين أو«الشر الجماعى» «لرجال الأعمال بصفة عامة قد تضمنته القصة لإيضاح الضرر الذى يلحق بالآخرين ، وأحد أعضاء مجلس الشيوخ يحاول أن يبيع قطعة أرض غير صالحة فى حيازته إلى الحكومة بغرض بناء ثكنة للجيش ، وهذه القصة تتضمن وصفاً مسهبا عن كيف أن صلته بالأرض المعينة قد أخفيت بأساليب تسترت عليها عدة شركات ذات مصلحة كبيرة فى الصفقة ، وللمستمع الخيار بين أن يعد الرجل استثناء من مجموع أعضاء «الكونجرس» الشرفاء أوممثلا لشر سياسى جماعى ، والمحاولات الخاصة بعدم تمكين ذى الخلق السيىء من إلحاق الأذى بالناس توصف بإسهاب ، ولكن ليس ثمة لمحة إلى المسألة العامة ، وهى ما إذا كان الجمع بين النفوذ الإدارى ومزاولة الأعمال التجارية هو الذى أثار التناقض أم لا ، وعلى هذا النسق يوصف مخبرو الصحف بأنهم قوم يلهون بعرض شئون الناس الخاصة على الجمهور فى حملة شخصية وحشية ، ولكن المشكلة العامة التى قد ينطوى عليها الإثراء عن طريق نشر الأنباء المثيرة لايمسها أحد .

والظمأ إلى الحرية صراعه مع الحاجة إلى إقرار النظام كان يمكن أن يكون موضوعاً رائعاً لحلقة من حلقات المسلسلات وقعت حوادثها فى ملجأ للأيتام . وقد وضعت القصة لمهاجمة الصورة الخلفية لما يجرى فى هذا الملجأ ، ولكن ـ مرة أخرى ـ لم تنتهز الفرصة إذ اختير نمط من ناظرات المدارس لا يصلح لضرب المثل على النظام المدرسى «مسز سيبروك» وهى امرأة «فظة مستبدة ، نكدة ، حقيرة ، أنانية وقاسية» أوامرها عنيفة وجزاءاتها على الأخطاء الصغيرة مبالغ فيها ، وهى ترشو أحد الأطفال ليتجسس على الآخرين ، وهكذا عندما يثور هؤلاء الأطفال فإنما يثورون ضد النظام وتظل المشكلة الرئيسية دون أن يمسها أحد .

حلول خارجية من قوة عارضة

زوجة «بيل كيمرون» أغرمت بـ«دوايت كريمو» أحد شركاء زوجهافى العمل ورغب «كيمرون» فى طرد «كريمو» ودون صراع فى داخل نفسه لم يتردد تحقيقاً لراحته فى تضحية أحد قدامى شركاء المنشأة . وعندئذ حسم الأمر بواسطة قوة خارجية إذ رفض رئيس المنشأة طرد «دوايت» لأنه زميل لامع ولأن والد «دوايت» عميل قيم لها ، وفى حالة أخرى تحاول «باربرا بارتليت» وهى طالبة شابة أن تهرب مع صديق لها رغم إرادة أبيها . ومرة أخرى بغير صراع فى داخل نفس الفتاة جاء الحل دون أن يتصل بقرارها المفاضلة بين رغبات أبيها ورغباتها هى وإنما من تدخل خارجى .

ويغلب أن تكون «العقدة» ببساطة ذات طابع يتسم بـ«وجود الواقع» وخاصة فى التحقيقات أوالمحاكمات الجنائية مثال ذلك «ميرت» وابنتها «مارج» اللتان تتهمان نفسيهما بارتكاب القتل لكى تتستر كل منهما على الأخرى ، ويبدو أن كلا منهما لا تهتم بما إذا كان مقبولا أن تكذب على المحكمة فى سبيل إنقاذ شخص عزيز ، ويتوقف الحل على القاضى الذى يستطيع أن يتثبت من شخص القاتل . وعندما يتهم برىء بارتكاب جريمة فإن الشخص الذى من المفروض أن يكون فى مركز الأهمية ـ لأن الصراع يجب أن ينشب داخل نفسه أونفسها (وهو الجانى الحقيقى الذى يدع بريئاً يتهم بدلا عنه) ـ لا يشغل فى القصة بصفة عامة إلا مركزاً ثانوياً .

وضع نهاية سعيدة

لما كانت حلول المشكلات توجهها «العدالة» أكثر مما توجهها الضرورة الداخلية ، فإنه يعنى بدرء الأمور المنفرة عن القوم المحترمين ، وهذا يعنى تفادى الوضع المسرحى «الكلاسيكي» كلما ألقت قوى مضادة بعظماء القوم إلى كارثة ، ولا اعتراض على «النهاية السعيدة» إذا انبعثت منطقياً من الوضع المتصارع ، ولكنها يغلب أن يتم الحصول عليها بحيلة تتمثل ببساطة فى إزالة أحد العوامل التى سببت المتاعب إزالة عارضة ، مثال ذلك : «كارولين بنتون» ـ طفلة منحرفة ـ لا تود أن يتم زواج أبيها الأرمل من «ايلين براون» وبعد عدة مناقشات حامية الوطيس تعلن «إيلين» أنها لاتهتم حقاً بالزواج من «مستر بنتون وتنصرف ، وفى حالة أخرى يطلب من فلاح أن يسلم أرضه إلى الحكومة لإقامة ثكنة للجيش عليها ، وهذا الفلاح يرغب فى أن يمكن الجيش من الحصول على ثكنات لأنه مواطن أميريكى صالح ، ولكنه فى حاجة إلى أرضه ، وهنا يتكامل بوضوح الصراع بين احتياجات المجتمع واحتياجات الفرد ولسوء الحظ تصبح أرض هذا الفلاح غير صالحة لأغراض الحكومة ، وفى حالة ثالثة تعمد «ايلين» ـ لكى تعطى لزوجها الضرير أملا يعيش من أجله ـ أن توهمه بأنها حامل تنتظر طفلا ، وهى تعلم أنها سوف يجب عليها أن تعترف بالحقيقة يوماً ما ، فهى تخشى أنه ربما يفقد أيضاً ثقته فيما أكدته له من أنه سيستعيد بصره على الأرجح ، ولكن قبل أن تتعقد المشكلةيرى الزوج الضرير بصيصاً من نور وشفاؤه يجعل مهمته أيسر فى مواجهة ما تحسه زوجته من خيبة الأمل إذا اتضحت الحقيقة بشأن الحمل الذى ادعته وهى حادثة يمكن وقوعها . ولكنها تناقض احتياجات المشكلة وتسمح بالهروب منها وتنطوى على سلوك غبى غباء خطراً أقدمت عليه امرأة بزعم أن هذا السلوك قد أثبت نجاحه .

وأن من اليسير أن يحل صراع ما إذا لم يثبت وجود هذا الصراع فعلا ، فالشك وسوء الفهم والأكاذيب والدسائس تجعل من الممكن وصف كل العذاب الذى يثيره صراع حقيقى ، ومع ذلك فإن جميع الأمور تسوى بعد برهة وجيزة ، فمؤلف الموسيقى «جارى» يعتقد أن حبيبته على صلة غرامية بـ«دوايت» ، وهوناقد موسيقى مع أن تلك الحبيبة الشريفة «دون» لم تزر الناقد إلا لتثير اهتمامه بـ«السيمفونية» التى ألفها «جارى» ، وامرأة دساسة توهم صديقتها «هيلين ترينت»

بأن المحامى «جيل» متدله إلى درجة المرض بحب زوجته المتوفاة مما يمنعه عن أن يحب أيةامرأة أخرى ، وفى الأعمال الأدبية يستخدم الصراع الذى لا وجود له أحيانا لإظهار العواقب التعسة للجهل الإنسانى ، وبصفة عامة يحدث فى المسرحيات «الكوميدية» أن الوضع الحقيقى ينكشف فى الوقت المناسب ، والمسلسلات الإذاعية تستخدم حيلة «الكوميدى» لتتفادى العواقب السيئة للصراع «الدراماتيكى» .

إصابة مفتعلة

إن العمل الذى يحتاج بصفة خاصة إلى مهارة ودقة هو إثبات أن الأعمال السيئة لاتفيد ، والاتجاه العام لعقل الإنسان نحو إنشاء علاقات سببية بين الحوادث المتصلة زمانا ومكانا هو الذى تستخدمه المسلسلات الإذاعية لكى يعطى مظهر علاقة سببية لحالات نشأت من المصادفة البحتة .

وأمثلة ذلك : «هنرى آدامز» سيء الخلق يخون زوجته مع صديقة له فيصاب بنوبة شلل ، و«بيل ووكر» يغازل «مسز دوريس كيمرن» ثم يتزوج من ابنتها ويتعثر الزواج لأسباب خارجة عن الحوادث السابقة ، ولكن المستمع يلقن أن «بيل» لقى جزاءه وفاقا ، و«كريستى ألين» منزعجة من صلات زوجها بزوجته السابقةوهى فى القصة كانت مخطوبة لـ«مارك سكوت» ولكنها هجرته إلى خير أصدقائه «فيل» زوجها الحالى فهى تشعر بأن متاعب زواجها ـ نوعا ما ـ عقاب على ما اقترفته وزوجها «فيل» فى حق «مارك» ، وبهذا الشكل يوعز بأن ماتتضمنه «عقدة» القصة من جزاءات توقع بطريقة عارضة بحتة لكى تحقق انتصار العدالة إنما سبب فيها مبدأ ما لم يشر إليه المؤلف كعاقبة للأعمال السيئة التى سبقت تلك الجزاءات .

نتائج واقتراحات

الآثار المحتملة للمسلسلات اليومية

إن تحليل هذا القدر من المسلسلات لا يعطى بيانا عن الأثر الذى تمارسه فعلا هذه المسلسلات على المستمعين ، ولكنه يوعز بالاتجاهات التى تسير فيها غالبا هذه الاتجاهات إن وجدت .

هل المسلسلات الإذاعية تدعو إلى المعرفة الذاتية والنقد الذاتى؟ إن تحليلنا يوحى بأنها تشعر المستمعة بأنها تعيش حياتها الخاصة فى بيتها ، وذلك عن طريق تقديم عالم إليها يشبه فى الظاهر عالمها ، وفى هذا العالم يتسبب الناس فى تعذيب أنفسهم وتعذيب الآخرين بارتكاب أخطاء مألوفة وبعرض النقائص الخلقية ، ومع أن هذا يقدم للمستمعة بالأحرى صورة غير براقة لذاتها فإنه لا يتوقع أن يقودها إلى معرفة ذاتها أونقد ذاتها ، والمماثلة بين المستمعة وما يقابلها من شخصية فى المسلسلة تتحول إلى تخيل نمط مثالى لامرأة تتعذب بلا ذنب جنته ، وهذه المستمعة تتشجع فتنظر إلى خيبة الأمل فى المسلسلة على أنها لا تصيب إلا الآخرين وتؤكد فى عقيدتها أن عذابها لم تتسبب هى ذاتها فيه وإنما تسبب فيه نقص الآخرين وشرهم .

ولا يبذل مؤلفو المسلسلات إلا جهداً تافهاً لتنبيه المستمعة إلى آرائها المبتسرة المتحيزة وإلى ثورات غضبها ، بل إن المسلسلات بالأحرى تعنى بتملقها ، وهى تظهر النساء على أنهن أفضل من الرجال ، وتتجاهل الطبقة العاملة وتستعيذ من التعليم .

وتدعم الفكرة الأنانية الفردية عن عالم يبدو فيه المجتمع بصفة رئيسية كخطر خارجى يهدد الفرد أوكضباع تعوى حول نار موقدة ولا وسيلة إزاءها إلا شريعة الغابة ، ولا تتضمن هذه المسلسلات إلا المشكلات الخاصة ، فتعرض الحوادث على أن المتسبب فيها ليس الناس الذين يبذلون نشاطهم فى أداء أعمالهم برغم كل العقبات ، بل بالأحرى دفاعهم اليائس عن حالة راهنة لا تبينها المسلسلات بوضوح ، وحتى الكفاح البدائى فى سبيل الحب والصحبة تطمسه حرب تتسم جوهريا بالسلبية ضد القوى التى تهدد العلاقات المستقرة ، وإذا يحتمل أن يعكس هذا كله الحقيقة الماثلة فى أن المستمعة تعجز إزاءه عن أن ترى قيما فى حياتها الخاصة ، فإنه بالتأكيد لا يشجعها على أن تكتشف هذه القيم أو أن تخلقها ، وعدم رضاها على منجزاتها الخاصة وعلى حالة العالم المحيط بها الذى يمكن أن يستخدم كدافع بحثها على الكفاح لتحقيق ما هو أفضل - ينحيه ويحل محله ما يحقق رضاها ، والمطابقة مع «المرأة المثلي» - وهو خيال لا يمكن أن يستخدم كنموذج تستطيع المستمعة أن تحاول الارتفاع بحياتها إلى مستواه - يمنحها قدرة لا تملكها ، ويؤكد لها أن العون الذى يجب أن تلتمسه من طاقاتها الخاصة إنما سوف يقدم إليها من الخارج ، وقد يعوق التوافق الملائم مع مشكلات الطور الحرج

من أطوار حياة بطلة القصة ما تتضمنه هذه القصة من عرض الأحلام وما تطويه من تحقيق الأماني على أنها حقيقة واقعة : فالمرأة في منتصف العمر تبدو شابة جذابة يتلهف على مغازلتها الرجال الذين تتمنى الفتيات الزواج منهم ، وتتحكم العدالة التامة - دون أية لمحة إلى الكيفية التي تحققت بها - في تقديم حل بلا مقابل لمشكلات الحياة الاجتماعية ، وبهذا الشكل فإن عالم النشوة العنيفة الذي تثيره المسلسلة الإذاعية اليومية قد يوهن الغاؤه من إحساس المستمعة بما هو أقل إثارة من فرص الحياة الواقعية ومن ممارستها للعاطفة والوفاء والعطف ، ومن استعدادها لإسداء الخدمة الأثيرة ومن أن تجد المتعة في مزاولة الأعمال المتواضعة وفي الجمال المتواضع .

خدمة التقدم

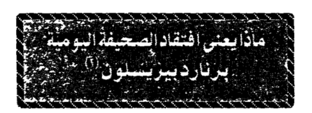
إن هذا التقصي يثبت أن المسلسلات الإذاعية تتحكم في عدة ملايين من النساء الأمريكيات لأنها ترضي في يسر حاجاتهن النفسية بتقديم شعارات مختارة طبقا للتحليل النفسي لأحلام الأماني ، وعلى الباحث الاجتماعي أن يدلنا على ما إذا كانت الظروف المتغيرة قد أدت إلى أن يعيش الأطفال والأزواج معظم الوقت خارج البيت إلى حد أنه لم يعد أمام الزوجة والأم ما يكفي من مجال للتعبير عن طاقاتها وعواطفها - وأنها لم تعد تشعر بأنهم يحتاجون إليها ويقدرونها ويحبونها . فهل تركت المرأة في الخلف وكأنها لا تعدو إلا قليلا كونها جهازا سلبيا لعملية الانتاج الآلية - مستهلكة محرومة من الأعمال الخلاقة التي تؤهلها لها مواهبها الطبيعية وكفاحها ، مهجورة في عزلتها أمام صندوق متكلم هو وحده منبع رضاها؟

إذا صح هذا فإن الاذاعة - وحدها - لا تقوى على أن تمهد السبيل لتغيير في الوضع الاجتماعي للنساء حبيسات ذلك النوع من الحياةالذي لا يرضي ، ولكن هذه البرامج كفيلة بأن تسهم بقدر في خلق موقف نفسي ملائم . فهي تستأثر غالبا بالتحكم في الحياة العقلية لعدد كبير جدا من النساء . ولذلك فهي - إلى حد ما - مسئولة عما إذا كانت القوى التي نشأت من حاجات هؤلاء النساء قد حولت إلى رضى يحل محلها أو أنها - بدلا من ذلك - قد وجهت نحو إدراك الحقيقة وتهذيبها .

إن مخرجي المسلسلات الإذاعية يزهون بالتأكيد على أنهم يقدمون إلى جمهورهم ما يرغب فى أن يحصل عليه . والمبدأ التجارى الذى يقضى بتقديم ما يرجح أن يقبل على شرائه أكبر عدد ممكن من العملاء يفسر بأنه تطبيق عملى للمبادىء الديموقراطية : الحكم الذاتى وحكم الشعب بواسطة الشعب ، ولكن يبدو واضحا أن مثل هذا الحكم يفرض مقدما القدرة على الحكم ففى ميدان الطب - مثلا - يصعب أن يجرؤ أى شخص على أن يؤكد أنه من المبادىء الديموقراطية ترويج الأدوية التى تنال أكبر إقبال من الشعب وترجيحها على الأدوية التى ثبت علميا أنها أصلح ، ان الديموقراطية أن نكافح للحصول على موافقة الشعب على برامج التقدم ، فإلى أى حد يمكن إتاحة مثل هذا الموقف من المسئولية الاجتماعية بينما المسلسلات الإذاعية يجرى إخراجها على أنها إدارة تجارية ، ذلك أمر لن نحاول أن نحسمه ، ولكن يبدو أن الوضع الناجم عن زمن الحرب يتيح فرصة للتقدم فى هذا الحقل ، ففى زمن الحرب يتطلب الجهد الخارق الذى على الشعب أن يبذله دعما ماديا ومعنويا من كل الأفراد ، ولذلك تتخذ الحكومة خطى نحو تنمية الإدراك والوئام والتعاون ، وقد قدمت - مثلا - حلقات من برامج الإذاعة بغرض حمل المواطن على إدراك أن ما يقوم المجتمع كله بعمله إنما يعمل من أجله هو - أى المواطن - ولا يمكن أن يعمل بدونه ، وهذا المبدأ يجب أن يسرى فى أوقات السلم أيضا ، فلايزال كثير من المواطنين ينظرون - بحكم العادة - إلى المجتمع على أنه كتلة من أفراد يعنى كل منهم بشأنه الخاص ويكره على سداد الضرائب المستحقة عليه ويفرض جدلا أن هناك طرقا نظيفة مضاءة طيبة يمر بها وجسورا يعبرها وحدائق عامة يتريض فيها ، وروح الفريق الواحد الأصيلة - كما تدعو الحاجة إليها لتحقيق المجهود الحربى - لا يمكن تحقيقها بالدعاية المقصورة على مايطلب من المواطن أن يفعله من أجل الحرب فحسب ، مثل هذه الدعوات يجب أن تعتمد على أساس من وعى المجتمع ، فإن لم يدرك المواطن إدراكا عميقا أنه فى زمن السلم أوالحرب تتوقف خير وسيلة للحياة على أن يؤدى واجبه كعضو فى مجموع لصالح الأهداف العامة ، فلا يمكن أن يتوقع منه أن يسهم مخلصا فى الدفاع عن وطنه .

هذا مايجب أن توضحه المسلسلات الإذاعية فإنها تصلح بصفة خاصة لإظهار الارتباط المتبادل بين المجتمع والفرد من وجهة نظر الوضع فى البيت ، وبالإضافة إلى وضع أساس للروح المعنوية فى زمن الحرب ، فإن هذا التنوير قد يثبت تماما نفعه فى المستقبل عندما تصبح ساحات المعارك وسندات الحرب ونوبات العمل الليلية فى مصانع الذخيرة من الأساطير كما كانت من قبل . وعندما تصبح مشكلات التنظيم السياسى والاقتصادى أكثر حدة عما كانت عليه من قبل .

(١١)



١- مقدمة

فى وقت متأخر من بعد ظهر السبت ٣٠ من يونيو ١٩٤٥ أضرب موزعو ثمان من الصحف الكبرى فى مدينة نيويورك ، وظلوا مضربين لمدة تزيد عن أسبوعين حرم أثناءها معظم أهالى نيويورك فعلا من قراءتهم للصحف اليومية بانتظام ، وكان فى استطاعتهم شراء صحيفة «المساء» وبعض الصحف الصغرى والصحف المتخصصة فى بعض الموضوعات فى محال بيع الصحف . كما تمكنوا من شراء نسخ من المكاتب الرئيسية لبعض الصحف ولكن الصحف المفضلة لدى معظم القراء لم يتح لهم الحصول عليها لمدة سبعة عشر يوما .

وقد عرضت هذه الظروف غير العادية فرصة طيبة لهيئات مختلف معنية بهذا الشأن – كالمعلنين وناشرى الصحف وكبار مديرى الإذاعة والعلماء الاجتماعيين – لتقيس مواقف الجمهور من الصحفية اليومية ، فأجريت على الأقل ثلاثة استفتاءات عامة مستقلة عن رأى القراء فى هذا الشأن خلال فترة الإضراب ، ونشر بعض ما كشف عنه استفتاءان إن لم يكن كل ما كشف عنه أحدهما بواسطة وكالة «المورويز» والآخر بواسطة شركة تقصى الحقائق Fact Finders Associates Inc. . وهذا المقال تقرير عن الاستفتاء الثالث الذى هو تقص كشفى أجرى باسم «مكتب البحث الاجتماعى التطبيقى بجامعة كولومبيا» .

وطبقا لما نشر من نتائج الكشف يتضح أن منظمتى «روبر» و«تقصى الحقائق» قد وجهتا جهودهما لتحديد ما فعله الناس لمداومة الحصول على الأخبار وما هى

---

(١) عن ب . ف لازار سفيلد Lazarsfeld وف . ن ستانتون Stanton «بحث الاتصالات بالرأى العام» ، ١٩٤٨ – ٤٩ (نيويورك هاربر وإخوته ، ١٩٤٩ ص ١١١ – ١٢٩) .

أبواب الصحيفة التى افتقدوها بصفة خاصة وإلى أى حد افتقدوا الصحف فى أثناء الإضراب ، ولا يمكن إجراء مقارنة على النتائج التى توصلتا إليها بالنسبة لأى موضوع معين ، ولكنهما سلكتا ثلاث سبل ، مستهدفين نفس المواقف العامة ونفس السلوك ، ولو أن تلك السبل اختلفت ، وكلتا المنظمتين حاولتا أن تتوصلا إلى طبيعة ما يحل محل الصحيفة اليومية وفى كلتا الحالتين أكد المستجيبون أنهم استمعوا إلى الأخبار من الإذاعة ، وكلتاهما حاولتا - بوسائل مختلفة تماما - أن تكتشفا أية أبواب فى الصحيفة افتقدها القراء بصفة خاصة . وفى كلتا الحالتين أكد أصحاب الأجوبة أنهم افتقدوا الأخبار (القومية والمحلية وأخبار الحرب) والإعلانات ، وأخيرا فإن كلتيهما حاولتا أن تحصلا على مدى افتقاد القراء للصحيفة فعلا ، وفى كلتا الحالتين دلل المستجيبون على أنهم افتقدوا الصحف بشدة .

ولا تمكن المقارنة بدقة بين النتائج لأن الأسئلة التى وجهتها الوكالتان اللتان قامتا بالتقصى اختلفت اختلافًا كبيرًا ، وأكثر من ذلك أن أيا من الاستفتاءين لا يستطيع أن يفسر ما تضمنه من بيان يشتمل جملة على «حقائق سطحية» لا تناسب إلا السؤال المحدد الموجه فى شأنها ، فالقول بأن القارئ «يفتقد الصحيفة اليومية» أو بابا من أبوابها يمكن أن يشمل ردود فعل نفسية مختلفة . ماذا يعنى «افتقاد الصحيفة اليومية ؟» لماذا يفتقدها الناس ؟ هل يفتقدون حقا الأبواب التى زعموا أنهم يفتقدونها وإلى الحد الذى زعموه ؟ لماذا يفتقدون بابا دون الآخر ؟ إن استفتاءى «روبر» و«تقصى الحقائق» . يوضحان القليل من مثل هذه المسائل أو لا يوضحانها إطلاقًا ، وهى ليست المشكلة الرئيسية ، أى مشكلة إدراك الوظيفة التى تؤديها الصحيفة اليومية العصرية لقرائها ولم يوفق أى من الاستفتاءين فى توضيح مسائل المواقف الأكثر تعقيدا التى تعمل فى تحديد الوضع العام .

ولكى نفند هذه المشكلة أجرينا هذه الدراسة . ففى نهاية الأسبوع الأول للإضراب تولى مكتب البحث الاجتماعى التطبيقى بجامعة كولومبيا نوعا يختلف اختلافا تاما عن دراسة ردود فعل الناس على افتقاد صحفهم . وبينما كان التقصيان اللذان أجرتهما منظمتا «روبر» و«تقصى الحقائق» ، متسعين شاملين فإن تقصى «المكتب» كان مركزا بشدة ومصمما للحصول على إدارك نفسى كفيل

بتحديد ما يعنيه تماما افتقاد الصحيفة لدى الناس ، ومن القواعد البديهية فى البحث الاجتماعى - طبعا - أن مثل هذه الدراسات يمكن أن يكون التأهب لاجرائها أيسر فى أثناء فترة أزمة مثل تلك الفترة التى وقع فيها إضراب الصحف . فالناس ليسوا فحسب أكثر إحساسا بما تعنيه الصحيفة بالنسبة لهم فى أثناء مثل تلك الفترة «الصادمة» منهم وهم تحت ظروف عادية ، ولكنهم يجدون أنفسهم فى تلك الفترة أقدر على تفصيل مثل هذه الأمور وإيضاحها .

وعلى ذلك وجه «المكتب» عددا صغيرا (٦٠) من الأسئلة المركزة بشدة وقد أتاحت «العينة» - التى رتبت طبقة فوق طبقة وفق المناطق المخصصة للسكان المستأجرين فى «مانهاتان» - توزيعا طيبا طبقا للحالة الاقتصادية ، ولو أن مستوى التعليم كان عاليا ، ولم تبذل أية محاولة للحصول على بيان إحصائى يعتمد عليه من واقع نوع الأسئلة التى تضمنها التقصى الذى أجرته منظمة «روبر» أو منظمة «تقصى الحقائق» ومع ذلك فإن قليلا من أسئلة مشابهة - كالسؤال عما افتقده القراء فى الصحف - أعطيت عنها نفس الأجوبة التى جمعت من تقصى «روبر» ، وبدلا من ذلك فإن استجوابات المكتب قد صممت بحيث تتيح ما يسمى بيانا نوعيا عن دور الصحيفة الذى تؤديه لقرائها باعتبار أن ذلك الدور أصبح واضحا فى ذلك الوقت ، ولم تقدم النتائج على أنها دليل علمى ، وإنما على الأرجح باعتبارها مجموعة فروض نافعة .

وبإيجاز فإن التقصيين على الموضوع يتيحان إذن «حقائق سطحية» معينة دون معرفة ماذا تعنيه تماما ، وهذه الدراسة تحاول أن توحى بما يعنيه حقا «افتقاد الصحيفة اليومية» ، ولنبدأ بأجوبة القراء المصحفة على الأسئلة الخاصة با فتقاد الصحيفة اليومية .

٢- دور الصحيفة اليومية

ماذا يقول الناس؟

هناك دائما خطرا ألا يتوافق الرد الشفوى مع السلوك الفعلى بسبب ميل الناس إلى إعطاء شعارات مقبولة ردا على أسئلة تقصّ معينة ، وقد تأكد هذا الخطر هنا ، إذ اتضح من المتابعة الشديدة لسؤال المستجيبين أن كلا منهم فعلا يعترف بقيمة الصحيفة اليومية كمصدر إعلام «هام» عن عالم الشئون العامة وتفسيره ، ولو أن كلا منهم لا يقرأ الصحيفة لهذا الغرض . وقد سئل المستجيبون فى أثناء الاستفتاء عما إذا كانوا يرون «أنه من الضرورى جدا أن يقرأ الناس الصحف اليومية أم لا» فأجاب كل منهم تقريبا بـ«نعم» قوية ، واستطردوا يحددون أن أهمية الصحيفة تكمن فى مظاهرها الإعلامية والتربوية ، وأشار معظم المستجيبين فى صدد هذا التحديد إلى تعريف الصحيفة كمصدر لأخبار الشئون العامة تعريفا ضيقا .

ومع ذلك فلا يقرأ كثير من الناس تقريبا الصحيفة لهذا الغرض الثابت ، كما أوضحت دراسات عديدة سابقة عن القراءة والإعلام ، وقد بدا فى هذه الدراسة أيضا بوضوح هذا التقدير العام الذى لا يدعمه السلوك الشخصى فعندما أعطى المستجيبون الفرصة لكى يقرروا – عفو الخاطر – لماذا افتقدوا صحفهم التى انتظموا فى قراءتها لم يشر – إلا عدد قليل جدًا – إلى خبر «هام» معين من أخبار أحداث تلك الفترة (كحرب الشرق الأقصى أو الانتخابات البريطانية) بينما أجاب عدد أكبر إجابات اقتصرت على شعار «لكى أتابع مجرى الأمور» أو الإشارة إلى أن إحدى خصائص الصحيفة (سماتها المحلية مثلا) . وقد سئل المستجيبون مباشرة – عند نقطة أخرى من التقصى – ما هى الأخبار أو الأحداث التى وقعت فى الأسبوع الماضى) (أى قبل الاضراب) وافتقدت بصفة خاصة متابعتها ؟ فعجز نحو نصف المستجيبين عن ذكر مثل ذلك الخبر أو الحادث ، بينما ذكر آخرون أخبارا غير هامة مثل خبر قضية قتل «ستيفينز» التى كانت تنظر إذ ذاك ، وأشار نحو ثلث المستجيبين إلى خبر حادث «هام» ومعظمهم ذكر حرب الشرق الأقصى ، وفضلا عن ذلك فقد سئل المستجيبون بعد ذلك السؤال مباشرة عن أى خبر من الأخبار الستة تضمنتها قائمة الأخبار التى احتلت الصفحات الأولى

للصحف فى الأسبوع السابق على التقصى قد افتقدتم «متابعته فى الصحيفة التى تقرأونها بانتظام؟» وهنا أيضا لم يقرر إلا عدد لا يكاد يتجاوز الثلث بقليل من المستجيبين أنهم افتقدوا قراءة الحادث الهام المتوسط فى هذه القائمة ، وهكذا فرغم أن كل المستجيبين تقريبا يطرون قيمة الصحيفة «كوسيلة للإعلام عن الأخبار الهامة» فإن من يبدو أنه يفتقدها لذلك الغرض لا يزيد على الثلث .

وبالإيجاز فإنه يلوح أن هناك فارقا هاما بين مزاعم المستجيبين العامة بشأن اهتمامهم بأغراض الصحيفة «الهامة» وبين رغباتهم الحقيقية «المعينة» وممارساتهم فى قراءة الصحيفة ، ويبدو أن شعور المستجيبين بأن الصحيفة «تطلعنى على ما يجرى فى العالم» إنما هو على الأرجح شعور فضفاض وغير متبلور ولا يرتبط غالبا بأخبار أحداث معينة ذات طبيعة «هامة» . ومرة أخرى لنأخذ - مثلا - الإجابة على سؤالنا «والآن وأنت لم تعد تقرأ صحيفتك المعتادة : هل تشعر بأنك تعرف ما يجرى فى العالم ؟ وقد أجاب ثلثا المستجيبين تماما بأنهم شعروا بأنهم لم يعرفوا ماذا كان يجرى . ومع ذلك - كما رأينا - فإن نحو نصف ذلك العدد فقط كان لديهم فكرة عما يجرى فى العالم مما يرغبون فى الحصول على مزيد من الإعلام عنه ، ويظهر أن الإجابة بافتقاد الصحيفة لقيمة أخبارها «الهامة» هى الإجابة المسلم بها إن لم تكن الإجابة التلقائية بلا تفكير .

ولكن هذا لا يعنى أن الصحف اليومية لم يفتقدها قراؤها افتقادا صادقًا فقد تضمنت الأجوبة إشارات تلقائية عديدة عن شدة افتقاد المستجيبين لصحفهم وكثير ممن افتقدوها إلى حد كبير فى بدء الإضراب شعروا بمزيد الحاجة إليها فى أثناء الأسبوع ، والسؤال هو : لماذا يفتقد الناس الصحيفة إلى هذا الحد من التلهف ؟ ومع ذلك فلنستعرض أولا الخدمات العديدة النمطية التى تؤديها الصحيفة اليومية إلى قرائها . وهذه هى الخطوة الثانية فى جهدنا لوضع مضمون لحصر الأجوبة على السؤال الخاص بما يعنيه حقا «افتقاد الصحيفة اليومية» .

٣- خدمات الصحيفة اليومية

إن الصحفية العصرية تلعب أدوارا عديدة فى حياة قرائها . ولقد حاولنا خلال تحليل استجواباتنا المركزة أن نضع قواعد رمزية نمطية «تايبولوجى» لمثل هذه

الأدوار أو الوظائف التى تؤديها الصحيفة ، ومن الواضح أن الأنماط التى عددناها هنا ولو أن كلا منها مميز وقائم بذاته إلا أنها لا يستأثر بها حتما أى قارئ لصحيفة يومية ، ومما لاشك فيه أن قراء مختلفين يقرأون أبوابا مختلفة من الصحيفة لأسباب مختلفة في أوقات مختلفة ، والمشكلة الرئيسية هى تحديد الظروف التى تؤدى الصحيفة تحتها تلك الوظائف كما شرحت هنا - وربما وظائف أخرى - لطرز مختلفة من الناس ، وبهذه المناسبة تبرز القيمة الخاصة للاستجوابات التفصيلية مع جماعة صغيرة من الناس فى تماثل الفروض التى يمكن إذ ذاك أن تختبر بطريقة أو بأخرى طبقًا لوسائل أقل شدة ، وبعبارة أخرى فإن مثل هذه اللقاءات فى الاستجواب «النوعى» توحى بالأسئلة الملائمة التى يمكن إذ ذاك أن توجه فى إسهاب أقل بغرض التثبت «الكمى» .

وفى هذا القسم سوف نذكر بإيجاز الخدمات العديدة المباشرة التى تؤديها الصحيفة ، والتى استخرجناها من الاستجوابات والجمل المصورة للمعنى التى استخدمناها مطابقة لتلك التى استخدمت فى أثناء التقصى . وبعض هذه الخدمات تطابق أغراض الصحيفة المسلم بها ، والبعض الآخر لا يحقق هذا التطابق .

للإعلام عن الشئون العامة وتفسيرها:

هناك طائفة من القراء ترى الصحيفة اليومية ضرورة لا غنى عنها كمصدر للإعلام عن العالم الهام للشئون العامة ، وتفسير ما يجرى فى هذا العالم ، ومن المهم أن نؤكد - بهذه المناسبة - أن هذه المنفعة لا تقتصر على تغذية القارىء بإعلام كامل عن أخبار الأحداث فحسب ، فإن كثيرا من الناس معنيون أيضا بالتعليقات على الأحداث الجارية التى يستقونها من الافتتاحيات والمقالات المركزة فى عمود واحد من أعمدة الصحيفة الى يتخذونها كمحك لآرائهم الخاصة ، مثل ذلك :

«ليست لدى تفصيلات الآن وإنما لدى النتيجة فحسب ، فإننى أشعر تقريبا كما لو كنت أقرأ عناوين الصحيفة دون متابعة ما تضمنته الأخبار ، إننى أفتقد تفصيل الأحداث وشرحها اللذين يقودان إلى الأخبار ، إننى أود أن أحصل على الخبر خلف تلك العناوين وتطور وقائعه بما يقود إلى استيعاب أكثر . . . أحب أن أحلل لنفسى لماذا تحدث الأشياء وبعد الاطلاع على آراء الكتاب فيها من مختلف الصحف التى يصور كل منهم فيها الخبر بطريقة مختلفة تتسع نظرتى وتزيد التفاصيل فيها عندما أكون رأيى الخاص» .

كأداة لمزاولة الحياة اليومية:

وقد افتقد بعض الناس الصحيفة اليومية لأنهم كانوا يستخدمونها كعون مباشر فى حياة كل يوم . وقد سئل المستجوبون «منذ عجزتم عن الحصول على صحيفتكم التى كنتم تطالعونها بانتظام ، هل تبينتم بعض أمور لا تستطيعون مزاولتها بدون الصحيفة كما كنتم تزاولونها من قبل ؟» فأوضح نصفهم تماما أنهم شعروا بالعجز بشكل ما ، وكثير من الناس تبينوا أنه من العسير إن لم يكن من المستحيل متابعة برامج الإذاعة بدون البيان الذى تنشره الصحف عن هذه البرامج ، وآخرون ممن ذهبوا إلى إحدى دور السينما لم يتكلفوا عناء التحدث تليفونيا أو التجول لمعرفة الأخبار ، وقليل من رجال الأعمال افتقدوا التعليقات التجارية مثل أخبار وصول المشترين ، وآخرون كانوا معنيين بالإعلام عن الشئون المالية والبورصة ، وكثيرات من النساء اللاتى يهتممن بالمشتريات من المحال التجارية شعرن بالعجز الناشىء من افتقاد الإعلانات ، وقليل من الأهل الأقربين للجنود العائدين كانوا يخشون أن يفتقدوا التفصيلات الخاصة بأنباء رسو السفن ، وامرأتان اعتادتا متابعة أخبار الوفيات بانتظام خشيتا احتمال وفاة معارفهما دون أن تعلما .

وأخيرا كانت هناك إشارات مبعثرة إلى وصفات وملاحظات على آخر تطورات الأزياء وحتى إلى البيان اليومى الخاص بالأرصاد الجوية ، وباختصار فإن هناك عدة أوجه لاستخدام الناس للصحيفة كأداة يومية أو كمرشد وأنهم افتقدوها بهذه الصفة .

للراحة من عناء العمل:

إن للقراءة قيمة ترفيهية كلما أتاحت راحة من الهموم الشخصية بنقل القارىء خارج عالمه المباشر المحيط به . وما من شك فى أن كثيرا من أخبار الصحيفة التى يحقق القراء بسهولة التماثل بين وقائعها وبين أنفسهم تتيح هذا «الهروب» بطريقة ترضى عدداً كبيرًا من الناس . والبند أ فى هذا الصدد هى الفكاهات التى يقرر القراء أنهم يحبونها لقيمة ما تتضمنه من روح قصصية ومن تعليق للأنفاس . وفوق ذلك - كيفما كان - فإن الصحيفة تستطيع أن ترفه عن القراء بطرق أخرى ، وذلك بأن توفر لهم راحة نفسية ملائمة ، والصحيفة اليومية كفيلة بصفة خاصة بسد هذه الحاجة إلى التفريج عن ضيق وكآبة حياة كل يوم لا بسبب ما يشمله

مضمون «اهتمامها بالشئون الإنسانية» من تنوع ووفرة أو بسبب إمكان الحصول عليها بثمن زهيد فحسب ، إذ أن الصحيفة اليومية - بالإضافة إلى ذلك - أداة صالحة لتحقيق ذلك الغرض لأنها تسد تلك الحاجة دون أن تكبد ضمير القارىء ثمنا باهظا فإن قيمة مكانة الصحيفة كجهاز لـ «تنوير المواطن» تتحمل هذا العبء وتدعم هذه الخدمة التى تؤديها الصحف اليومية كما تدعم خدماتها الأخرى . منها على سبيل المثال :

«أثناء القراءة ينصرف ذهنك إلى أمور أخرى» .

لم يدع الإضراب عن العمل لى شيئًا أعمله فى فترات الراحة سوى شغل الإبرة «الكروشيه» التى لا تصرف ذهنى عما يشغله كما تصرفه القراءة .

لم أدر ماذا أفعل بنفسى . لقد أكتأبت . لم يكن هناك ما أقرأه وأقضى به الوقت . ولما حصلت على صحيفة يوم الأربعاء شعرت بتحسن كبير .

لتحقيق مكانة اجتماعية مرموقة

ويبدو أن هناك فريقا آخر من القراء يستخدمون الصحيفة اليومية لتمكينهم من أن يظهروا فى الندوات الاجتماعية بمظهر المطلع ، وبذلك تكون للصحيفة اليومية قيمة فى توفير مادة للحوار ، فالقراء لا يقتصرون على معرفة ما حدث ، وعندئذ ينقلونه إلى المتصلين بهم فحسب ، وإنما يستطيعون أن يجدوا فى الصحيفة آراء وتفسيرات يستخدمونها فى المناقشات عن الشئون العامة ، ومن الواضح أن فائدة الصحيفة اليومية فى هذا الصدد تعين على رفع مكانة القارىء بين زملائه . ولا يعزى ذلك إلى أن مضمون الصحيفة اليومية طيب فى ذاته ولكن - على الأرجح - لأنه طيب لتحقيق أمر ما وأن هذا الأمر هو إقامة واجهة مهيبة أمام المتصلين بالقارىء فقد جاء فى بعض الأجوبة :

- «عليك أن تقرأ لكى تحتفظ بمستوى الحوار مع الآخرين . فمما يثير الارتباك ألا تكون مطلعا على الأخبار عندما تكون فى جماعة تناقش تلك الأخبار .

ولا يعود السبب فى معرفة ما يحدث إلى القلق ، وإنما يعود إلى أننى أحب أن أعرف ما يجرى فى البلد بحيث إذا وجه الناس إليك أسئلة لا تحس بأنك أبكم وغبى .

مما يغيظنى ، بل مما يجعلنى أستشيط غيظا ألا أعرف ما يجرى حولى فى حين أن كل أصدقائى الذين يحصلون على الصحف يعرفونه» .

لتنمية الصلات الاجتماعية:

إن أخبار الصحيفة اليومية التى تعنى بالجانب الإنسانى والعمود الخاص بالنصائح الشخصية وأبواب القيل والقال وما شابه ذلك من الأبواب تتيح لبعض القراء ما هو أكثر من التفريج عن همومهم الخاصة وملل حياتهم الرتيبة ، إذ أنها ترشدهم إلى قواعد الأخلاق السائدة فى المجتمع وإلى إدراك الحياة الخاصة لشخصيات هذا المجتمع ، كما تتيح لهم فرصة تخيل الإسهام بالحلول محل تلك الشخصيات فى حياتها والاتصال الشخصى «غير المباشر» بعلية القوم .

ومما يفسر دور الخبر الصحفى الذى يعنى بالجانب الإنسانى أنه يضع أساسا لخبرة عامة يمكن للقراء الريفيين أن يحددوا به تقديراتهم الخلقية وسلوكهم (الأثر الخلقى) ، والاحتياج إلى مثل هذه الأخبار يتلخص فى سهولة فهم القارىء لها على ضوء خبرته الخاصة ، وأنها شائقة . ويتضح من تعليقات قليل من المستجيبين أن الأخبار التى تهتم بالجانب الإنسانى وأبواب القيل والقال تحقق بعض هذا الغرض ، والواقع أن قلة من المستجيبين أوضحوا أنهم افتقدوا الصحف - كما جاء فى تعبيرهم - لأن بعض أصدقائهم كانوا يلتقون بهم على أنهرها ، وقلة من النساء اللاتى يقرأن أبواب القيل والقال ، وصفحات أخبار المجتمع بدا أنهن مهتمات اهتماما شديدا خاصا بالشخصيات الاجتماعية التى تعنى صحيفتهن المفضلة بنشر أخبارها وأنهن ينظرن إلى تلك الشخصيات على ضوء التجانس والتوافق . فقد جاء فى بعض الأجوبة :

- لقد افتقدتها (الأبواب المفضلة) بسبب ما تقدمه من الإعلام والأخبار والأحاديث مع مختلف الناس ، وتفاعل هذه الأبواب مع حياة الناس ، إنه لأمر هام أن ندرك انفعالات الناس . فإذا اطلعت على الصورة الخلفية لحياة الناس فإنك تصبح أقدر على تحليلهم .

- إننى أحب صحفية «ديلى نيوز» إنها تسمى «صحيفة الفضائح» ولكننى أحبها ، لقد كانت أول صحيفة اشتريتها عندما جئت إلى نيويورك . وإذا كنت تعيش فى مدينة صغيرة وتطالع الصحف ، فإنك تعرف كل شخص تذكره الصحف وصحيفة «نيوز» هى أقرب الصحف إلى تلك التى تصدر فى المدن الصغيرة . فصورها شائق وهى تعوضٍ عن الحاجة إلى معرفة الناس . . إنك تعتاد على أشخاص معينين فيصبحون جزءاً من أسرتك . .

٤ - الرغبة فى القراءة:

إن العرض الموجز لبعض الخدمات النمطية التى تؤديها الصحيفة العصرية لقرائها يساعد على تقديم الفقرات الآتية التى سنحاول فيها أن ننتقى أسبابا نفسية أخرى (لا شعورية) للاهتمام الحقيقى بقراءة الصحف ، وهنا - مرة أخرى - سنستخدم مادة مستخلصة من استجواباتنا المركزة كصور معبرة عن تلك الأسباب .

هناك بعض الدليل فى استجواباتنا يوضح أن القراءة وحدها - بصرف النظر عن المضمون - عمل يدفع إليه بقوة ومتعة باعث ما فى المجتمع الريفى ، والشيء الرئيسى الذى يحل عادة محل قراءة الصحيفة اليومية بعد انقضاء الوقت المتاح لقراءتها هو شكل آخر من القراءة . ليس له طابع إخبارى ، ويبدو فى أغلب الأحيان أن مضمون هذا الشيء الذى يحل محل الصحيفة قليل الأهمية لدى المستجيبين ما دام أنه «على الأقل كان شيئًا ما أقتل الوقت بقراءته» . فمما جاء فى تلك الأجوبة :

- قرأت بعض مجلات قديمة كانت عندى .
- قرأت أى شىء وصل إلى يدى - كتبا ومجلات .
- أنهيت قراءة كل المجلات القديمة التى وجدتها فى البيت .
- قرأت كل ما كان ملقى حولى وغيره مما لم تتح لى فرصة قراءته من قبل .
- لقد عدت إلى المجلات الأقدم عهدا وقرأت بعض أبواب لم أكن أقرأها عادة .

ويلوح من هذه الأقوال المنقولة عن المستجيبين أن القراءة ذاتها - بصرف النظر عما يقرأ - تضفى على أولئك المستجيبين شعورا مجزيا مرضيا . والواقع - طبعا - أن القراءة تحمل عنصرا من عناصر المكانة المرموقة فى الحياة الأمريكية التى لم يجهز عليها تماما نشاط «الدعاية» . وفضلا عن ذلك فإن المكافآت الهامة التى تمنح للأطفال ، سواء من الأب أو المعلم إنما تقدم بمناسبة النجاح فى القراءة . وهكذا أصبحت القراءة مقترنة بالملابسات السارة جدا ، ولا يقتصر أهل هذا البلد على مساعدة المكتبات فى تنمية ممارسة القراءة فحسب ، بل أنهم يعنون بإكرام الرجل «واسع الاطلاع» إكراما عظيما فحسب ، والواقع أن القراءة وثيقة الصلة

ببعض الشعارات المتداولة مثل «التربية» و«الأدب الجيد»» و«الرجل الكامل» و«العقلية» ، وهكذا تكتسب هالتها الخاصة من الاحترام والتقدير ، وبسبب هذه الهالة فإن من الأفضل - فى حالات كثيرة - أن تقرأ شيئًا ، أى شىء ، على ألا تفعل شيئًا . فقد أخبرنا - مثلا - أحد العاملين القدامى فى إدارة ، للمبيعات :

- إن الحياة تصبح أكثر مللا بدون الصحيفة اليومية . فلم أعد أدر ماذا أفعل بنفسى إذا لم يكن هناك ما أفعله لأقضى الوقت . ما من شىء يجدى وما من شىء تقضى الوقت به» .

وقد يخطر للواحد منا - بالإضافة للرغبة الواضحة التى يبديها مثل هؤلاء الناس فى ألا يتركوا فى عزلة مع أفكارهم - وهذا وحده ما تمنحه القراءة من تعويض مجز سوف نعود إليه - فإن الخلق المتزمت يزاول عمله فى مثل هذه الحالات ، بمعنى أن مثل هؤلاء الناس قد يشعرون أنه مما يتعارض مع الخلق السليم أن «يضيعوا» الوقت ، وإن هذا الضياع لا يحدث إذا قرأ الواحد منهم شيئًا لما للقراءة من قيمة . ولشرح ما يدعو الناس إلى افتقاد الصحيفة اليومية - باختصار - يجب أن نبدأ بملاحظة أن القراءة ذاتها تتيح ارتياحا أساسيًا معينا دون نظر أولى إلى مضمون ما يقرأ .

٥ - خدمة أخرى للصحيفة اليومية

وفى سياق البحث يتبادر هذا السؤال : ما هو شأن الصحيفة اليومية ؟ إن هذه الصحيفة هى أقرب مصادر القراءة الرئيسية تناولا ، وهى أيضا رخيصة الثمن ، ومحتوياتها يمكن تعاطيها فى أقراص (بخلاف الوحدات القرائية فى المجلات والكتب) . والصحيفة اليومية - ككل - أقرب وأيسر مصدر للترضية المجزية المنبثقة من القراءة ذاتها . وبالإضافة إلى ذلك فهناك بعض أسس عامة أخرى لشدة افتقاد الناس للصحيفة اليومية .

ومما يعتبر من نوع الخطر الذى يشعر به المستجيب والذى تفاقم بفقد الصحيفة اليومية ما أشار إليه قراء عديدون من «عدم معرفة ما يجرى» و«الشعور بالضياع التام» .

«إننى كسمكة أخرجت من الماء . . . لقد ضعت وأصبحت ثائر الأعصاب ، وإننى لأخجل من أن أقر بذلك .

- إننى أشعر بضياع مخيف . إننى أحب شعور الاتصال بالعالم بوجه عام .

- لست أدرى ماذا يجرى فى البيت المجاور لى وهذا يؤلمنى . إن افتقاد الصحيفة أشبه بوضع الإنسان فى سجن .

- إنك تشعر بأنك طردت وعزلت عن بقية العالم .

- إننا فى ضياع بدون صحيفتنا ، وهذا يعنى العزلة فعلا . .

والصحيفة اليومية - بشكل ما - بدت بوضوح وكأنها حارس يحمى المستجيبين ويمنحهم الثقة التى يقاومون بها الشعور بالخطر والانحراف المنتشر فى المجتمع العصرى ، وهذه الحاجة إلى الصحيفة اليومية قد دعمتها الإشارات إلى الطابع الطقسى أو التقليدى الذى يكاد يكون جبريا وإلزاميا الذى تقرأ به الصحيفة اليومية . فكثير من الناس يقرأون صحفهم فى وقت معين من اليوم كوجه ثانوى من أوجه النشاط ، فى حين يكونون منهمكين فى أداء شىء آخر كالأكل أو الانتقال إلى محل العمل . . الخ فحرمانهم مما يملأ وقتهم جعلهم يلاحظون الفراغ ويحسون بأثره بصفة خاصة . وقد أشار نصف المستجيبين على الأقل إلى طبيعة العادة الخاصة بقراءة الصحيفة اليومية : إنها عادة . . . إذا اعتدت على شىء فإنك تفتقده . . لقد اعتدت قراءتها فى أوقات معينة . . . اعتدت ذلك طيلة أعوام عديدة . . لا تستطيع أن تفهم كيف يمكن ألا تجدها بعد لأنك تفرض جدلا أنها موجودة . . إن العادة فى غاية القوة . مجرد عادة ، ومن العسير أن تغيرها» وبعض المستجيبين استخدموا عبارات أشد عنفا :

- شىء ما افتقده فى حياتى .

- إننى أتعذب عذابا شديدا : لم أستطع النوم . لقد افتقدته أيضا .

- إن للصحيفة مكانا فى حياة أى إنسان ، سواء كان مشغولا أم لا .

- جلست فى قطار النفق شارداً ، وقد غمرنى شعور بأننى فى غير المكان الملائم» . وقوة هذا الشعور الذى يكاد يكون جبريا وإلزاميا الخاص بقراءة الصحيفة اليومية قد عبر عنه بطرق أخرى فصحف مثل «نيوز» و«تايمز» باعت آلافا من النسخ يوميا - فى أثناء الإضراب - من نافذة مكاتبها الرئيسية ، وقد تنقل أحد المستجيبين «من حانوت لبيع الصحف إلى آخر حتى انتهيت إلى أنه من العبث محاولة الحصول على صحيفة» ، وآخر مر على مجموعات من الأبنية

«بلوك»[1] بحثا عن صحيفته كل ليلة طيلة الأسبوع الأول من الإضراب بأمل الحصول على نسخة ، وأحد الشبان أعاد قراءة صحف قديمة قراءة أكثر استيعابا باعتبارها «ملاذًا يلجأ إليه» ومع ذلك فهناك مستجيبون آخرون اعترفوا بقراءة الصحيفة بانتظام ، ولو أنهم يعتقدون أنهم يستطيعون قضاء وقتهم فيما هو أنفع :

- أن الصحف تصرف القارىء عن الأدب الجيد .

لقد اعتدت أن أقضى وقت فراغى فى قراءة الصحف ، وامتنعت عن قراءة الكتب وعن دراسة اللغات أو عن شىء مما هو أنفع لى . . . إن معظم الصحيفة مجرد سقط متاع ما عدا الإعلانات المبوبة بوجه الاحتمال . وإننى بدأت أضيع وقتى فى قراءتها الآن أيضا بحيث لا داعى لذلك . . إنها مجرد عادة» .

وفى هذا الصدد تتضح أحيانا الحكمة القائلة إن العلم قوة ، فقد قرر قارىء أنه شعر بالضيق «لأننى لا أدرى ماذا افتقد - وعندما لا أدرى ينتابنى القلق» وقلة من القراء الآخرين بدا أنهم يرون أن تزويدهم بإعلام عما يجرى فى العالم يتصل شيئًا ما بتوجيه هذا العالم ، فسكرتيرة خاصة مثلا وإن تبينت أنها «مجرد سن فى ترس العجلة» ، إلا أنها لاحظت فى حزن أنها فصلت عن العجلة . ولكن «الأمور تجرى ، سواء علمنا بها أو لم نعلم» ومن المفروض أن الاتصال المنتظم بالعالم عن طريق أنهر الصحيفة اليومية يعطى تلك الفتاة الشعور بأنها كانت تسهم فى توجيه العالم ولكن عندما انقطعت الصحيفة تبينت أن مشاركتها المتواضعة لم تفتقد .

إن هذا النوع من التحليل يلقى ضوءاً جديدًا على الواقع الماثل فى أن عدد من اشتد افتقاده للصحيفة فى نهاية أسبوع الإضراب ضعف عدد من فتر افتقاده لها . فالحرمان من المناخ اليومى الخاص بقراءة الصحيفة بالنسبة لمثل أولئك القراء إنما اشتد الشعور به كلما مرت أيام الأسبوع . فقد ضاع شىء ما كان يملأ مكانا فى حياتهم ، وتعسر عليهم أن يتلاءموا مع الوضع الجديد للأمور ، وافتقدوا الصحيفة اليومية بنفس الإحساس الذى كان يمكن أن يتحكم فيهم لو أنهم افتقدوا أية أداة أخرى كانوا قد أقاموا حولها نظام حياتهم اليومى المتواتر .

ولم يحر جوابًا إلا قلة من المستجيبين على سؤالنا . أهناك أية أسباب تدعو إلى شعورك بالفرج من عدم الحصول على الصحيفة اليومية ؟ ولكن حتى هذه القلة كشفت عن الطبيعة التى تكاد تكون جبرية إلزامية لقراءة الصحيفة ، وفى بعض الحالات بدا أن الجاذبية المثيرة - للمضمون غير الشرعى هى التى تكون العامل الملزم . مثال ذلك حالة الزوجة متوسطة العمر التى قررت .

---

(١) أى نصف ميل «المترجم» .

«لقد فرج عنى ألا أرهق أعصابى بأخبار القتل والاغتصاب والطلاق والحرب . . أظن أننى تخلصت من أثر الصحف اليومية ، وأن ذلك أفضل لى . إن الصحف وأخبارها كفيلة بإفساد حياتى طول اليوم بعد الاطلاع على ما بها من قصة بشعة تلو أخرى . إن أعصابى تأمل فى أن تهدأ بدون الصحيفة» .

إن الدقة النمطية للطابع الإلزامى واضح فى حالة شاب متوسط العمر تجاوز ما اعتاد على قراءته ، فطالع تعليقات سياسية كان يعارضها بشدة .

«إننى أكره سياسة صحيفة «ميرور» (الصحيفة الوحيدة التى يقرأها) . كاتب الافتتاحية وكاتب المقالة المركزة فى عمود . . . إن من المتعة ألا أقرأ لهما . . لم تتح لى الفرصة لكى أعارض ما يكتبه» وينشل[1] .

وفى حالات أخرى كان الالتزام بالقراءة أشبه بتكفير عن الشعور بالذنب لعدم الاشتراك فى الحرب . . ففى تعليقات امرأتين من المستجيبات ما يوحى بأنهما حملتا نفسيهما على قراءة أخبار الحرب كأدنى ما يمكن أن تفعلاه فى شن تلك الحرب أو كأضعف الإيمان .

«تحت وطأة ضغط ظروف وقت الحرب وشدتها بدأت صحتى فى التدهور ، وكنت أرتاح كلما استطعت أن استجم قليلا .

كنت أتابع كثيرا أخبار الحرب إلى حد الكفاية» .

وشعرت زوجة شابة بأن واجبها كان يقتضيها أن تتابع تطورات الحرب «من أجل ما يبذله أبناؤنا فيها - من أجل الروح المعنوية التى نخوضها بها» . وقد استراح مثل هؤلاء المستجيبين عند إضراب الصحف . لأن هذا الإضراب أتاح لهم مبررا خلقيا مقبولا لعدم قراءة الصحيفة اليومية التى كانوا يشعرون بأنهم مجبرون عليها ملزمون بها . أى أنه عندما خرج زمام الأمر من أيديهم شعروا بالفرج .

٦- موجز وخاتمة

لقد حاولنا فى هذا المقال أن نَنْتَقِى و«نعمق» الأجوبة على أسئلة التقصى مطبقة على مجموعة مختلفة من التصرفات والإحساسات ، كما حاولنا أن نتجاوز المزاعم العامة الخاصة بأن الصحيفة اليومية لاغنى عنها ونستخلص بعض

(١) أحد كبار كتاب مقالات الأعمدة بالولايات المتحدة . (المترجم) .

العوامل الرئيسية المجزية للقارىء التى تتيحها الصحيفة اليومية ، وفى أثناء قيامنا بهذا العمل لاحظنا خدمات نمطية معينة للصحيفة اليومية العصرية - سواء «عقلية» (كتغذية القارىء بالأخبار والإعلام) وغير «عقلية» (كتغذية القارىء بالصلات الاجتماعية وبطريقة غير مباشرة بالمكانة الاجتماعية المرموقة) ، ومع كل فبالإضافة إلى ذلك افترضنا أن للقراءة قيمة منفردة بذاتها فى مجتمعنا وهى قيمة تسهم فيها الصحيفة اليومية باعتبارها أوفق مورد للمواد القراءية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الصحيفة اليومية قد يفتقدها الناس لأنها تستخدم كمصدر (غير عقلى) للأمن فى عالم مضطرب وأخيرا لأن قراءة الصحيفة اليومية أصبحت عملا «تشريفيا» أو طقسيا أو يكاد يكون إجباريا إلزاميا بالنسبة لكثير من الناس ، وبهذا الشكل حاولنا بالتدريج أن نحدد بوسائل نفسية واجتماعية - ما يعنيه حقا افتقاد الصحيفة اليومية .

(١٢)

التلفزيون والانتخابات

انجس كمبل وجير الدجورين ووارين ميلر[1]

كانت حملة الانتخابات الرئاسية فى عام ١٩٥٢ هى أول الانتخابات التى لعب التليفزيون فيها دورا هاما – فإلى أى حد أثرت هذه الوسيلة الجديدة فى الانتخابات؟ ما من أحد يدرى تماما لأنه لم تجر دراسات خاصة لقياس وطأة الأثر الذى أحدثه التليفزيون على تفكير هيئة الناخبين ، ولكننا نعرف شيئا عن مقارنة التليفزيون بغيره من وسائل الإعلام فى نقل الحملة الانتخابية إلى الجمهور ، وعن جماعات المواطنين التى كانت أكثر تعرضا للحملة التليفزيونية وتأثرا بها .

وقد قامت «شركة كارنيجى» بتمويل مركز البحث الاستقصائى . بجامعة متشيجان لإجراء تحليل مركز عن العوامل المؤثرة فى قرار المواطنين بشأن التصويت كجزء من دراسة استغرقت عامين عن السلوك السياسى ، وفى أثناء ذلك قمنا بتوجيه بضعة أسئلة إلى «عينة» من أهل الولايات المتحدة عن الوسيلة الإعلامية (الصحف والإذاعة والتليفزيون والمجلات) التى نبهتهم إلى الحملة ورجوناهم أن يخبرونا عن الوسيلة التى تعد أهم الوسائل فى نظرهم ، وقد اختيرت «عينتنا» – التى ضمت ١٧١٤ مواطنا من الناخبين – بطريقة لا تدع إلا احتمالا واحدا من كل عشرين حالة فى أنها تخطىء فى التعبير عن البلد بوجه عام خطأ يتجاوز أربعة فى المائة . أما تعبير هذه «العينة» عن مناطق خاصة من البلد أو عن طبقات خاصة من السكان فإنه قد يوسع دائرة هذا الخطأ إلى حد ما .

وأول حقيقة جديرة بالملاحظة هى أن الجمهور عنى بمشاهدة الحملة على شاشة التليفزيون . فالبيوت فى الولايات المتحدة التى بها أجهزة تليفزيون تبلغ نسبتها حوالى ٤٠ فى المائة فقط . ولكن نحو ٥٣ فى المائة من المواطنين شاهدوا برامج التلفزيون عن الحملة ، وهو نوع من انعكاس ما يسمى «الزيارة

---

(١) عن مجلة ساينتيفيك أميركان Scientific American ، ١٩٥٣ – ص ٤٦ – ٤٨ .

لمشاهدة التليفزيون» . ومن جهة أخرى فإن أخبار الحملة وموادها التى نشرت فى الصحف اليومية والمجلات والتى أذاعتها الإذاعة لم تصل إلى كل الجماهير التى اعتادت متابعة تلك الوسائل الإعلامية ، إذ أن أكثر من ٨٠ فى المائة من المواطنين يشترون الصحف اليومية ولديهم أجهزة إذاعة . كما أن أكثر من ٦٠ فى المائة يقرأون المجلات بانتظام ، ولكن فى كل حالة كان العدد الذى تابع الحملة بواسطة هذه الوسائل أقل من مجموع جمهور الوسيلة الإعلامية .

جدول رقم ١

	الشمال الشرقى	الغرب الأوسط	الجنوب	الغرب لأقصى	الإجمالى
التليفزيون	٧١	٥٧	٣١	٥٧	٥٣
الإذاعة	٦٠	٧٢	٧٤	٧٢	٦٩
الصحف اليومية	٨٠	٨٧	٦٦	٨٣	٧٩
المجلات	٣٥	٤٣	٣٦	٥٢	٤٠

أما النسبة المئوية للجمهور فى مختلف جهات الولايات المتحدة الذين اهتموا بالحملة عن طريق كل وسيلة من وسائل الإعلام فيوضحها البيان التالى :

جدول رقم ٢

	الشمال الشرقى	الغرب الأوسط	الجنوب	الغرب لأقصى	الإجمالى
التليفزيون	٤٨	٣٣	١٣	٣٣	٣١
الإذاعة	١٣	٢٧	٣٩	٢٨	٢٧
الصحف اليومية	٢١	٢٤	٢١	٢٢	٢٢
المجلات	٤	٦	٥	٥	٥
أكثر من وسيلة واحدة	٩	٧	١	٨	٩
بدون أية واحدة من الوسائل الأربع	٥	٣	١٢	٤	٦

ومصدر معظم الإعلام عن الحملة قد توضح أيضا بالنسبة المئوية . وفى البيان التالى تبدو الفروق بين مختلف الوسائل الإعلامية أكثر إثارة للدهشة بمراحل :

جدول رقم ٣

	التليفزيون	الإذاعة	الصحف اليومية	المجلات
صوتوا لأيزنهاور	٤٣	٤٠	٤٤	٥٤
صوتوا لستيفنس	٣٨	٢٥	٣٣	٢٢
لم يصوتوا	١٩	٣٥	٢٣	٢٤

وكان من العسير تقدير أثر الوسيلة الإعلامية ، والنسب المئوية توضح سلوك كل جماعة قدرت إحدى الوسائل بأنها أهم مصادرها .

وهناك نقط عديدة تثير الاهتمام فى الصورة الجغرافية التى يتيحها هذا الجدول . فضآلة أثر الإذاعة – نسبيًا – فى الشمال الشرقى تدل على أن التليفزيون يزيح الإذاعة ، ويحل محلها فى هذه المنطقة ، وفى الجنوب تتصدر الإذاعة سائر الوسائل الأخرى ، لأن هذه المنطقة التى يغلب عليها الطابع الزراعى ليس بها إلا القليل من أجهزة التليفزيون ونسبة أقل من قراء الصحف اليومية إذا قورنت بمناطق أخرى من البلد .

وعندما سئل الناس عن أية وسيلة أعطتهم أكبر قدر من الإعلام عن الحملة بدا أن أثر التليفزون أصبح مذهلا . ففى الأمة كمجموع ولو أن التليفزيون متيسر لقلة من الناس فحسب إلا أنه تصدر باقى الوسائل فى عدد الأشخاص الذين قدروه كأهم مصادر الإعلام . وبين من شاهدوا فعلا برنامج الحملة على شاشة التليفزيون (وكلهم تقريبا أتيحت لهم باقى الوسائل) قرر ٥٩ فى المائة أنهم يعدون التليفزيون أهم مصادر لديهم من مصادر الإعلام . وبالعكس بين أولئك الذين تابعوا الحملة فى الصحف اليومية – وهم يمثلون ٧٩ فى المائة من المواطنين – لم يقرر إلا ٢٨فى المائة فقط أنهم يعدون الصحف اليومية كالوسيلة التى حصلوا

بواسطتها على معظم إعلامهم ، ومرة أخرى لوحظت هنا فروق خاصة بالمناطق المختلفة . فالشمال الشرقى كان أكثر اعتماده على التليفزيون والجنوب على الإذاعة والغرب الأوسط والغرب كانا متماثلين غالبا فى الطابع مع تصدر التليفزيون .

أى قطاعات من المواطنين راق لها التليفزيون أكثر منها ؟ أن الجدول التالى يلخص هذا الوضع الذى يحول الاجابات إلى طوائف مختلفة من المواطنين ، ونبدأ بأن نقرر بأن القدرة على شراء جهاز تليفزيون - بداهة - عامل اختيارى هام . ونسبة الناس الذين تابعوا الحملة على شاشة التليفزيون كانت أقل بكثير من الجماعة ذات الإيراد الضئيل (أقل من ٣٠٠٠ دولار) عما هى عليه فى الجماعات الأزيد إيرادا (وإنما نعلم أن تملك الأجهزة يتزايد طبقا لزيادة الإيراد) وبوجه عام فإن جاذبية التليفزيون وإمكان الحصول عليه كانت نسبتها أعلى فى مناطق العاصمة والمدن الكبرى وفى الجماعات التى تتقاضى أجورا أفضل - سواء المهنيون أو رجال الأعمال والعاملون ذوو الياقات البيض» والمهرة . أما الجماعات الريفية ضئيلة الإيراد والتى لا تتميز بمهارة معينة فقد اقتصرت على الاعتماد على الإذاعة بصفة رئيسية ، ولكن يبدو من المؤكد أنه بين هؤلاء الناس أيضا سوف يحل التليفزيون محل الإذاعة عندما يمكنهم الحصول على أجهزته وعندما تتوافر محطات الإرسال التليفزيونى ، فحيث تسمح الايرادات والتسهيلات يميل الناس من جميع الطوائف إلى التحول من الإذاعة إلى التليفزيون .

أما بشأن قراءة الصحف اليومية والمجلات فإن الفروق بين الجماعات التى تشغل وظائف مختلفة ويتفاوت إيرادها ليست كبيرة ، وإنما هناك فروق جوهرية بسبب التعليم . فالذين نالوا من التعليم قسطا أكبر كانوا أكثر الناس قراءة عن الحملة ، وكذلك كانوا أقلهم تقديرا للتليفزيون كمصدر للإعلام وعامل الإيراد هو الوجه المستعار لهذا الوضع ، لأن الذين تعلموا تعليما طيبا هم على الأرجح الذين لهم إيرادات عالية ، ولذلك يملكون أجهزة التليفزيون ومع ذلك فإننا عندما فصلنا التعليم عن عنصر الإيراد وجدنا أن حملة الدرجات العلمية من الكليات أو الذين نالوا قسطا من التعليم فى إحدى الكليات قد بخسوا قدر التليفزيون بخسا يلفت النظر أكثر ممن نالوا من التعليم قسطا أقل منهم ، وهو ما يوضحه الجدول الأخير (رقم ٥) .

وبين الناس الذين ينتمون إلى الجماعات ذات الإيراد المرتفع الذين يستطيعون دفع ثمن جهاز التليفزوين يبدو أن الحملة الانتخابية على شاشة التليفزيون قد أثرت بوضوح على أولئك الذين لم ينالوا إلا تعليما أوليا أو ثانويا أثرًا أقوى من تأثيرها على من نالوا تعليما فى إحدى الكليات ، وبلغ تقدير هذا التأثير أقصاه على الناس الذين يبلغ إيراهيم ٥٠٠٠ دولار أو أكثر ولم يدخلوا مدرسة ثانوية قط ، وثلث الجماعة التى تلقت تعليمها فى إحدى الكليات عد التليفزيون أقوى مصدر فريد للإعلام عن الحملة ، ولكن القراءة لعبت نسبيا دورا أكبر فى حصولهم على الإعلام من دورها بالنسبة لمن هم أقل تعليما ، وهذا يدعم الحقيقة المسلم بها التى تقرر أن التعليم العالى يتجه إلى أن يكون عادات إيجابية أكثر منها سلبية وخاصة بالحصول على الإعلام .

فالتليفزيون - كوسيلة للحملة - قد شن غاراته على الإذاعة ، أما الصحف اليومية والمجلات - إجمالا - فإنها حتى الآن تبدو محافظة على مواقعها . لأن أهميتها قد قدرت تقديرا عظيما فى الشمال الشرقى ، حيث تنتشر أجهزة التليفزيون انتشارا كبيرا ، كما تنتشر فى المناطق الأخرى ، ولكن بما أن التليفزيون يمد آفاق نشاطه ويطور نواحيه الفنية لكى يروق لمختلف طوائف الجماهير . فمما لا شك فيه أنه سيحقق منافسة متزايدة على اجتذاب اهتمام الناخبين .

أما عن تأثير التليفزيون على التصويت ذاته فليس لدينا دليل واضح ، إذ أن أولئك الذين قدروا التلفزيون بأنه أهم مصدر لإعلامهم وصوتوا لأيزنهاور كانت نسبتهم تقريبا هى نفس نسبة أولئك الذين اعتمدوا اعتمادا رئيسيا على الإذاعة أوالصحف اليومية (انظر جدول رقم ٢) . وقراء المجلات كانوا أكثر ميلا إلى الحزب الجمهورى (أيزنهاور) بدرجة كبيرة ، ونال ستيفنسن إلى حد ما نجاحا بين المخلصين للتليفزيون أكبر مما ناله بين أولئك الذين فضلوا الإذاعة أو الصحف اليومية . ولكن قد لا تكون لهذه الفروق دلالة معينة كبيرة ، لأن العوامل الجغرافية وغيرها من العوامل تدخلت فى تحديد الوضع .

ولا نستطيع أن نقرر من واقع دراساتنا ما إذا كان للتلفزيون تأثير متميز على الناخبين . فربما اشترك التليفزيون مع الإذاعة والصحف اليومية سوية (أو لم

يشترك) فى مشايعة اتجاه معين فى أثناء الحملة الانتخابية . وهكذا تشابهت التأثيرات التى تركتها الوسائل الإعلامية المختلفة فى المتابعين لها ، ومن جهة أخرى فمن الجائز أن يكون التليفزيون قد أثر تأثيرا قويا على الأفراد الذين شاهدوا الحملة على شاشته ، ولكن درجة هذا التأثير قد أخفتها عوامل اختيارية لم يتحكم فيها تحليلنا ، فمن الضرورى لكى نقيس التأثيرات المقارنة لمختلف وسائل الإعلام أن نتعقب تلك العوامل الأخرى ، ونحسب حسابها .

جدول رقم ٤

جنس المستجيب	التليفزيون		الإذاعة		الصحف اليومية		المجلات	
	شاهدوا الحملة على شاشته	قدروه كأهم مصدر	استمعوا فيها إلى أخبار الحملة	قدروها كأهم مصدر	طالعوا فيها أخبار الحملة	قدروها كأهم مصدر	طالعوا فيها أخبار الحملة	قدروها كأهم مصدر
رجل	٥٦	٣١	٧٢	٢٣	٨٣	٢٧	٤٢	٦
امرأة	٥١	٣١	٦٨	٣١	٧٦	١٨	٣٩	٤
محل الإقامة								
العاصمة	٧٦	٤٩	٦٢	١٤	٨٢	٢٢	٣٥	٤
المدن الصغيرة	٤٧	٢٧	٧١	٣٠	٨١	٢٣	٤٣	٥
الريف	٣٦	١٦	٧٦	٤١	٧٦	١٩	٣٨	٧
إيراد الأسرة في عام ١٩٥٢								
أقل من ٣٠٠٠ دولار	٣٤	١٧	٧٣	٣٨	٦٦	٢٠	٢٧	٤
من ٣٠٠٠ إلى ٤٩٩٩ دولار	٦٠	٣٧	٦٨	٢٣	٨٤	٢٥	٤٠	٤
٥٠٠٠ دولار أو أكثر	٧٠	٤٢	٦٧	١٩	٩١	٢٢	٥٨	٧

وظيفة رب الأسرة								
مهنيون	٦٣	٢٢	٨٠	١٩	٩٧	٣٠	٦٧	١٥
رجال أعمال مديرون	٦٩	٤٣	٧٠	٢١	٩٢	٢١	٦٠	٧
كتبة وباعة وعمال مكاتب	٦١	٣٨	٦٧	١٨	٨٩	٢٥	٤٦	٧
عمال مهرة	٦١	٤٣	٦٣	٢٠	٧٩	٢٢	٣٢	٢
عمال غير مهرة	٣٦	٢٢	٦٨	٣٩	٦٣	١٧	٢٢	٣
مزارعون	٣٣	١٤	٧٨	٤٢	٧٢	٢١	٥٣	٦
مستوى تعليم المستجيب								
مدرسة أولية	٤٠	٢٥	٦٧	٣٣	٦٥	٢١	٢٣	٢
مدرسة ثانوية	٦٣	٣٨	٦٩	٢٥	٨٦	٢١	٤٥	٥
كلية	٦٠	٢٨	٨٠	٢٠	٩٥	٢٨	٧٥	١١

وقطاعات المواطنين الذين سواء اهتموا بمتابعة الحملة بواسطة وسيلة أو أكثر من وسائل الإعلام أو قدروا إحدى هذه الوسائل كأهم مصادرهم للإعلام عن الحملة . قد وضحت فى هذا الجدول بالنسبة المئوية ، والعامل الاختيارى الذى يؤكده تدهور هذه النسبة هو القدرة على شراء جهاز تليفزيون .

وكلمة أخرى يجب أن تضاف للتنبيه ، فإن بيان عام ١٩٥٢ ينطبق على الجماهير المعنية بالإذاعات والتحقيقات السياسية ، ولا يمكن افتراض أن نفس الطابع الذى يتسم به تفضيل وسيلة من وسائل الإعلام على وسيلة أخرى يزعم وجوده فى مناطق أخرى للإعلام أو الترفيه .

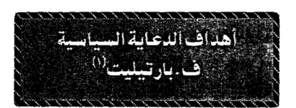
	أقل من ٣٠٠٠ دولار			من ٣٠٠٠ إلى ٤٩٩٩ دولار			٥٠٠٠ دولار أو أكثر		
	مدرسة أولية	مدرسة ثانوية	كلية	مدرسة أولية	مدرسة ثانوية	كلية	مدرسة أولية	مدرسة ثانوية	كلية
تليفزيون	١٣	٢٧	١٠	٣٧	٤٠	٢٩	٤٩	٤٥	٣٣
إذاعة	٤٠	٣٧	٢٧	٢٦	٢٢	٢٠	١٤	٢٠	١٩
صحف يومية	٢٠	١٥	٤٣	٢٥	٢٥	٢٨	١٨	٢٠	٢٥
مجلات	٢	٦	٧	٢	٥	٧	٤	٥	١٣
أكثر من وسيلة	٩	٩	١٠	٦	٦	١٥	١٠	٧	٩
بدون أية وسيلة من الوسائل الأربع	١٦	٦	٣	٤	٢	١	٥	٣	١

وقد أثر مستوى التعليم على اختيار الوسيلة التى عدت أهم مصادر الإعلام عن الحملة ، وبوجه عام كلما ارتفع مستوى تعليم المستجيب إلى أسئلة التقصى زاد اعتماده على القراءة وقل اعتماده على التليفزيون ، وقد وضح ذلك بالنسب المئوية .

الجزء الرابع

الدّعَاية

(١٣)



إن الدعاية اليوم موجودة فى الهواء وعليه ، ولا مفر من صوتها الملح ، ولو صح أن لها نصف الأثر الذى يزعم لها فحسب فإن قوتها - مع ذلك - تعد هائلة . ولقد قيل إنها قادرة على أن تصمم سلوك أشد المواطنين غموضا ، وأن تحسم - فى نفس الوقت - مصائر الأمم العظيمة . وهى دائبة العمل على صياغة تربية الطفل ، وأطماع الشاب ، وأنشطة الرجل ، ثم تلاحق الكهل حتى القبر ، وهى لا تقيم وزنا للأزمان ، ولا لفصول السنة ، ولا للموضوعات التى تعالجها .

وليس من اليسير أبدا أن تتأكد من دلالة هذا النمو المطرد للدعاية فى العالم المعاصر ، وما إذا كان مجرد عرض عابر أو أنه شىء عميق دائم . ويبدو أحيانا كما لو أن أمم العالم العظيمة قد أصبحت - لفترة - أشبه بصبية صغار فى المدرسة ينظر كل منهم إلى الآخر بوجه مرعب ويتبادلون التهديدات المدوية . ثم يبدو أيضا كما لو كان يكمن خلف الضجة والمظهر الخارجى نوع من التسليم المبهم بأن القوى النهائية التى تحرك العالم هى تلك القوى التى تتحالف على صنع العقل البشرى ، وهى القوى التى يجب أن يدرك الطامحون من الناس - الآن أكثر من أى وقت آخر - كيف يوجهونها لتحقيق أغراضهم الخاصة ، ولكن العجيب أن العالم أجمع لا يزال محجما عن دراستها دراسة جدية .

وأيا كانت دلالة نمو الدعاية السريع الذى تجاوز الحد ، فإن أسبابه الرئيسية واضحة ومؤكدة بما فيه الكفاية ، إذ أنها تنبع - أساسا - من تينك الحركتين وثيقتى الصلة المسئولتين عن معظم الاضطرابات فى الحضارة العصرية : الاختلاط المؤثر الذى يتزايد باطراد بين الجماعات الإنسانية ، والانتشار السريع للتربية الشعبية .

---

(١) عن ف . بارتيليت ، الدعاية السياسية ، Political Propaganda مطبعة جامعة كمبردج ، لندن ، ١٩٤٠ ص ١ - ٢٢ .

حتى عهد قريب مضى كانت كل جماعة إنسانية تعيش فى مكان ناء عن المكان الذى تعيش فيه الأخرى لا تربط بينهما إلا وسائل فجة بطيئة - نسبيًا - من وسائل الاتصال المتبادل ، فزعماء جماعة ما كانوا يستطيعون أن يصوغوا سياستهم الداخلية بقدر قليل جدا من الحرص وعلى ما قد يحدثه تغيير ما فى تلك السياسة من رد فعل فى الجماعات الأخرى أو من اهتمام مباشر بذلك . أما اليوم فليست الأخبار وحدها هى التى تنطلق بسرعة من أحد طرفى العالم كله إلى الطرف الآخر ، وإنما الناس وعناصر الثقافة ووسائل الكيان الاقتصادى والآراء . كل ذلك يمكن أن يتحرك بحرية لم يسبق لها نظير فى التاريخ ، ولما كان الاتصال بالأشياء القريبة عن الإنسان هو - فوق كل عامل آخر - الدافع إلى التغيير فى الشئون البشرية ، فقد أصبح من الضرورى ضرورة حيوية بالنسبة لزعماء الجماعات الكبيرة - أن يحاولوا - نوعا ما - أن يسيطروا على الوسائل الرئيسية التى تمكنهم من سد آفاق الاتصال بالآخرين ، وأن يستخدموا هذه الوسائل لدعم طموحهم .

والعلم التطبيقى الحديث مسئول - بصفة أولية - عن هذا النمو العظيم للتبادل السريع بين جماعة إنسانية وأخرى ، وتطور وسائل النقل الخاطفة والسهلة ، وارتقاء الصحافة الشعبية ، واستخدام السينما واللاسلكى والتليفزيون على نطاق عالمى . يعنى أن أية جماعة لا يمكن أن تعزل أو أن تترك وحدها لتفنى .

وهذه العوامل ، وكل ما سواها من الاختراعات التى تيسر تبادل الاتصال الخاطف الفعال ، ليست مجرد لعب أو أسلحة تستخدمها القلة المرموقة ، وهو أمر قد يكون أكثر أهمية مما عداه . فمعظم هذه العوامل والوسائل قد أتيحت فعلا للجميع ، وتزايدت إتاحتها لهم عاما بعد عام . فزاد التطور الضخم للتربية الشعبية فى كافة الجماعات الإنسانية عدد الأشخاص الذين يستطيعون أن يستفيدوا - ويستفيدون فعلا - من وسائل الاتصال المتبادل العظيمة فى كل جماعة زيادة لا يمكن حصرها ، وأصبحت الحواجز التى تفصل بين جماعة وجماعة والتى بناها سير التاريخ وحذق الإنسان مهددة بالتحطيم ، كما أن السياسة التى كان يكفى فى الماضى أن تشرح للقلة فحسب ، ويتم إقرارهم لها قبل تنفيذها قد أصبح من المحتم أن تنال تأييد الكثرة وقبل اتخاذ أى اجراء - الآن - يجب أن يكون قد تم شرحه وتبريره للناس الذين يعيشون فى أقصى الجهات ، لأن أخباره ستنتشر وعواقبه ستكون لها سعة انتشار الأخبار ، كما أن لها غالبا سرعة انتقالها .

وحتى لو تشابه نمو التربية الشعبية فى كافة أنحاء العالم ، فإن المشكلات الاجتماعية التى تنشأ ضخمة . أما والحال أن تيار التربية يندفع سريعا فى إقليم ، وبطيئا فى إقليم آخر مع ما يتضمنه ذلك من كافة الصور المثبطة والمعوقة لفترة ما ومن صور التقدم العرضية اللافتة للنظر - فلا غرابة فى أن الصعاب المعقدة التى تنتج غالبا تبدو وكأنها يجب أن تحبط كل محاولات الوصول إلى حل .

والتطور السريع للاتصال الفعال بين مختلف الجماعات فى المجتمع المعاصر يعنى أنه ما من تغيير هام سواء أكان سياسيا أم اقتصاديا أم ثقافيا يمكن أن يقع فى أى مكان إلا إذا عولج - بسرعة خاطفة - كأنه يؤثر فى مصائر الجماعات النائية ، ونمو التربية الشعبية يعنى أن أى تغيير هام سواء أكان سياسيا أم اقتصاديا أم ثقافيا يجب أن يشرح ويبرر لعدد لا ينقطع تزايده من الناس ، وهاتان الحركتان تمهدان للأوضاع وللظروف الأساسية التى قادت العالم إلى اندلاع رهيب للدعاية السياسية .

وهذه الظروف - طبعا - ليست هى الظروف الوحيدة ، فإنه يحدث - مثلا - أنه عندما تصبح الصلات الاجتماعية الواسعة أكثر فعالية عما كانت عليه فى أى وقت سابق . وعندما يتدرب عدد من الناس أكبر من عددهم فى أى وقت سابق على الاهتمام بالتغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية وعلى الجهر بذلك ، فإن القدرة على إحداث مثل هذه التغيرات تصبح - بوضوح - فى قطاعات عديدة بين أيدى الجماعات الصغيرة أو بين أيدى الأفراد ، وهذه الجماعات الصغيرة الطاغية أو هؤلاء الأفراد الطغاة هم الذين طوروا - بصفة رئيسية - الدعاية السياسية الحديثة ، لأن الفرق بين طاغية العالم القديم وطاغية اليوم أن الأول - فى جماعته الصغيرة والمنعزلة نسبيا - كان يستطيع أن يعمل ما يحلو له «دون أن يأبه للعواقب» داخل نطاق تلك الجماعة . أما الطاغية الحديث ، إذ يتحكم فى مصائر جماعات كبيرة ، وعليه أن يعمل فى شبكة معقدة الخيوط من الصلة بين جماعته الخاصة والجماعات الأخرى ، فإنه مرغم على أن يلتمس تأييد الشعب المترامى الأطراف ، وأن يجاهر بمحاولته تبرير ما يحفزه طموحه الخاص على عمله . ومع ذلك فإن الملابسات الأساسية للدعاية السياسية اليوم التى تضفى عليها سماتها الفريدة وتجعل منها أمرا حيويا بالنسبة لكل دولة عظيمة أيا كان شكل كيانها السياسى هى : زيادة الصلة بين الجماعات الإنسانية التى تختلف أنظمتها وانتشار التربية الشعبية .

والإجماع منعقد - عمليا - على أن الدعاية يجب أن تعرف طبقا لأهدافها ، وتلك الأهداف يمكن - فى الواقع - أن تقرر ببساطة . فالدعاية هى محاولة التأثير فى الرأى والسلوك - وخاصة رأى الجماعة وسلوكها - بحيث إن الأشخاص الذين يعتنقون الآراء والسلوك موضوع الدعاية يفعلون ذلك دون أن يبحثوا هم أنفسهم بحثا محددا عن أية أسباب دفعتهم إلى اعتناقها ، ومع أن انتشار التربية هو أحد الظروف الأولية التى انبثقت منها الدعاية السياسية ، إلا أن أهداف هذه الدعاية تختلف عن أهداف التربية ، وقد تتعارض معها تعارضا حادا .

إن التربية هى الأخرى محاولة للتأثير فى التفكير والسلوك والسيطرة عليهما ولكن بحيث إن الأشخاص الذين يفكرون ويتصرفون - طبقا لتلك التربية - يدفعون إلى أن يحاولوا أن يدركوا بأنفسهم لماذا يفعلون ما هم فاعلون . ولا حاجة إلى القول بأن الكثير مما يبدو فى كل نظام تربوى شعبى يتخذ شكلا أكثر ملاءمة لأهداف الدعاية ، وهذا ما يجب أن يحدث قطعا . لأن الإجراءات العامة يجب أن تتخذ ، والآراء يجب أن يتم اعتناقها ، قبل أن يكون الذهن قد تطور تطورا يكفى للقلق على التماس الأسباب ، وسواء أكان الأمر متعلقا بالفرد أم بالجماعة الإنسانية فإن مراحل التربية الأولى يجب أن تقترب اقترابا كبيرا من أشكال الدعاية المميزة ، ولكن هناك فارقا حيويا بين دعاية صممت لكى تبقى الناس إلى الأبد على مستواها ودعاية صممت لكى تقود أولئك الذين تخاطبهم عبر الخطى الضرورية الأولية إلى أهداف التربية .

وفضلا عن ذلك فهناك أسباب قوية تدعو الدولة الحديثة إلى عدم الاجتراء على إهمال الدعاية السياسية ، ومهما اكتفت دولة ما اكتفاء ذاتيا بالنسبة لسياستها الداخلية فإنها لا تستطيع - كما سبق أن أوضحنا - احتمال أن تتجنب علاقات خارجية مع دول أخرى على نفس مستواها تقريبا ، والمشكلات العملية التى تنبثق كنتيجة لهذا الوضع ذات طبيعة عاجلة جدا ، ولا تستطيع الانتظار حتى يتسع الوقت - أمام الأعداد الكبيرة من الناس الذين تهمهم تلك المسائل بحكم الطبيعة - لكى يقدروا ويزنوا الأسباب التى تدعو إليها ، وغالبا ما يضطر زعماء دولة ما إلى الإسراع نوعا ما فى اتباع سياسة تمس مصالح أتباعهم الأقربين أنفسهم ومواطنى دول أخرى . وعندئذ يجب أن يبرروا هذه السياسة بعد أن يقرروها وأن يكون ذلك التبرير علنا . والواقع أن الدعاية السياسية للحياة المعاصرة

يبدأ تطويرها بواسطة الدولة داخل نطاق هذه الدولة لمواطنيها . وما من شيء يثير الدهشة في هذا الأمر ما دامت الدعاية الداخلية أيسر قطعا من الدعاية الخارجية ، وبخاصة بالنسبة للدول التي تكتفي في هذه السياسة اكتفاء ذاتيا كبيرا ، وذلك للأسباب التي ستصبح واضحة بعد في هذه الدراسة على أن الدعاية الخارجية ربما كانت أكثر أهمية بالنسبة لكل جماعة كبيرة في المجتمع الحديث ، وإهمالها قد يعرض مثل هذه الجماعة لخطر شديد . وسواء استخدمت الدعاية كمساعدة أولى للتربية في مجتمع متأخر نسبيا أو اتخذت شكل إعلان موعز بسياسة معينة موجه إلى جماعات أخرى من مستوى ثقافي مشابه ، أو عدت جهدا منظما لتحقيق التجانس في الرأي والسلوك بين أعضاء المجتمع نفسه - فإنها يجب أن ينظر إليها على أنها حلقة في سلسلة ووسيلة ضرورية مؤقتة . وإذا تطورت بحيث تصبح نظاما صليا يلوث مجرى التربية الأصلية الحقيقية ويغتصب مكانها ، فإنما تفعل ذلك عندما توجد قوى تعمل على محاولة إبقاء سواد الشعب الذي توجه إليه الدعاية في وضع الطفل الرضيع .

وهذا ما يحدث - بالدقة - كلما أصبحت الدعاية السياسية سلاحا يستخدمه الحزب الواحد المتسيطر في الدولة الاستبدادية . ولذلك فإن الدعاية - في مثل تلك الدولة - عندما تنمو نموا كبيرًا يتضح أن هناك هوة سحيقة ينطوي عليها هذا النمو تفصل بين أولئك الذين يتحكمون في النشر ، وأولئك الذين تقع محاولة التحكم فيهم على طريق وسائل هذا النشر ، وقد لا تكشف النظرة السطحية هذه الهوة على الإطلاق ، ولكنها موجودة هناك ، كخط يمكن تصوره يقسم المجتمع قسمه فاجعة إلى فريقين ، ومن الأمور العجيبة في المجتمع الإنساني أنه عندما تتزايد احتمالات القسمة إلى حد كبير يهبط امكان الفصل الشديد إلى الحد الأدنى ، ولكن عندما تقل الخطوط الفاصلة التي يمكن تصورها فإن الجماعة قد تكون مهددة بخطر شديد ينتهي بالتحلل الجذري ، ولذلك لأنه عندما تكثر احتمالات القسمة لا يؤثر الانفصال غالبا إذا حدث إلا في أفراد أو جماعات صغيرة لأفراد فحسب دون أن يقلب نظام المجتمع العام إلى حد كبير ، ولكن عندما لا يكون هناك إلا خط واحد أو خطان بسيطان من خطوط التشقق المحتمل ، فإن القسمة إذا تحققت فعلا تفجع الجماعة كلها .

والدعاية السياسية التى يستخدمها الحزب الواحد يجب أن تخاطب جماعات كبيرة من الشعب ، وأن تحاول أن تدفعهم إلى التجانس فى الرأى والعمل . ولما كان الهدف العظيم هو الحصول على نتائج وليس - إطلاقا - تنمية إدراك هذه النتائج أو الحث على إدراكها فإنه كلما كان خبير الدعاية مخلصا لعمله سليم النية كلما كشفت وسائله عن أنه يعد الأفراد الذين عليه أن يتعامل معهم مجموعة بائسة جدا ، وأنهم - بصفة خاصة - على مستوى وضيع من النمو الذهنى وأنهم يجب أن يبقوا على هذا المستوى . وإن صح أن إحدى حيل عمله أن يخبرهم بأنهم أفضل بكثير من جماعات أخرى ، إلا أن الواقع أن كل ما تنطوى عليه طريقته فى الدعوة أن ينتحل لنفسه قدرا أعلى من قدر الآخرين ينكره دائما ، وأمام هؤلاء الآخرين ، فهو يزعم أنه ينفرد بالقدرة على التفكير البناء ، وأنه يحس بأرق المشاعر ، وأنه يستأثر بمسئولية إصدار القرارات ، وأن للآخرين مجرد حق الطاعة ، وعليهم الالتزام بها ، وهناك فجوة كبيرة ثابتة بينه وبين جمهوره - حيثما أصلحت معالمها ، ورغم هذا الإصلاح - وأوسع جزء فى هذه الفجوة ينطوى على تحديد الفارق فى الذكاء . هذا هو ما يزعمه الدعاة ويؤكدونه جهارا فى بعض الأحيان ، ولكنه ثابت على الدوام .

ولا حاجة بأحد إلى التعمق فى دراسة علم النفس لكى يعلم أن الناس الذين يسرفون فى عرض علو قدرهم يندر أن يكونوا فعلا من ذوى القدر العالى . وقد يكونون فعلا من ذوى القدر العالى ، ولكن تكرار التأكيد على ذلك العلو - كقاعدة عامة - إنما ينبثق من شكل عميق لم يتبينوه تبينا تاما فى أن الآخرين - فى الواقع - أفضل تأهيلا ، وخاصة فى نفس تلك المجالات التى يزيد تأكيد الزعم بالتفوق العظيم فيها . وتبدو صحة هذا الرأى - بصفة خاصة - عندما يكون الذكاء هو الموضوع الذى ينصب التأكيد عليه .فالرجل الذكى والجماعة الذكية هما البادئان بتبين ذكاء الآخرين وجلائه ، وقد أصبح واضحا الآن وضوحا كافيًا أن توزيع الذكاء لا يختلف اختلافا بينا فى أية جماعة كبيرة تؤخذ على سبيل المثال جزافا أينما يكن فى أنحاء العالم المتحضر ، ومما لا يتوقع على الإطلاق أن أية جماعة صغيرة لم يتم اختيارها أصلا ، وبصفة خاصة على أساس ما امتازت به من ذكاء يمكن أن تتفوق - فى الواقع - بقواها الذهنية ، وعلى الأخص فلا توجد - إلى الآن - أية جماعة تتولى التوجيه السياسى فى أى مكان

اختيرت – بصفة رئيسية – على أساس ما تتميز به من ذكاء . وقد لا يحتمل أن توجد قط لأنه فى مثل هذه الجماعة صفات أخرى تتساوى معها على الأقل فى الأهمية كسرعة إصدار القرارات ، والطاقة القيادية ، والروح العامة والاستعداد لتحمل المسئولية ، ولذلك إذا نظر إلى الدعاية بذاتها كنشاط نهائى متكامل ، لا كمجرد مقدمة نمط عام ما لتدريب الناس على التفكير ، فإن افتراض الذكاء الأسمى الذى لا مفر من أن يزعمه مديرو تلك الدعاية يجب – إن عاجلا أو آجلا – أن يكتشف الآخرون أنه لا أساس له وأنه أكذوبة .

ومع ذلك فإن هناك خطأ أساسيا أكبر أهمية يكمن خلف كل هذا الذى ذكرناه وهو أن الاستقرار الاجتماعى يعتمد على التجانس بين الفكر والعمل ، إذ أن هذا الزعم خطأ حيوى شائع ، مع أن الساسة فى جميع العصور يتعرضون بالطبيعة إلى الوقوع فيه ، والمدير العصرى لدعاية الحزب الواحد السياسية يعتنق – دون تحفظ – ذلك الشعار الذى طرحه «إدموند بيرك» فى هذا البلد قبل سنوات كثيرة فى فترة اضطراب اجتماعى كبير وهو : القدرة عدوة الاستقرار . والمقصود بكلتا الكلمتين القدرة التى يتصف بها سواد الشعب لا الساسة أنفسهم . فهؤلاء الساسة يظنون أن الذكاء القلق الواسع الانتشار يعنى – تماما – النقد واسع الانتشار ، وإضعاف مشاعر الولاء ، وتكتيل الميول إلى التفرقة الاجتماعية . ولكن الداعية العصرى فى الشئون العامة أقل تمسكًا بمراحل بالنسبة لالتزام الشعار الذى يعتنقه عما كان عليه «بيرك» الذى كشف بوضوح تام أنه إنما كان يقصد أن يبقى التوجيه السياسى فى أيدى القلة ، وكان عازما وحريصا على أن هذه القلة يجب أن تختار – على الأخص – لما تمتاز به من ذكاء ، ومدير الدعاية السياسية النمطى فى الوقت الحاضر عليه أن يزعم أن هدفه هو جمع كل الناس على الاهتمام بالشئون العامة ، وأن يضمن تعاونهم الإيجابى ، ولذلك فهو مرغم على أن يقول : «إذا استطعنا أن نحمل الناس على أن يعملوا ويفكروا ويشعروا بطريقة متجانسة متشابهة فإن جماعتنا عندئذ – وعندئذ فقط – ستكون مستقرة ثابتة فى وجه الصدمات وقادرة على الاستمرار والبقاء» .

وهذا الجدل يتعارض تعارضا مباشرا مع نفس الأساس الذى بنيت عليه جماعة الأمة العصرية ، فسلامة كل جماعة إنسانية معاصرة كبيرة وقوتها تقومان على تخصص متزايد من جانب أعضائها فى ممارسة أعمالهم ، وإذا صح أن المجتمع

قد تعرض لكل أنواع الخلل لأنه اعتنق هذا المبدأ الخاص بالنمو دون تبين ما ينطوى عليه ببصره جلية فترتب على ذلك مشاهدة تناقضات فاجعة ، فى جميع الاتجاهات ، بين القدرات الفعلية والممارسات المطلوبة منها - فإن الواقع الثابت أن كل خطوة فى تطور المجتمع العصرى تتطلب مع ذلك مزيدا من التخصص الرفيع الواعى والمتوازن ، وبينما نرى كل جماعة كبيرة قادرة على صيانة طابعها الخاص وتقويته ، فإن ما يجعل ما سبق إيضاحه ممكنا وضروريا يعزى إلى حقيقتين نفسيتين بسيطتين لا جدال فيهما : أولاهما أن أفراد الجنس البشرى يختلف كل منهم عن الآخر اختلافا عميقا فى المواهب النفسية والاجتماعية ، والثانية أن هذه الاختلافات متكاملة .

وقد يمكن أن يدفع بأن التخصصات التى هى التفاعل الحيوى للحضارة المتقدمة تعنى جميعها بالكيفية الى يباشر بها الناس عملهم ، لا بالكيفية التى يفكرون بها ، فهى تهتم بالمهارات الفنية ، وبالعمليات الصناعية ، وبالأنشطة التجارية ، ولكنها لا تهتم كثيرا بالآراء والمعتقدات ، والنظريات ، فأى قطاع من أمثال هذه القطاعات التى يمارسها الإنسان يبدو - من الوجهة النفسية - ركيكا ومختلا . إذ أن الناس لا يستطيعون أن يظلوا إلى الأبد مدفوعين إلى مزيد من التخصص فى قطاعات معينة من الحياة ، وإلى التزام مستوى بليد من التجانس مع الآخرين ، وهذا التجانس - على الأخص - مستحيل عندما يكون الأمر متعلقا بالآراء والمعتقدات فى الشئون السياسية والاجتماعية ، والتخصص فى المهارات الفنية والصناعية - مع مرور الوقت - يرفع مستوى المعيشة العام ، يزيد من فترات الراحة العامة من عناء العمل . وعندئذ لا تستطيع قوة على الإرض - اللهم إلا أشد إجراءات القمع ، وحتى هذه الإجراءات لفترة قصيرة فحسب - أن تمنع ذلك الاختلاف - الذى هو مفتاح التقدم - فى جهة معينة من الانتشار أيضا فى الجهات الأخرى .

وأى شكل من أشكال الدعاية مبنى - كما هو الشأن بالنسبة لدعاية النظم الاستبدادية - على فكرة امتهان الذكاء العام ، وعلى الاعتقاد بتجانس الآراء والمشاعر مقضى عليها بالانهيار التام لأنها تناقض أعظم أساس لكل خصائص التطور الإنسانى .

والفكرة التى تذهب إلى أن الدعاية السياسية - كما سبق أن صيغت دائما - تهدف سواء عمدا أو بغير عمد - إلى تكوين جماعات تشمل الأمة بأكملها التى يفكر كل فرد فيها ويعمل ويشعر بطريقة متجانسة لها عواقب عميقة - لأن هذا الهدف يمكن تحقيقه فحسب كلما أمكن إبقاء الشعب المعنى بمنأى عن مؤثرات أخرى ، والدعاية الناجحة التى من هذا النمط تقتضى أن تحمل معها رقابة مسيطرة وصارمة ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه لما كان المطلوب أن يلتزم الناس باعتناق فكرة واحدة ، لا لفترة قصيرة من الوقت وإنما أن يثبتوا عليه دائما كلما أمكن هذا الدوام ، فإن الدعاية السياسية المنظمة يجب أن تغزو حقل التربية ذاته ، وأن تحاول أن تؤثر فى الشباب ، وأن تبذل فى تأثيرها فى الشباب من القوة ما يفوق ما تبذله فى التأثير على متوسطى السن والمسنين .

وفضلا عن ذلك فإنه لكى يتحقق التجانس المطلوب فإن السواد الأعظم لأعضاء جماعة ما يجب أن تتاح لهم ثقة ساحقة بنظامهم الاجتماعى الخاص . وأيسر السبل وأكثرها فاعلية لتحقيق ذلك هو استمالتهم إلى رد فعل نقدى معاد لكل النظم الاجتماعية الأخرى ، والذين يتولون إدارة نظام جامد للدعاية السياسية لا يعترفون غالبا - اللهم إلا للحظات التى يخونهم الحذر الشديد فيها - بأن هدفهم هو الحرب ، ولكن الحقيقة أنهم كلما تحقق لهم النجاح داخل نطاق المجتمع الذى يعيشون فيه أدنوا ذلك المجتمع من الحالة التى تصبح فيها الحرب لا مفر منها .

وكل ما سبق أن قلناه حتى الآن ينطبق مباشرة على الجزء الأكبر من الدعاية السياسية فى الدولة الدكتاتورية الحديثة ، ولكن البلاد الأكثر ديموقراطية لا تستطيع - لأسباب عديدة - أن تهمل الدعاية السياسية ، والدولة الديكتاتورية - لأن نظامها يقوم على رغبة جامحة فى القوة والنفوذ - سوف لا تترك البلاد الديموقراطية وحدها ، وهذا يتطلب من هذه البلاد أشكالا مختلفة من الدعاية المضادة ، كما أن أى عالم يؤوى الطغاة إنما هو عالم يندفع بعنف من أزمة إلى أزمة وكل منها يستلزم قرارات سريعة . ومعظم هذه القرارات السياسية - بطبيعة الحال - إنما يقتضى اتخاذها لتندفع - على ضوء أسباب تمت دراستها دراسة كاملة ، كما تم تحليلها تحليلا كاملا - لتزاول ممارسات تسبق أى شىء كأنها بيّنة كاملة ، ويجب فى الوقت الحاضر أن تبرر هذه الممارسات تبريرا مفتوحا

علنيا ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الطابع العام لمعظم الدعاية العصرية يعنى أنه يوجد فى كل بلد ديموقراطى أعداد كبيرة من الناس يقرأون الدعاية للحكم الفردى الاستبدادى ويستمعون إليها ، لأنه لا يمكن إرغامهم على الامتناع عن ذلك ، كما هى الحال فى الدولة الديكتاتورية وعندئذ يجب أن ينظم الرد علنا على تلك الدعاية ، وأخيرا إذا أصبح الميل إلى دعاية الحزب الواحد السياسية - وهو ميل مختف ولكنه حقيقى - بينا ، ونشبت الحرب لأى سبب من الأسباب التى هى من الوضوح بحيث لم تعد هناك حاجة إلى تعدادها ، فإن كل الجماعات الكبيرة فى العالم التى سيقت إلى تلك الحرب ، يجب أن تستخدم وسائل للدعاية العلنية .

وفى نفس الوقت فإنه يصح - أيضا - أن نقرر أن الدعاية السياسية الآن فى كل البلاد الديموقراطية تعانى - نسبيا - حالة تأخر وتخلف . فما من أحد يبدو - بعد وقد قرر تماما ماذا يجب أن يكون هدفها ، ولا كيف تلاحق هذا الهدف .

ما هى الديموقراطية ؟ إن كل أشكال الأجوبة يمكن أن ترد على هذا السؤال . ومن وجهة النظر الحاضرة - مع ذلك - فإن اعتبارا واحدا ينسخ باقى الاعتبارات . إذ أنه فى العالم العصرى يمكن أن يقال إن الدعاية السياسية استخدمت كسلاح من أسلحة الدولة ، ولكنها تطورت ونمت فى كل مكان - تقريبا - كأداة رئيسية يستخدمها نظام الحزب الواحد داخل الدولة ، وهذا على وجه الدقة مالا يمكن أن يحدث - إلا بشكل ناقص - فى بلد ديموقراطى .فالديموقراطية تختلف عن كل شكل آخر من أشكال الحكم فى أنها تتضمن على الأقل - حزبين رئيسيين كل منهما يعامل الآخر بقدر كبير جدا من التسامح . ومع أن كل حزب قد يتطور وينمى دعايته السياسية الخاصة ، فإن حزبا ما لا يستطيع أن يخمد دعاية الآخر دون أن يحطم روح الديموقراطية ذاتها .

وإذا اقتضى الأمر تطوير فترة من فترات الخطورة الشديدة التى تمس الشعب عامة - وذروة هذه الحالات حالة الحرب - فإن الحزب الذى يتصادف تولية الحكم مؤقتا يجب أن ينظم دعاية مركزية ، لا مفر أن يلازمها نوع من الرقابة الرسمية ، ولو أن من العسير تحديد الشكل الدقيق للرقابة المتلائمة مع الديموقراطية ، وفى نفس الوقت تسمع أصوات الحزبين - وعادة توجد أحزاب أكثر من ذلك عددا - بواسطة الجهاز المركزى للدعاية ، وقد يتم الاتفاق على المسائل العملية الرئيسية

المنذرة بالخطر ، ولكنه لا يمنع - مع ذلك - بقاء خلافات فى توجيه وسيلة معالجة هذه المسائل . وهذه الخلافات يجب أن يستمر إعلانها - إلى حد ما - للشعب .

ومثل هذا الوضع للأمور يغيب عن إدراك الداعية إلى النظم الديكتاتورية وعن إدراك تابعيه . ويبدو لهم أنه مجرد ضعف لأنه يتطلب من عامة الشعب ذكاء وقوة احتمال معا ، وهما أمران لا يرغب أولئك الدعاة فى وجودهما ولا يعتقدون أن وجودهما ممكن .

وعندما لا تكون هناك حالة شديدة من حالات الخطورة التى تمس الشعب ، فإن البلد الديموقراطى يعد كل أشكال الدعاية العامة - سواء أكانت سياسية أم لا - أمرا يعنى به بصفة رئيسية ذوو المصالح القطاعية فى أحزاب معينة أو طوائف من هيئات خيرية أو أعمال أو مشروعات تجارية ، كما أن الديموقراطية تعد من الأمور الطبيعية ألا يعيش الفرد فى دولة يغلى توتر الشعب فيها ، ولكن الدولة ذات الحكم الفردى فى حاجة إلى الإبقاء على توتر الشعب لكى يساعد هذا التوتر فى منع تفرق الآراء .

وخير وسيلة لمعرفة ما يمكن أن تكون عليه الدعاية فى دولة ديموقراطية هى النظر لفترة قصيرة إلى طبيعة الإعلان وأهدافه . فالمعلن - لكى يصيب نجاحا - يجب أن يدرك إدراكا كاملا أن هناك وكالات أخرى كثيرة ستعمل - ربما - فى نفس الوقت الذى يعمل فيه مستخدمة نفس الوسائل التى يستخدمها تماما لإقناع نفس الناس بشراء بضائع تختلف عن تلك التى يهتم هو شخصيا بها اهتماما مباشرا ، وحتى عندما يضمن تحقيق نوع من الاحتكار فإن المعلن لا يستطيع أن يجازف كما يفعل داعية الحزب السياسى الواحد دون أن يصده عارض ، ولو أنه قد يسير فى دعايته إلى أقصى مدى يستطيعه ، إلا أن سيره يقيده نوع من التشنج المعوق ، لا لأن أهدافه النهائية تختلف عن أهداف ذلك الداعية اختلافا كبيرا ، ولكن - على الأخص - لأنه لا تزال توجد هيئات منافسة لا تستطيع أن يقضى عليها بطريقة أخرى بالإضافة إلى دعايته .

ومن المفيد جدا تناول الإعلانات الشعبية التى كانت تنتشر منذ عشرين أو ثلاثين عاما ومقارنتها باعلانات اليوم . فالإعلانات الحالية ربما كانت أكثر اتساما - إلى حد كبير - بالطابع المسرحى وأكثر صورا وأكثر تسلية لتناسب انتشارها الواسع .

كما أنها فى نفس الوقت ، إما غير مباشرة متطلبة لفهمها - بالأحرى - بديهة سريعة حاضرة أو - إذا التزمت مستوى الوصف الواضح المستقيم - أكثر اتساما بالطابع الفنى متطلبة درجة أعلى من العلم المتخصص : ومع أنها لا تزال - من بعض الوجوه - فجة إلا أنها عند وزن مالها وما عليها يبدو من المؤكد أنها أصبحت فى كل وقت أكثر إثارة للمتعة الذهنية .

والواقع أنه من العسير أن يكون الخط العام لتطور الإعلان شيئًا غير ما سقناه ، لأن ما يحمل رجلا على التفكير -بطريقة نقدية - أكثر من أى شىء آخر هو أنه يجب أن يزاول مجموعة من أساليب العمل المختلف ألقى عليه عبء مزاولتها كلها فى نفس الوقت ، أو على التعاقب السريع ، وكل منها يبعث على الاقتناع بأنه الأفضل أو الأكثر إثارة للرغبة أو الأحكم . وفى مثل هذه الظروف لا شك أنه يستطيع - إذا شاء وإذا سمحت الظروف - أن يحاول أولا أسلوبا واحدا ، ثم آخر طبقا لما يصيبه من النجاح أو الإخفاق ،ولكن هذه الطريقة تقتضى من الوقت مالا طاقة لمعظم الناس باحتماله . كما أنها - لأسباب مختلفة - لا تبعث كثيرا على الرضى . والشخص العادى يلتزم - إن عاجلا أو آجلا - بأن يحاول النظر باعتدال إلى خطوط العمل المختلفة الممكنة ، ثم يقرر بعدئذ لنفسه قرارا وقد تتحكم فيه - عند هذا القرار - تأثيرات مختلفة ، ولكنه إذ ذاك يكون - على الأقل - فى الطريق إلى التروى فى الأمور باستقلال ، وهكذا فالدعاة المعنيون بحملة إعلانية قصد بها تسويق أى إنتاج معين إذ يدركون تماما أن من الراجح جدا أن قوما آخرين يشنون حملة تلتحم مع الحملة التى شنوها لتسويق إنتاج منافس من نفس النمط التجارى العام - هؤلاء الدعاة يتبينون ببصيرة أفضل أن هذا هو طراز الوضع المسئول تماما عن دفع الناس إلى البدء فى التفكير لأنفسهم . وقد يتأخر هذا التفكير وقتا طويلا ، ولكن الأمر سينتهى وفى المدى الطويل بأن يطبع هذا التفكير بطابعه القوى اتجاه الإعلان ومضمونه .

وفى الوقت الحاضر عندما ترسى جماعة ديموقراطية أسس دعاية مركزية لأغراض سياسية أو اجتماعية فإن مدير الدعاية عليه أن يضع نفسه موضع المعلن ويعمل ما يعمله ، فهو يعلم أن الجمهور سيسمع أصوات أخرى إلى جانب صوته تتحدث عن نفس المسائل ، ولكن ربما دون أن يكون لها نفس التأثير . كما يعلم أنه إذا أقدم على أن يلعب اللعبة طبقا لقواعد المباراة فإنه فى الدولة التى ينتمى

إليـهـا لا يستطيع أن يكمم هذه الأفواه الأخرى أو - على أية حـال - لا يسـتطيع أن يتمادى فى هذا السبيل ، ولذلك يجب عليه أن يصوغ دعايته بحيث يتقبلها الناس ويفحصونها ويختارون لأنفسهم أن يتبعوا ما يدعو إليه على أن يظلوا - طول الوقت - على حذر ذهنى بقدر طاقتهم .

وهذا يعنى - بوضـوح - أن التناقض الغـريزى بين الدعـاية والتـربيـة يصـل إلى أقصى حدته فى ظل الديموقراطية ، وأن مدير الدعاية الديمقراطية يتحمل عبء عمل عسير وكثير من الناس يجهلون ذلك ، ومع ذلك وفى نفس الوقت يبرزونه كـمـثل يضـرب عندمـا ينقـدونه بعنف . فـهـم لا يعنون بأن يفكروا فى أن أهداف الدعـاية السـيـاسـيـة فى الدولة الديكتـاتورية بسـيطة ومـبـاشـرة وهى : «إخضـاع الجـمـاهـير (١) ولا يتبينون كم هى مـعـقـدة وملفوفة تلك الوسـائل التى يجب أن تستخدمها الديموقراطية لكى تبعث فى الأفراد روح المبادأة وتحقق الرقابة على المجتمع معًا وفى نفس الوقت ، ومـمـا لا شك فيه أن كل نمط من أنماط الحكم الجماعى تمت تجربته فى الماضى له مزاياه ونقائصه ، ومع ذلك فإن أية طريقة من طرق الحكم لا تصبح أفضل مـمـا كانت عليه لو قلدت مزايا طريقة أخرى ، وإنما قد يقتصر أمرها على مجرد أن تصبح مختلفة عما كانت عليه ، فأولئك الناس - مـثـلا - الذين يحـثـون انجلتـرا على وجـوب أن تتـعلم من بعض الدول الديكتاتورية ، لا أن الدعاية يجب أن تنظم فحسب ، ولكن كيف يجب أن تعبر أيضا - لا يقترحون وضعا أفضل ولا أكثر فاعلية لانجلترا وإنما هم يطلبون - فى هذا الصدد - مجرد أن تتوقف انجلترا عن أن تكون انجلترا .

إن المشكلة يجب أن تواجه بانصاف . فالدعاية العامة لا تغير طابعها عندما تغير مكانها ، فهى فى كل مكان وزمان محاولة لصياغة رأى وشعور وتصرف عام دون نظر إلى الأسباب والبواعث ، وقد تدبر هى نفسها بحيث تصبح جهدا لإرساء حواجز نهائية لا يمكن مقاومتها حتى ضد احتمال بروز الأسباب والبواعث وذلك لاستبعادها من أن تكون فى متناول الرجل العادى أو أن يتمكن من أن يتأملها ، أو ربما أن توجه بحيث تصبح أحد المؤثرات التى صممت لكى تقود احتمال إبراز

(١) من بيان للدكتور جوبلز وزير الدعاية الألمانى نقلا عن كتاب (البج) ALBIG الرأى العام Public Opinion ص ٣١٦ .

الأسباب والبواعث التى تعرض للتأمل الحر بواسطة أكبر عدد ممكن من الناس ، أو أن تستخدم بوعى لرقابة القرارات وتوجيهها .

ففى الحالة الأولى تكون الدعاية عدوة للتربية ، وفى الأخيرة تصبح أحد العوامل المعاونة للتربية . فإذا انهارت الدعاية فى الحالة الأولى - وكل شخص لديه أى إيمان يسير العقل البشرى قدما سيرا لا مفر منه يجب أن يقتنع بأنها ستنهار -فإن من الأرجح أن فترة فوضى اجتماعية ستعقب ذلك الانهيار . أما فى الحالة الأخيرة فإنها تحمل بذور فنائها ، ويجب أن تزول عندما يحين حينها ، ولكنها ستزول فى يسر وبطريقة منظمة . إنها كالمساند والدعامات التى يستخدمها الطفل عندما يتعلم السير ، ولكنه عندما تقوى عضلاته وتصبح خلاياه العصبية وما يتصل بها على أهبة الاستعداد ، للنضج فإنه يزيح المساند ويسير وحده بحزم إلى حيث يشاء .

(١٤)
تجنب الدعاية

كيف يستجيب ذوو الآراء المبتسرة المتحيزة للدعاية ضد هذه الآراء[١]

يونيس كوبر ومارى جاهودا

(أ) تجنب الدعاية كمشكلة

إن بحث الاتصال الإعلامى بالجمهور يوضح الحقيقة التى تقرر أنه من العسير بصفة عامة أن تصل وسيلة الإعلام إلى الجمهور الذى ليس مستعدًا من قبل للموافقة على وجهة النظر التى تعرضها تلك الوسيلة ، ومن المعروف تمامًا أن كثيرًا من الناس يتجنبون وجهات النظر التى تناقض وجهات نظرهم الخاصة ، وذلك باستخدام وسيلة بسيطة هى ألا يعرضوا أنفسهم لمثل وجهات النظر المناقضة تلك ، وأولئك الذين فى أشد حاجة إلى التأثر بوسائل معينة من وسائل الاتصال الإعلامى هم - على الأرجح - أقل الناس الذين تصل إليهم تلك الوسائل .

وهكذا فإن جملة المستمعين إلى برامج الإذاعة التربوية هم نخبة القطاع المتعلم من جمهور المستمعين . وقد أوضحت دراسة برنامج إذاعى وضع بغرض تنمية الصداقة والتعاون والاحترام المتبادل بين جماعات مختلفة من المهاجرين أن برنامجًا عن االإيطاليين قد استمع إليه الإيطاليون خاصة وأن برنامجا عن البولنديين قد استمع إليه البولنديون خاصة ، وهكذا ، وعلى هذا النسق تصل الدعاية ضد الآراء المبتسرة المتحيزة على الأرجح إلى نسبة من الجماعة التى تؤمن بتلك الآراء بين المواطنين أصغر من نسبة من لا يؤمنون بها أو تؤثر فى نسبة من الجماعة الأولى أقل من النسبة التى تتأثر بها فى الجماعة الثانية .

---

(١) عن « صحيفة علم النفس » Journal of Psychology ، ١٩٤٧ ، ٢٣ ، ص ١٥ - ٢٥ .

وهذا بالطبع ليس إنكارًا لقيمة الدعاية للديموقراطية ، إذ أن جمهور مثل هذه الدعاية يتكون من الأنصار والمحايدين والخصوم . فمع أن الخصوم قد لا يتأثرون كثيرًا ، إلا أن الجماعتين الأخريين - الأنصار والمحايدين - قد تتأثران مع ذلك ، وهنا تعنى على الأخص - كيفما كان - برد فعل الشخص ذى الرأى المبتسر المتحيز على الدعاية ضد ذلك الرأى . فماذا يحدث عندما يواجه أولئك الأشخاص - فى وضع تجريبى - رغمًا عنهم بهذه الدعاية ؟

هناك احتمالان من الوجهة النظرية . فقد يقاومون هذه الدعاية أو قد يستسلمون لها . ولكن بحثنا فى هذا الحقل قد أظهر أن كثيرًا من الناس لا يختارون أى السبيلين ، بل يفضلون ألا يواجهوا التورط فى آراء تعارض آراءهم الخاصة حتى لا يحملوا على الاضطرار . إما إلى الدفاع عن أنفسهم أو إقرار الخطأ . فيقتصرون على تجنب المسألة نفسيًا فى بساطة بعدم إدراك الرسالة الإعلامية .

وإدراك وسائل الاتصال الإعلامى يتعلق - حقًا - بدرجة ما ناله الجمهور من تعليم ، ومع ذلك حتى بين الناس الذين من نفس المستوى التربوى ، فإن أولئك الذين لهم آراء مبتسرة متحيزة أكثر عرضة لإساءة فهم الرسالة الإعلامية من الذين ليست لهم تلك الآراء .

وهذا المقال يعالج مظهرين من مظاهر مشكلة تجنب الدعاية : حركتها الآلية وأساسها الثقافى وقد استخلص المظهر الأول من الدليل الذى جمع من نحو اثنتى عشرة دراسة عن استجابة الجمهور للدعاية ضد الآراء المبتسرة المتحيزة . أما الثانى فإنه بحث نظرى فرضى ، ومن المأمول إجراء بحث أوسع بكثير تمس الحاجة إليه للتحقق من آرائنا التجريبية عن الباعث على تجنب الدعاية .

(ب) الحركات الآلية لتجنب الدعاية

إن الدليل على الوسائل الفنية التى يستخدمها مستجيب ذو آراء مبتسرة متحيزة لكى يتفادى فهم إعلام ما يستخلص حتمًا بطريق الاستنتاج . وعملية التجنب تتفاعل فى عقل المستجيب وقتًا ما بين تقديم مادة دعائية ، وتقرير المستجيب «النهائى» ردًا على أسئلة من يتولى تقصيًا ، والحركات الآلية التى تكتنف التجنب - ولو أنها معقدة فى الغالب ، وقد تبدو متعمدة - يحتمل فى معظم

الحالات أن تكون لا شعورية . ومن المستحيل أن نحدد - حتى من بيان مستخرج من أعماق تقص دقيق - على أي مستوى من الوعي تتفاعل تلك العملية ، أي إلى أي مدى يدرك المستجيب تجنبه للدعاية .

والدليل على عملية التجنب يكشف غالبًا خلال التقصى إذا عدّ التقصى كلا متكاملاً ، ولم تؤخذ التقريرات الفردية بطريقة مفككة راكدة كأجوبة منعزلة على أسئلة منعزلة .

١ - تفادى المماثلة و « الخروج عن خط » الإدراك

أتاحت دراسة حديثة لمسلسلة قصصية من النوع المعروف باسم « الكرتون » مثلاً على الكيفية التى يكشف بها تفسير حركى « ديناميكى » لكل مراحل التقصى عن الدليل على عملية التجنب . فموضوع هذه القصة هجو فى الشخصية التى تسمى « مستر بيجوت[1] » ، ولكى يقرب الموضوع من أذهان الجمهور أظهر على أنه شخص هزأة يتصنع الحياء ، ذو مشاعر مغالية فى كراهية الأقليات .

وقد قصد منتجو القصة - بوجه التقريب - أن يحس القارىء ذو الآراء المبتسرة المتحيزة بأن آراء « مستر بيجوت » عن الأقليات تشبه آراءه الخاصة ، وأن « مستر بيجوت » شخصيته سخيفة ، وأن من السخف اعتناق مثل تلك الآراء ، وأن اعتناق مثل تلك الآراء مدعاة إلى أن يصبح الشخص هزأة مثل « مستر بيجوت » . ومن المحتمل إذن - كمرحلة أخيرة لهذه العملية - أن ينبذ القارىء آراءه المبتسرة المتحيزة لكى يتفادى المماثلة مع « مستر بيجوت » .

ولكن الدراسة أظهرت نتيجة تختلف عن هذا الاحتمال اختلافًا تامًا . فالمستجيبون ذوو الآراء المبتسرة المتحيزة الذين فهموا القصة ابتداء - أى أنهم أدركوا مراحل القصة الثلاث التى سبقت الإشارة إليها - إنما اجتازوا ذلك القدر من الإدراك لكى ينتزعوا أنفسهم من مماثلتهم مع « مستر بيجوت » وانتهوا إلى سوء فهم المقصود من القصة . وقد عبر كتاب التقرير الذى وضع عن القصة بقولهم انه حدث « خروج عن خط الإدراك »[2] .

---

(١) أجريت عدة دراسات على شخصية « مستر بيجوت » والدراسة التى استخلصت منها الأمثلة التالية أجراها « مكتب البحث الاجتماعى التطبيقى بجامعة كولومبيا للجنة اليهود الأمريكيين » .

(٢) على نسق التعبير عن خروج قطار السكك الحديدية عن القضيب derailement (المترجم) .

وهذا مثل على إحدى الوسائل التى أسىء فيها فهم القصة فقد ماثل المستجيب فى بادىء الأمر بينه وبين « مستر بيجوت » قائلاً – بين ما قاله فى معرض التدليل على هذه المماثلة « اننى أتخيله رجلاً أعزب مسنًا حانقًا – ثم يتابع ضاحكًا – أنا نفسى أعزب مسن »[1] .

ويبدو أيضًا أن المستجيب كان يدرك آراء « مستر بيجوت » المبتسرة المتحيزة . فعندما توالت أسئلة التقصى – ولكى يفرق بينه وبين « مستر بيجوت » – ركز على إثبات أن مستوى « مستر بيجوت » الاجتماعى أدنى من مستواه ، وأنه محدث نعمة . وقاده هذا إلى فقد التركيز على المشكلة الحقيقية التى عرضتها القصة .

« دم أمريكى من جسم أمريكى ينتمى إلى سادس جيل أمريكى . إنه لا يقبل بديلاً عن دم سادس جيل أمريكى ؟ ها . هذا طريف جدًا » .

وعند هذا الحد يبدأ الرجل فى التركيز على انخفاض مستوى « مستر بيجوت » الاجتماعى وينحرف اهتمامه عن مسألة الرأى المبتسر المتحيز أكثر فأكثر كلما تتابعت أحداث القصة . ويتابع المستجيب رده على الأسئلة :

– « حسنًا . أنت تعلم أننى شخصيًا أنتمى إلى الجيل الثامن من أصل انجليزى أباً وأمًا . وقد استقرت أسرتى فى « كنيتيكت » كـ . . كنيتيكت فى عام ١٦٣١ . سادس جيل أمريكى – هو نفسه رجل ينتمى إلى سادس جيل أمريكى . . . ربما يكون أحدث عهدًا من ذلك . . . فإذا سئل (فيما يفكر الطبيب؟) أجاب : أظن أنه مندهش . إنه يحسب أنه ذو أعصاب مخيفة . إنه يبدو رجلاً مسنًا نكدًا . قد لا يكون دمه هو الآخر أفضل دم » .

وبذلك أصبحت آراء « مستر بيجوت » المبتسرة المتحيزة مزاعم محدث نعمة . وكلما تتابعت أسئلة التقصى تزايدت نظرة المستجيب إليه مع أنه رمز « طبقة أدنى» – فإذا سئل :

(هل تعرف أحدًا على شاكلته ؟) – أجاب : لا لا أهتم بمعرفة أى شخص على هذه الشاكلة . لقد عرفت شخصًا يشبهه هناك فى كـ . . إن ذلك الرجل

---

(١) فى هذه القصة بالذات يظهر « مستر بيجوت » راقدًا فى فراش أحد المستشفيات وإلى جانبه طبيب ينتظر العناية به ويسمع وهو يقول أنه لا يقبل نقل دم إليه إلا « من جسم شخص ينتمى إلى سادس جيل أمريكى » .

بالذات كان ينتمى إلى الكنيسة التى تنتمى إليها أسرتى . . وقد كسب أيضًا أموالاً كثيرة من عمله فى دفن الموتى . تعرف أن أبى توفى منذ بضعة أعوام . وقد تكلف دفنه ١٨٠ دولاراً ، وكان يعلم أننى إذ ذاك لم أكن أملك شروى نقير ، فوثق بى ، وأمهلنى فى السداد على أقساط ، ولكنه تقاضى منى فائدة قدرها ٦ فى المائة . أجل . هذا ما تقاضاه منى . رغم أنه كان يعرف أسرتى وكل ما إلى ذلك . . . » .

وفى هذا الوقت تكون مسألة الرأى المبتسرة المتحيزة قد نحيت تمامًا فى طريق جانبى ولم يعد « بيجوت » يذكر المستجيب إلا بشخص من قدامى معارفه يعده - على الأرجح - سخيفًا ، وفى النهاية تصبح القصة بالنسبة له مجرد نوع من اختبار حكمه على خصائص الشخصية - وعندما سئل :

(ماذا تحسب الغرض من هذه القصة ؟) أجاب : الحصول على وجهة نظر أى شخص . ومن وجهة النظر هذه يمكن أن تكون فكرة عن هذا الشخص . تستطيع أن تحصل على أجوبة مختلفة . بعضها توافق وبعضها تقرر شيئًا آخر . تستطيع أن تقارن ، وأن تستخلص بعض النتائج .

(ماذا يحاول الممثل أن يفعل ؟)

الحصول على وجهة نظر الناس لمعرفة ما إذا كانوا يوافقون على فكرة الممثل عن الشخصية وغيرها . فالبعض يوافق ، والبعض يخالف .

وفى نفس الدراسة توجد تغيرات أخرى فيما يمكن أن يسمى « الطريق إلى الإدراك » ، فبعض الناس مسخوا شخصية « مستر بيجوت » وحولوها إلى صورة «كاريكاتورية» وجعلوا منه هدفًا للهزء ، وآخرون جعلوه يبدو ضعيف الإدراك ، وآخرون - أيضًا - حولوه إلى أجنبى أو يهودى . وبصرف النظر عن الخط المعين محور الاهتمام فإن العملية تظل - بصفة جوهرية - متطابقة لا تتغير نتيجتها ، وسواء التزم مستجيب خطًا من تلك الخطوط دون الآخر ، فإن الأمر يحتمل أن يعزى إلى المزاج والخلق .

إن مثل هذه الأشكال المعقدة للانتهاء إلى الالتفاف حول سوء الفهم عندما ينهض الدليل على أن الإدراك التلقائى قد تحقق فى بادىء الأمر ليست - طبعًا - أشكال التجنب الوحيدة التى يتخذها ذو الرأى المبتسر المتحيز للهروب من مواجهة النقد الذى تنطوى عليه رسالة مادة دعائية ، ولكنها أكثر الأشكال كشفًا

عن أثر الرأى المبتسر المتحيز على الإدراك . والصراع بشأن اعتناق الآراء المبتسرة المتحيزة صراع قوى حتمًا . كما أن تلك الآراء – فى نفس الوقت – عميقة الجذور حتمًا فى بناء الشخصية ، وتحت ضغط هذا الميل النفسى السابق يسلك المستجيب الطريق الدائرى الملتف حول فهمه الأول لمضمون المادة الدعائية ، وعند المماثلة مع الشخصية ذات الآراء المبتسرة المتحيزة والإحساس بنقد موقفه الخاص الذى تنطوى عليه تلك المادة الدعائية وابتكار الوسائل للتحلل من المماثلة مع الحالة الخاصة للرأى المبتسر المتحيز التى ترسمها المادة (الدعائية) ثم – فى سياق العملية – فقد الإدراك الأصلى للرسالة . وهذه العملية تتكرر بوضوح ، وحذق المستجيب اللاشعورى يتدخل بصفة رئيسية فى أثناء الخطوتين الأخيرتين .

٢ - إبطال أثر الرسالة (الدعائية)

فى حالات أخرى تقود عملية تجنب المماثلة إلى بحث أقرب إلى التعليل العقلى . ففهم الرسالة ، فهمًا رحبًا ، لا يسمح بتشويهها . والمستجيب يقبل تلك الرسالة من السطح ، ولكنه يبطل أثرها على نفسه باحدى وسيلتين . فإما أن يقر المبدأ العام الذى تعرضه المادة الدعائية ، ولكنه يزعم أن الفرد – استثناء – يحق له أن يتمسك بآرائه المبتسرة المتحيزة ، أو أنه قد يقر بأن المادة الدعائية الفردية المعروضة مقنعة بذاتها ، ولكنها ليست صورة صحيحة لأوضاع الحياة العادية التى تشمل جماعة الأقلية موضوع البحث . وهناك دليل على وجود هذين النمطين فى دراساتنا .

وأول نمط للتشويه حدث كرد فعل عام على كتيب تضمن دعاية للتعايش السمح ، وقد عرض فى شكل سلسلة من القصص الهزلية المصورة تصويرًا متقنًا والمعروفة باسم « الكرتون » مظهره سخف التعميمات فى الحكم على الجماعات المختلفة ، وانتهت بالقاعدة الذهبية « عش ودع غيرك يعيش » ، وقد تابع ذوو الآراء المبتسرة المتحيزة – مرارًا – كل القصة فى اهتمام ومتعة حتى نهايتها متقبلين القاعدة الذهبية ، ولكنهم أضافوا « إلا أن اليهود هم الذين لا يدعونك تعيش . إنهم يخرجون أنفسهم من القاعدة » .

وربما زاد على ذلك عدد من مالوا إلى تقبل القصة وحدها التى عرضت بشكل دعاية على أنها « مجرد قصة » ، وقد دفعت الحاجة لدعم قيمة الرعاية الموجهة للمادة الدعائية عن طريق إثارة الاهتمام الإنسانى معظم الدعاة إلى أن يضربوا المثل بقصة مسرحية ممتازة على المبدأ العام الذى يودون أن يدافعوا عنه ، وقد استخدمت هذه الطريقة الفنية فى اقتباس مسرحى إذاعى لقصة « القرية البلجيكية» التى قدمتها هيئة إذاعة كولومبيا كمسلسلة باسم « نحن الشعب » ، فقد تضمنت القصة أن رجلاً وزوجته من اليهود فى قرية بلجيكية احتلها الألمان تم انقاذهما بمعاونة القرويين الذين أخفوهما عن أعين « الجستابو » وقد اختتم العرض المسرحى الإذاعى بدعوة من « كيت سميث » إلى العطف على اليهود والتسامح معهم ، وقد اتضح من اختيار النظارة أن عدد المستجيبين الذين ظهر أنهم ذوو آراء مبتسرة متحيزة[1] ورفضوا قبول إمكان تطبيق هذه القصة المسرحية على غير ذلك من الأوضاع أكثر بمراحل من غيرهم . إذ أسموها « قصةمغامرات » و« قصة حرب » كما ناقشوا المواقف المثيرة فى القصة باهتمام عظيم ولكنهم عالجوا تلك الدعوة الواضحة المرفقة بوقائع القصة إما كما لو أنها لم توجه أو على أنها إضافة متكلفة ليس لها مبرر .

٣- تغيير إطار المرجع

يبقى بعد ذلك بحث شكلين آخرين من أشكال سوء فهم ذوى الآراء المبتسرة المتحيزة . أحدهما أعظم أهمية من الآخر . ففى هذه الحالات يتلون إحساس الشخص ذى الرأى المبتسر بتحيزه إلى حد أن المسائل المعروضة فى إطار من مرجع يختلف عن المرجع الذى يستند إليه هو تتحول لكى تصبح مطابقة لنظرته الخاصة . ودون أن يتنبه إطلاقًا إلى ما يرتكبه من مخالفات للحقائق يفرض على المادة الدعائية إطار المرجع الذى يستند إليه هو نفسه فى تدعيم تلك الآراء ، وقد وجد هذا النمط من الاستجابة فى دراسة لقصة « كرتون » ترسم شخصية عضو من أعضاء « الكونجرس » ذى مبادىء فاشستية متأصلة وآراء معادية للأقليات ، وتحاول المسلسلة أن تعرضه وتهزأ به لكى تركز اهتمام القراء على أمثال هذه الحركات المتأصلة غير الديموقراطية وتحملهم على معارضة هذه الاتجاهات ،

---

(١) وصفوا (فى البحث الذى أجرته إدارة البحث العلمى للجنة اليهود الأمريكيين) بأنهم ذوو آراء محافظة بشأن المسائل السياسية مما له صلة كبيرة بالموقف السلبى من الأقليات .

ومثال ذلك أن عضو « الكونجرس » يظهر فى إحدى حلقات المسلسلة وهو يتحدث إلى أحد طالبى الالتحاق بعمل فى مكتبه وقد أحضر رسالة توصية تشير إلى أنه كان يقضى مدة عقوبة فى السجن ، وأنه قاد اضطرابات عنصرية ، حطم أثناءها بعض النوافذ فيسر عضو الكونجرس ولذلك يقول له : طبعًا . أستطيع أن أستفيد منك فى حزبى الجديد .

وقد عقب أحد المستجيبين بقوله : قد يكون هناك أى شىء مريب . . .

قد يكون حزب عمال جديد . إن ما يدفعنى إلى هذا التفكير هو تلك الشخصية المبهمة . شخصية طالب الوظيفة .

وقد قرر آخر تعليقًا على الصورة الثانية فى المسلسلة : « تلك الثلة من الرجال هناك فى الكونجرس الذين يهتمون بالحرص على مناصبهم وعلى أصوات الناخبين أكثر من اهتمامهم بأى شىء آخر . . . إن واجنر عضو مجلس الشيوخ هذا لم أشعر نحوه بأى ميل . . » .

وقرر ثالث : أنها قصة عن إضراب العمال . . عن الاضطراب الناشىء من الاضطرابات . إنه ينشىء حزبًا شيوعيًا » .

ويصبح النمط أكثر وضوحًا فى الإجابة التالية : « إنه حزب يهودى يرمى إلى أن يحصل اليهود على مزيد من القوة » .

والتوجيه الوحيد الذى تلقاه المستجيبون من القصة هو واقع أنها حاولت أن تشهر بسياسى فاسد ، وما عدا ذلك فقد زودوا أنفسهم بمماثلة عضو «الكونجرس» مع أية شخصية يلوح لهم أنها تمثل الفساد السياسى » وهكذا فرضوا اتجاههم العقائدى الخاص على القصة ، وخلصوا إلى تفسير يرضيهم – تفسير يمثل مع ذلك تمام سوء الفهم لرسالة القصة .

٤- الرسالة يصعب فهمها جداً

والنمط الباقى من سوء الفهم يمكن استبعاده توًا ، وهو يتخذ نفس شكل سوء الفهم بواسطة الناس الذين ليست لهم آراء مبتسرة متحيزة . فبعض المستجيبين يقرون بصراحة أنهم لا « يدركون المقصود » ويعزى هذا فى الأغلب إلى حدود هؤلاء المستجيبين الذهنية والتربوية ، أو إلى عيوب فى الدعاية .

إن عمليات التجنب هذه تثير تعقيدات بينة أمام منتجي قصص « الكرتون » (وربما أمام منتجي مواد الدعاية عامة) . ومتى وجد الميل إلى تجنب الدعاية المضادة فإن التجنب يسهل سواء وضعت الرسالة بدهاء وخبث أو بهجو صريح ، ومع ذلك فإن تبسيط الرسالة قد يخفف من أثرها العاطفى ، وما تجدر الإشارة إليه أن أشكال الرسائل التى يراعى فيها مزيد من الدهاء والخبث والتى لذلك تكون أيسر تشويهًا وأصعب فهمًا هى الأشكال التى قد تلائم المحايدين والمؤيدين تأييدًا غير إيجابى للرسالة الموجهة ضد الرأى المبتسر المتحيز : وهؤلاء الناس لا يظهرون الدليل على هذا الاتجاه إلى تجنب الرسالة ، ولو أنهم قد يسيئون فهمها لأسباب أخرى ، وقد تكسب المادة الدعائية أنصارًا أقوى منهم . أما بشأن الشخص ذى الرأى المبتسر المتحيز فإن البحث يوحى بأن هذا الشكل من المعالجة عديم الأثر بالنسبة له .

ولكى ندرك الحركة الآلية للتجنب إدراكًا أفضل يجب أن ننتقل إلى بحث الباعث الذى يدعمه ودوره فى ثقافتنا .

(ج) التجنب – طابع ثقافى :

إن بحث الباعث الذى يدعم التجنب بحثًا كاملاً يستدعى من المعالجة الشاملة مزيدًا لا نستطيع أن نستوفيه هنا . ومع ذلك فإنه قد يشار إلى سمات ثقافية معينة يلوح أنها تدعم – فى قطاعات أخرى – نوع الحركة الآلية للتجنب التى ناقشناها فيما سبق .

١ – الخوف من العزلة وتهديد الشخصية الذاتية :

إن الخوف من العزلة قوة رئيسية فى مجتمعنا ، حيث تعتمد غالبية الناس على انتمائها إلى عضوية الجماعة لا سعيًا وراء رفاهيتهم المادية فحسب ، بل سعيًا وراء السند النفسى أيضًا ، وهم يعتمدون على قوانين الجماعة ، وقيم الجماعة كهدى لسلوكهم ومثلهم العليا . وكل فرد تقريبًا يود أن « ينتمى » وفى الوقت ذاته يتعقد الأمر بسبب أن الانتاج القائم على نظام تجميع قطع المنتجات الصناعية ، وتشابك الحياة العصرية يتجهان إلى دفع الناس إلى مزيد من الاتصالات العنصرية بزملائهم من البشر ، وبذلك يتزايد الخوف من فقد تماثلهم مع الجماعة .

وتجنب رسالة الدعاية التى لا يقرها الفرد يمارس فى حركة دفاع آلية من وجهة النظر النفسية ، وتؤدى أمثال حركات الدفاع الآلية هذه عملها كلما أحس الفرد خطرًا يهدد كيان شخصيته الذاتية ego .

- أى كلما تعلقت ثقته بنفسه فى الميزان ، والخطوات التى ينطوى عليها التجنب معقدة تعقيدًا بينا ، كما رأينا . ومع ذلك فإن هذه التعقيدات يمكن إهمالها قطعًا إذا قورنت بما تثيره مواجهة الرسالة من ضيق .

ومواد الدعاية المطبوعة التى تهاجم الرأى المبتسر المتحيز هى هجوم على الشخصية الذاتية للفرد الذى يعتنق ذلك الرأى . وفضلاً عن ذلك فإنها تكون هجومًا تدعمة سلطة الكلمة المطبوعة . أى أن من المفروض فيها أنها تعبر عن رأى جزء كبير من العالم لا يتفق فى الرأى مع المستجيب فيواجه بخطر ذى شقين : من جهة أنه غريب فى العالم الذى تمثله مادة الدعاية . ومن جهة أخرى أن اهتمامه فى المعنى بصحة الدعاية واحتمال قبوله لها يهدد أمن الفرد فى الجماعة التى يشعر بأنه ينتمى إليها والتى تساند آراءه الحالية ، ووضع الاستفتاء يفاقم تهديد أمن الفرد الذى يشعر أن الدعاية المضادة للتفرقة العنصرية تهاجمه والقائمون بالاستفتاء يتدربون على استخدام وسيلة جذابة مهذبة وودية عند الاتصال بمستجيب ، ولا تراعى فى اختيارهم المهارة التى اكتسبوها فحسب ، ولكن أناقة ولطف المظهر أيضًا لكى يتيسر اتصال هؤلاء المستجوبين (بكسر الواو) بالغرباء . ويحتمل أن يربط المستجيب - وهو فى حالة دفاع عن النفس - شخص المستجوب (بكسر الواو) بذلك العالم الخارجى الذى قد لا يتفق معه فى الرأى ، وإحجام المستجوب (بكسر الواو) عن المجاهرة برأيه الخاص يخلق الشك فى أنه - أيضًا - قد لا يقر موقف المستجيب .

لقد شرحت الطبيعة العاطفية للرأى المبتسر المتحيز شرحًا وافيًا - يكفى لتفسير السبب الذى يحدو غالبًا بالمستجيب إلى ألا يطمئن إلى مقدرته الشخصية على مناقشة الموضوع مناقشة منطقية . فهو يشعر إنه (بضم الياء) يهاجم فى أفكار تتجاوز المنطق فعلاً ، ولذلك يتجنب المسألة كلما أمكنه ذلك ، ورغم الافتقار إلى الدليل الكافى على صحة رأيه ، فإننا نجرؤ على الظن بأنه كلما قل تعليل شخص لآرائه المبتسرة تعليلاً عقليًا اشتد ميله إلى تجنب هجوم ما عليها ، والذين هم أكثر الناس نضجًا فى تعليل الرأى المبتسر تعليلاً عقليًا لن يشعروا

بالحاجة إلى التجنب بنفس الدرجة التى يشعر بها مؤيدو هذا الرأى ممن هم أقل منهم نضجًا من الناحية العقائدية ، ويشهد على ذلك العلم المنتحل عن المسائل العنصرية الذى تقدم فى هذا البلد بواسطة النازيين وأتباعهم ، ومع ذلك فأولئك الذين أصابتهم العدوى دون أن يخطوا الخطوة الحاسمة التى تتجاوز (حد العته) والذين لا يدركون إلا من خلف غشاوة مظلمة الأساس غير العقلى لموقفهم الخاص سيحاولون أن ينسلوا من الموقف الصعب الذى يعانونه عند مواجهتهم بالرسالة الدعائية المضادة للتفرقة العنصرية التى تبلبل أفكارهم .

٢ - تعدد نظم القيم الخلقية :

ويجب إضافة بعد آخر إلى ظاهرة تجنب الدعاية قبل أن يتم إدراكها ، وهذا البعد وثيق الصلة بذلك الجزء من ممارسة حياتنا الذى يشمل التقلبات والمتناقضات ، وتوجد فى مجتمعنا عادة تجنب مكيفة ثقافيًا ، وهى نتاج الواقع الذى يبدو فى أن كل فرد مرغم على أن يشترك فى عدة جماعات مختلفة كل منها لها نظم قيمها الخلقية الخاصة التى تتفاوت فى مدى تحديدها تحديدًا وافيًا ، وفى الغالب تكون هذه النظم القيمية - إلى حد ما - متعارضة أحدها مع الآخر ، وأحيانًا تدل على مستوى مختلف من القيم .

والأمثلة على قبول نظم قيمية متعارضة فى نفس الوقت متوافرة ، فكاتب الحسابات المسرف فى التواضع والخشوع الذى ينتحل دورًا هامًا فى المناقشات السياسية مع أصدقائه القدامى الذين يلتقى بهم فى حانوت حلاقة سمة مألوفة فى الأدب العصرى للعالم الغربى ، ولا تتملكنا الدهشة عندما يرفض صاحب متجر - يدافع خفية عن القضايا التقدمية - أن يستخدم كاتب مبيعات من الزنوج على أساس أن عملاءه سيعترضون ، ومثل كاتب الحسابات يصور الحاجة الماسة إلى الانتقال بمرونة من دور اجتماعى إلى دور آخر ، وصاحب المتجر أيضًا متورط فى صراع بين موقفه العام وموقفه الخاص ، وهو يرجىء حل هذا الصراع بإقامة مستوى متدرج خاص للقيم بشأن دوره فى عمله . فهو يعلم بأنه مؤيد (فى امتناعه عن استخدام زنجى) من الرأى المسلم به عامة والذى يقرر أن الحرص على أرباح الفرد يعلو الاعتبارات الأخرى .

وهكذا يتاح لنا خياران محتملان بالتناوب ، فهذه المتناقضات إما قد تستبين ، ويلتمس لها حل ، وإما قد تتجنب (بضم التاء) ، وبدلاً من النظر إلى التقلبات

نظرة عادلة فإن الواحد مناقد يقسم حياة الفرد إلى عدة جيوب صغيرة يتحدد السلوك فيها بواسطة قيم مستقلة ، بل متعارضة . أو أن الفرد قد يناقش - بواقعية - القيم التى تكتنف أدوار حياته المختلفة من يوم إلى يوم ، ويزن جداراتها النسبية كعوامل هادية للسلوك .

وقد توافر الدليل على ذلك فى دراسة عن أثر حياة المصنع على الأطفال حديثى العهد بترك المدارس . إذا ووجهت القيم الخلقية التى تعلموها بالمدارس - فى المصنع - بتضخم أهمية المهارة دون الناحية الخلقية . ومع ذلك فإن استيعاب هذا النظام القيمى الجديد قد تمت ممارسته بسرعة لا تصدق ولكن النظامين لم يتوافقا ولم يستسلم أحدهما للآخر . بل تعايش كل منهما فى ناحية منفصلة من الشخصية ، وموضوع الصراع تم تجنبه بانفصام الشخصية .

٣ - عوامل ثقافية أخرى فى التجنب :

وفى هذا الصدد يجب أن تراعى الحاجة إلى رد الفعل التلقائى الذى هو من خصائص الناس الذين يعيشون فى نطاق ثقافتنا . فالجمهور الذى يتأثر بوسائل الاتصال الجماعية يشكو الجوع من ناحية الترفيه ، وكثير منهم يسكن فى أثناء العمل إلى الضيق والتعب وهم - خارج أعمالهم - يودون أن يحصلوا على اللهو . ويودون أن يرفه عنهم دون أن يجهدوا أنفسهم فى التفكير ، ويشجعهم نمط التصحيف الطباعى المتشابه « ستريوتايبى » الذى تتبعه وسائل الاتصال بالجماهير على الاسترسال فى هذا الكسل العقلى ، وهم لا يواجهون على الدوام ببرامج ترفيه مصبوبة فى نفس القالب فحسب ، ولكنم يتلقون حتى التوجيه عن الكيفية التى يتم بها رد فعلهم على ذلك الترفيه . فكل شىء يتم هضمه نيابة عنهم ، كما تم هضم ما سبقه من برامج . وهم يخطرون بواسطة الإعلانات بأن مسرحية هزلية سوف تجعلهم يضحكون حتى « تتوجع جوانبهم » ، أو أن قصة حب عاطفية سوف « تعصر قلوبهم » كما جاء فى إعلانين من أكثر الإعلانات سطحية ، وقد عبر أحد الكتاب عن ذلك بقوله : « إنهم يسيرون إلى مصيرهم تدفعهم وصلة الكلمات المعادة المتكررة » وهم لا يعتنقون الأفكار كأفكار ، ولكن كشعارات . فإذا تسللت الأفكار تحت ستار الترفيه فإن النفور المعتاد من بذل الجهد يسارع إلى نجدة الشخص الذى هو هدف الدعاية ويعينه على تجنب الغرض من الرسالة . والخيار البديل - وحده - هو مواجهة تأثيرات الرسالة والتفكير فيها ، وهذا ما لا يريدونه ، ولا هم اعتادوا عليه .

وعامل « قيمة الاعتراف » يكتنف أيضًا - ولكن ربما بدرجة أقل أهمية - الموضوع المعقد الخاص بتجنب الدعاية ، فجماهير النظارة تميل إلى تفضيل الأشياء المألوفة لهم . وأحب موسيقى هى الموسيقى التى يعرفها الواحد منهم . والجديد منها يثير قليلاً من الريبة ، ويستدعى مزيدًا من الجهد فى الاستماع ، وليست له ملابسات سابقة مستقرة تفرض طابعًا من الاستجابة ، ومن ثم ينبذونها ، ومن الراجح تمامًا أن اتجاهًا مشابهًا يحمل على الإحساس به فى تقدير الآراء الجديدة (والمعارضة) .

٤ - لماذا التجنب ؟

لماذا أصبح التجنب عامًا إلى هذا الحد ؟ إن الجواب يتصل - إلى حد ما - بالمصاعب التى يجب أن يواجهها الفرد لتحقيق التجانس فى مختلف القطاعات فى أثناء ممارسة حياته اليومية ، ولا شك أن مواجهة المتناقضات ومحاولة حلها يدعو إلى إقامة ضغوط مزعجة تتضمن بدورها مصاعب شديدة لمعظم الأفراد . فمثلاً عند تأمل الواقع الذى يقرر أن معظم الناس يقرون آراء الطائفة الاجتماعية التى ينتمون إليها يتضح أنهم يتكيفون بواسطة الناس الذين يعيشون معهم ، وبدورهم يختارون أن يكونوا مع الناس ذوى المواقف التى تطابق مواقفهم الخاصة ، وتبنى موقف مثير للصراع يدعو إلى خلق التنافر فى العلاقات بين الأشخاص . ويستدعى إلقاء عبء قدر كبير من التوافق على عاتق الفرد ، وحتى مراعاة وجهة النظر المعارضة قد تخلق ضيقًا شديدًا .

وهكذا يبدو التجنب كشكل من أشكال السلوك يمارس ممارسة سليمة ، ويتلقى التشجيع من البناء الاجتماعى الذى نعيش فيه . ومما يتصل بالاستجابة إلى الدعاية ضد الآراء المبتسرة المتحيزة أنها تستخدم كدفاع ضد الهجوم على الجماعة . وهذا قد يفسر إلى حد ما لماذا يميل فى الغالب أشخاص ذوو شخصية ذاتية ضعيفة النمو إلى سلوك هذا المخرج السهل .

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of PUBLIC OPINION AND PROPAGANDA, edited by Daniel Katz, Dorwin Cartwright, Samuel Eldersveld, and Alfred McClung Lee, Copyright 1954 by Holt, Rinehart and Winstonm Inc, Published by Holt, Rinehart and Winston, Inc., New York, New York.

Rudolf Arnheim *for The World of the Daytime* Serial by Rudolf Arnheim, from RADIO RESEARCH 1942-43 by Lazarsfeld and Stanton.

Cambridge University Press for *The Aims of Political Propaganda* from POLITICAL PROPAGANDA by F. C. Bartlett, copyright, 1940, by Cambridge University Press.

Harper & Row, Publishers for *What Missing the Newspaper Means* by Bernard Berelson from COMMUNICATIONS RESEARCH, 1948-49, by Lazarsfeld and Stanton.

Marie Jahoda for *The Evasion of Propaganda: How Prejudiced People Respond to Ani-Prejudice Propaganda* by Eunice Cooper and Marie Jahoda from THE JOURNAL OF PSYCHOLOGY, 1947.

Alfred McClung Lee for *Social Determinants of Public Opinion* from THE INTERNATIONAL JOURNAL OF OPINION AND ATTITUDE RESEARCH, 1947.

Macmillan & Co., Ltd. for *The Nature of Public Opinion* from THE AMERICAN COMMONWEALTH by James Bryce.

New York Academy of Sciences for *The Basic Psychology of Rumor* by Gordon W. Allport and Leo J. Postman from TRANSACTIONS OF THE NEW YORK ACADEMY OF SCIENCES, Series II, 1945.

Public Opinion Quarterly for *Toward a Science of Public Opinion* by Floyed H. Allport.

Scientific American for «*Television and the Election*» by Angus Campbell, Gerald Gurin, and Warren E. Miller, copyright C 1953 by Scientific American, Inc. All rights reserved.

Survey Research Center for *Books, Libraries, and Other Media of Communication* from PUBLIC USE OF THE UNIVERSITY by Angus and Charles A. Metzner.

Yale University Press for *Publics, Public Opinion and General Interests* from POWER AND SOCIETY by Harold Lasswell and Abraham Kaplan.

Kimball young for *Comments on the Nature of «Public» and «Public Opinion»* from the INTERNATIONAL JOURNAL OF OPINION AND ATTITUDE RESEARCH, 1948.

المشتركون فى هذا الكتاب

المحـــررون :

دانييل كاتز : أستاذ علم النفس بجامعة ميتشيجان .

دوروين كارترايت : مدير مركز أبحاث ديناميكية الجماعة بجماعة ميتشيجان .

صمويل إلدرزفيلد : أستاذ مساعد علم السياسة بجامة ميتشيجان .

ألفريد ماكلنج لى : رئيس مجلس قسم الاجتماع بكلية بروكلين .

المسترجم :

الدكتور محمود كامل المحامى :

بدأ اهتمامه بالإعلام وما يتصل به من أنشطة الاتصال بالجماهير عقب تخرجه فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، فقد اشترك فى تحرير مجلات « دار الهلال » ورأس تحرير مجلة « اللطائف المصورة » ثم أصدر مجلة « الجامعة » . وفى عام ١٩٤٦ اشترك فى لجنة البرامج بالإذاعة المصرية ، ومثل هذه الإذاعة فى اجتماع الأمم المتحدة بباريس عام ١٩٤٨ ، واشترك فى لجنة الإعلام بجامعة الدول العربية ، ومثل هذه الجامعة فى مهمة إعلامية بالأمم المتحدة فى نيويورك عام ١٩٤٩ وضع عنها التقرير الخاص بمكاتب الإعلام التى أنشأتها الجامعة . عمل خبيرًا للإعلام بوزارتى الخارجية والشئون الاجتماعية ، ونشر سلسلة من الدراسات الإعلامية ، منها « مصر خارج مصر » و « الدعاية للدول العربية ووسائل تنظيمها » ، وحاضر عن الإعلام بمعهد العلوم السياسية بجامعة القاهرة . وبين عامى ١٩٥٧ و ١٩٧٣ قام بأكثر من رحلة إعلامية بالولايات المتحدة وأوروبا حاضر فى أثنائها أمام نقابات المحامين ومعاهد العلوم السياسية ونوادى الروتارى الدولى ، ومثل الجامعة العربية فى مهمة إعلامية بغرب أوروبا عام ١٩٧٤ ، كما عمل خبيرًا مستشارًا للأمم المتحدة فى اثنتى عشرة دولة أفريقية وآسيوية .

صاحب التصدير :

الدكتور / سمير محمد حسين :

عميد كلية الأعلام جامعة القاهرة . تخرج فى قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة ، وحصل على درجة الماجستير ١٩٦٦ والدكتواره ١٩٦٩ ، عمل أستاذًا مساعدًا بالمعهد القومى للإدارة العليا (١٩٦٩ - ١٩٧١) ، ثم نقل إلى قسم الصحافة بآداب القاهرة ، ثم أستاذًا بكلية الإعلام إلى أن تولى عمادتها عام ١٩٨١ .

له مبادرات ومساهمات أكاديمية فى مجال الإعلام بفروعه المختلفة ، فقد أنشأ قسم الإعلام بجامعة الملك عبد العزيز بالسعودية ، وعمل أستاذًا زائرًا بقسم الإعلام بجامعة كلورادو بأمريكا (١٩٧٨) ، وبمعهد الصحافة وعلوم الأخبار بتونس (١٩٧٧ - ٧٨) ، واشترك فى عشرات المؤتمرات والندوات وحلقات البحث ، أسهم فى إجراء العديد من البحوث والاستشارات الإعلامية ، وقدم إلى المكتبة العربية ١٥ مؤلفًا فى مجالات الإعلام المتنوعة .

مصمم الغلاف : عادل البطراوى

الفهـــرس

تصدير بقلم الدكتور سمير محمد حسين ١

مقدمة بقلم الدكتور محمود كامل ١٤

الجزء الأول : الرأى العام : مفاهيمه وطبيعته ٤٠

١ – بعض أوصاف الرأى العام ٤١

٢ – تعليقات على طبيعة « الجمهور » و « الرأى العام » ٤٣

٣ – نحو علم الرأى العام ٥١

٤ – طبيعة الرأى العام ٦٩

٥ – الجماهير والرأى العام والمصالح العامة ٨٣

الجزء الثانى : العوامل المؤثرة فى الرأى العام ٨٨

٦ – رسالة عن الحكومة ٨٩

٧ – العوامل الاجتماعية المحددة للرأى العام ١٠٤

٨ – التفسير النفسى الأساسى للإشاعة ١٢٥

الجزء الثالث : الإعلام والرأى العام ١٤٣

٩ – الكتب والمكتبات ووسائل الإعلام الأخرى ١٤٤

١٠ – عالم المسلسلة النهارية ١٦١

١١ – ماذا يعنى افتقاد الصحيفة اليومية ١٩٨

١٢ – التليفزيون والانتخابات ٢١٣

الجزء الرابع : الدعاية ٢٢٢

١٣ – أهداف الدعاية السياسية ٢٢٣

١٤ – تجنب الدعاية – كيف يستجيب ذوو الآراء المبتسرة المتحيزة للدعاية ضد هذه الآراء ٢٣٧



طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر

هذا الكتاب

.. الكتاب الذى بين يديك يجمع بين الحداثة والقدم فى الوقت نفسه.

وقد عنصر عدان متعاملان - رغم تنافرهما - على تحقيق الفائدة المتوقعة من ترجمة هذا الكتاب ونشره .

ووجه الحداثة فى هذا الكتاب مادته والقضايا المثارة به ، والتفريعات التى يعمل عليها ، فهو يعالج قضايا الرأى العام والدعاية والإعلام من عديد من الزوايا ، وهى نوع القضايا المتجددة بطبيعتها ، والتى لاتزال فى حاجة ملحة الى جهد كبير من الباحثين والممارسين فى مجالاتها لكشف جوانبها المختلفة على المستويين الأكاديمى والتطبيقى ، وتبدو هذه الحاجة بشكل واضح فى مصر ، حيث تفتقر المكتبة العربية الى الدراسات والبحوث المتنوعة فى قضايا الإعلام بصفة عامة ، والرأى العام والدعاية بصفة خاصة ، كما .. ال العديد من المنظمات المصرية فى مسيس الحاجة الى الاستخدام الموضوعى الرشيد لأساليب قياس الرأى العام ، وتوجيه .. تأثيره فى الاتجاهات المحابية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المثارة فى المجتمع.

أما وجه القدم فى هذا الكتاب فيتمثل فى بعض النتائج الواردة فى بعض أجزائه للتدليل على اتجاهات معينة ، أو للتأكيد على نقاط فى المناقشة ...

من .. ـير

الدكتور سمير محمد حسين



